

رواية

امرأة بطعم التوت

حلا المطري

تويا

رواية

امْـرَأَةٌ بِطَعْمِ التُّوتِ

حَلَا المَطْرِي

عنوان الكتاب: امرأة بطعم التوت

المؤلف: حلا المطري

المراجعة اللغوية: عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي: Morality Designs

تصميم الغلاف: عبد الوهاب رزام

رقم الإيداع: 2017/2799

ردمك: 6-29-6549-977-978

الطبعة الأولى: يناير 2017

المدير العام : هالة البشبيشي

مدير المبيعات : شريف الليثي

دار تويا للنشر والتوزيع

dartoya2015@gmail.com

دار تويا للنشر و التوزيع Dar.toya

@Dar_Toya

Dar.toya

(+2) 01150483084 - (+2) 01000706014

٣٥ شارع النصر - المعادي - القاهرة - مصر

روايـة

امْـرَأَةٌ

بِطَعْمِ التُّوتِ

حَلَا المَطْرِي

دار تويا للنشر والتوزيع

إهداء

جَميلَتِي..

اعلمي أنِّي لسْتُ قدِّيسةً ولا شيخةً، ولا منَ أولياءِ الله الصَّالحين، وحتّما لستُ خليفةً لتيريزا.. لكنِّي اصطفيتُكِ في رسالتي، ولم أصطفِ في رسالتي أحدًا إلّاكِ..

مُتعبةٌ أنتِ يا امرأة، مُتعبةٌ بهذا الجسد..

إليكِ أنتِ.. دون سِواكِ.. إليكِ أنتِ يا حَبَّةَ التُّوتِ

مَوَدَّتِي..

حَلا المْطِري

”الحكايةُ لا تنتهي عندما تنتهي، الحكايةُ تبدأ، وحين تبدأ، يكونُ عليها أن تواصلَ هذه البدايةَ إلى بدايةٍ أخرى.
أنظرُ ورائي، فلا أرى نهايةً لشيءٍ، وأنظرُ أمامي فلا أرى سوى سلسلةِ بداياتٍ، النِّهاية دائمًا بداياتٌ كثيرةٌ. فمن أينَ أبدأ؟“

إبراهيم نصر الله

١

أنظرُ لمرآتي..

أطالعُ جسدي الذي بدورهِ يُطالعُني عاريًا.. وبعينيَّ أتتبعُها جميعَها، شاماتٌ سوداءُ على جسدي.. لكثرتِها.. أستغربُ، يمينَ عيني، يسارَ شفاهي.. وكثيرٌ على عُنقي وأوائلَ صدري كتوتٍ أسودَ منثورٍ، توتٍ سقطَ لتوِّهِ من شجرةِ خُلدٍ شاكسها نسيمُ الجنَّة.. فأبسمُ ساخرةً لتلكَ الأسطورة، أسطورة مفادُها أنَّ إلهة الجمال حين تغارُ من إنسيَّةٍ، فإنَّها تفتعلُ وجودَ الشامات على جسدِ من تغارُ منها... ويحي.. أتغارُ منِّي الآلهة؟ خَسِئَتْ الآلهةُ وجمالي معًا...

اسمي ريم عبد الجواد.. عاهرةٌ ولم أُخلَق عاهرة!!

المشكلةُ أنَّهُ..

لم يكُن عُهري يومًا مُقترنًا بمالٍ أو بحاجةٍ، فلم أكُن عبدةً لجنسٍ أو لذَّةٍ، لم يكُن لتمرُّدٍ أو لثورةٍ.. أصابني العُهرُ كأنَّهُ عدْوى.. ولم يعنني أبدًا أن أبحثَ لدواءٍ لهُ..

لم يرني روبرت يومًا عاهرةً.. ظلَّ يستخفُّ بأسبابي وبعروبتي.. فمِن وجهة نظرهِ.. العاهرةُ هي من تأخذ مقابلًا لجسدِها، العاهرةُ هي من تقف ليلًا عند النَّواصي بحثًا عن جائعٍ يلتهمُ جسدَها بأمرٍ من قوَّادها.. يسألني ساخرًا:

-أتفعلين أنتِ ذلك؟! ها؟ أتفعلين؟

آهٍ يا روب.. فما أفعل بعظيم.. بالطَّبع لن ترى أنتَ ذلك وقد أتقنتَ

حفظ جسدي.. أتقنتَهُ أكثرَ مني يا رَجُل.. فجسدي هو خارطة لذَّتك.. أتذكر؟!

المُجرم يحفظ عدد خطوط تمدُّد بشرتي الطفيفة عندَ جوانب فخذيَّ. أتوعَّد لهُ دومًا أن أُزيلها بـ "الليزر" فيُقسمُ بأنِّي لو فعلت.. لأعادها جميعَها إليَّ بأن يحبسني في المنزل ولا يُطعمني سوى الوجبات السريعة والدُّونات. أضحكُ دومًا رُغمَ وجعي.

أمامَ تلفازٍ كبيرٍ أجلسُ، ألفُّ حولي غطاءً كنتُ قد ابتعتهُ من إحدى رحلاتي إلى تركيا، على يميني عُلبة سجائري، وعلى شِمالي صحنٌ كبيرٌ من التُّوت البرِّي بلونهِ الأحمر والأزرق والأسود..

أُمسِكُ بواحدةٍ، أُدرِكُ كم تُشبهني حبَّة التُّوت وأنا أُطالعها، كنتُ أفكِّر أنَّني ربَّما كنتُ "توتة" في يومٍ ما، أنا أحبُّها، أقص عليها كل يوم ما كان من أمري، وآكلها برقةٍ، أجدُها تفوقُ التُّفاحَ شهوانيَّةً، لم أتخيَّل آدم يومًا بتُفاحةٍ يُنفَى على أثرِها من الجنَّة، التُّفاح لا يَنفينا من الجنَّة، قد يفعلُ التُّوت.. هذا المزيجُ الشيطانيُّ اللذيذ، ما بين حلاوةِ السُّكر وأثرالمرارة الأخير على طرفِ لسانك كحمضِ الليمون!

ودقَّ الباب، مَن تُراهُ يا توت الطارق؟

وما بينَ تساؤلٍ مُفتعلٍ ومعرفةٍ مُسبقةٍ بهويةِ الطارق.. نهضتُ عن مقعدي أسيرُ بكسلٍ نحو الباب، أنظرُ من العين السحرية، ألعنُ المجهود في التدقيق لأرى مَن الطارق وقد ذكَّرني بضرورة عمل "الليزك" لتصحيح نظري المُهان.. إنَّهُ روبرت.. ومن يأتي لجسدي غيره؟

أفتحُ الباب لعينيْهِ الزرقاويْن أوَّلًا، فهما أوَّل من يُلقيان السلام.

- تأكلين التُّوت؟

يسألني باسمًا، لا أجيبهُ وأستمرُّ في تناولها. يقتربُ منِّي، يأخذُ واحدةً، يبتسمُ بمَكرٍ أعرفهُ، يأخذ قضمةً صغيرةً، يقفُ قريبًا بما يكفي لأشهدَ عُصارةَ التُّوت تحتلُّ شفتيهِ وقلبي في آنٍ. يأخذُ باقي "التُّوتة" الغارقة بخمرِها ويُمررها على شفتي. يبدأُ بشفاهي العلوية، ثُمَّ السفلية وكأنَّهُ يضعُ لي أحمرَ شفاه على طريقتهِ الخاصَّة. أضحك فيأمرني ألَّا أتحرك، يأكل "التّوتة"، ثُمَّ يأكل شفتي.

وأحيانًا أسألُني، ما الذي يتطلبهُ حبُّكَ يا روبرت غيرَ هذا الجسد الهالك بي قبلَ بك؟ يقولُ لي: لكِ قلبٌ عجوز رغم طفولتكِ الموسميَّة. يقولُ لي إنَّني أجمل ما رأت عيناه، فلقد احتل قبلي أجسادًا باريسيَّة ويونانيَّة وروسيَّة وأرمنيَّة وإيطاليَّة.. لكن هذا الجسد العربي، مليءٌ بألمٍ قديمٍ. أنظرُ للزرقةِ في عينيْهِ.. أملؤهُ قُبُلًا.. ولا أجيبُ.. فيسكت.

حضنهُ كبيرٌ كهذا العالم.. فاجأني مرَّةً بإحضارهِ لي كلبًا من سُلالة الهاسكي. ما أنْ رأيتهُ حتَّى ذابَ قلبي حُبًّا فيه، جلستُ على ركبتيَّ أحضنُه، سألتهُ:

- أأنثى أم ذكر؟

قال مُعاتبًا:

- بالرَّغمِ من أنَّني أُفضِّل أن أكون الكائن الذُّكوري الوحيد في حياتك، لكن لا بأس لو كان الآخر هذا الكلب اللعين.

ضحكتُ عاليًا. سألني عن اسمٍ اختارهُ له.

- رعد.

قلتُها لهُ بالعربيَّة أوَّلًا، ثُمَّ ترجمتُها له بالإنجليزيَّة، ومع هذا لم يُناده يومًا إلَّا برعد، ولو بعربيَّةٍ ركيكةٍ.

في شقةٍ عُلويَّةٍ أقطنُ أنا، في إحدى ضواحي نيويورك. شقة يُقال عنها

"أستوديو"، لا غُرَف، لا أبواب، لا سجاجيد، لا وجود لفوضى البيوت العربيَّة. بساطةٌ مُفرطةٌ، أثاثٌ قليلٌ يشي بفتاةٍ مُشاغبةٍ لكنَّها مُتعبة. وكنتُ لتوِّي جهَّزتُ مكتبةً معلَّقة على الحائط على شكل وردةٍ كبيرةٍ كي أرُصَّ عليها جميع الكتب التي ابتاعها لي روبرت. المجنون راحَ يملأ عمري بالكتب، الروايات خاصَّةً.. يقول لي إنَّ الأدب اللاتيني يُشبهُني، لم أصدِّقهُ إلَّا حينما بدأتُ برواية الأفلام لـ Hernán Rivera Letelier التي ابتاعها لي.

في جلسةٍ واحدةٍ، التهمتُها.. وقد أسرتني (م.م)، وسرقتني عَنوةً من بين أبيها العاجز، وإخوتِها الذكور، وأُمٍّ هاربة.. شاركتها الرذيلة..

ولا يزالُ صوتكِ في رأسي يا (م.م).. لا تكادينَ تبلعينَ ريقًا وأنتِ تروينَ لي آخرَ فيلمٍ شاهدتهِ.. تختارينَ ملابسك وأزياءكِ بعنايةٍ.. لتُجسِّدي لي فيلمًا كاملًا بجميع شخوصهِ وأصواتهِ وألوانهِ..

بكيتُ حينَ انتهيتُ منها، لُمتُ روبرت ولكمتُهُ في صدرهِ، قلتُ لهُ إنَّ الأمر لا يحتمل مزيدًا من البؤس.. استقبلَ بكائي ضاحكًا، ودعاني للحب. يقول لي إنَّ الجنس وقتَ الحُزنِ لا مثيلَ له.. بل يقول إنَّ المتعة الجنسيَّة حين يكون أحد الأطراف حزينًا، لا تُضاهيها متعة، حينَ تكون الأحاسيس عبارة عن إعصارٍ ثائرٍ يجمع عالمَيْن مُتناقضيْن.. فتنصهر بكُلِّ حواسك في العالم الآخر.

يستكملُ حديثهُ قائلًا:

- راقصة الباليه مثلًا، قد ترسمُ لنا بجسدها المُتمايل لوحاتٍ ولوحاتٍ تحكي فيها كل شيء دون أن تنبس بحرفٍ، هذا التمايل البائس يجعل الحصاد عظيمًا.. ألا تتفقينَ معي أنَّ الإبداع يُولد من رحمِ الألم؟

يقولُ لي إنَّ الجنس في هذا الوقت الحزين، كالاستماع للنَّاي، أو "الدُّودوك"، تلك الأداة ذات الألفيْ عام. لم أُصدِّقهُ في أن يكون الأمرُ شبيهًا

لأداة موسيقيَّة. ابتسمَ لي وهو ينسحبُ من بين ذراعيَّ عاريًا، ليُشغل جهاز الموسيقى في أحدِ الأركان..

الموسيقى..

أن تصمُتَ فيكَ الحواس، أن يُصبح السلام فيك خالدًا مُخلَّدًا.. أن تُغرِّد الرُّوح مع الملائكة، تُغمضَ عينيكَ في توسُّلٍ مع الألحان، يذهبُ رأسكُ يمينًا وشِمالًا دونَ أن تدري، وسهوةً تبتسم لا إراديًّا، لا شعوريًّا، ثُمَّ تتَّحد مع الألحان، تصبحان كالجسد الواحد، حتَّى إذا سرتَ، تساقطتْ منكَ بعضُ "دو ري مي فا صو لا سي".

هيَّمني يانِّي مع "الدّودوك الأرمني"، في رائعتهِ:

Prelude and Nostalgia.

وما إن عادَ إليَّ روبرت.. حتَّى وجدني غارقةً في دموعٍ صامتةٍ، أدعوهُ لجسدي الحزين:

أن تعالَى إليَّ..

تعال لجسدٍ حزينٍ

بالإثمِ انكوى

***

٢

لوحدي.. هكذا عرفتُني..

وجدران أربعة، قيل للجدرانِ آذان، ولكن في بيتي لها عينان وفم. عينان تريان خطيئتي وفمٌ يُناديني هو الآخر بعاهرةٍ.. يظنُّني لا أسمع.. لكنِّي دومًا أسمع!!

ولكن إن دققنا النَّظر، فأنا لم أكُ يومًا لوحدي، بل ظلَّ يلازمني شبحُ أمي وفارس وحُسام.. وأبي.. عرفتُ أنَّ لي أختًا أنجبتها أمي، لم أتوقع أن تلد أمي بعد الأربعين، لكنِّي فرحت أنَّها ولدت وأنَّ لي أختًا اسمها تولين، تصلني الأخبار أوَّلًا بأوَّل بفضلِ "الفيس بوك".

يا الله..

طربتُ للخبر وكأنِّي أنجبتها، أنا التي لا أؤمنُ أنَّ لي رحمًا قد يسعُ مُضغة يومًا. رحتُ أدور حولَ نفسي.. أرقصُ، أهمسُ: تولين.. تولين.. تولين.. سأشتري لها ملابسَورديَّة، وجوارب ورديَّة، وأغطية ورديَّة، وحريٌّ بحفَّاضات "بامبرز" أن تكونَ ورديَّة.

اطفأتُ سيجارتي وهرعتُ لجوجل أسأله عن معنى اسم تولين، أخبرني صامتًا: هالة النُّور حول القمر..

رحتُ أسأله.. وتولين عبد الجواد؟

لم يُجبني، بل "استحمرَ" في نتائج البحث. أشعلتُ سيجارة.

- حريٌّ بكِ أن تتوقَّفي عن تدخين السجائر.

روبرت يسألني للمرَّة الألف، ولا أُلقي لسؤاله بالًا، هو الذي علَّمني

التدخين، يطلب مني التوقُّف الآن بعد خمس سنوات؟.

- وحريٌّ بكِ كذلك أن تَكُفِّي عن البحث عن الماضي!

- نحنُ لا نبحث عن الماضي صديقي، الماضي هو من يأتي بحثًا عنَّا، يرغمنا أن نتواجد بين حساباتهِ وطيَّاته، يمنعُنا من ترك المجال مفتوحًا لعدوَّيْهِ الحاضر والمستقبل. الماضي نرجسي، يُحبُّكَ أن تبقى فيه، ويبقى فيك.. الماضي يريدُكَ لهُ وحده، أن تبقى محاصرًا بينَ الكان والليت.. حين لا تُغنيكَ الليتُ، وتحرقك الكانُ، هل شعرت بذلك من قبل يا روب؟

يخلعُ نظَّاراته قبلَ أن يُجيبني:

- هل ستجعلينني أندم على إحضاري لكل هذهِ الكتب لتقرأيها؟

- بل إنَّكَ أسديتَ لعمري معروفًا.. ولا تنس كذلك أنَّني أعملُ في مكتبة!

صمتُّ قليلًا قبل أن أقول:

- روب؟

- نعم؟

- اِنهَضْ واطبعْ لي صورة تولين..

- ظَننتُك حفظتها في هاتفك..

- لا لم أفتحها حتَّى.. قرأتُ الخبر فقط.

- لا أصدِّق أنَّكِ تتسللينَ على الفيس بوك لتعرفي آخر أخبارهم!!

- لا أصدِّق أنَّ أمي فقدت الطفلة الأولى حين رحلت.

- وارد جدًّا، نتيجة الصدمة.. ألم تفرَّ ابنتُها من البيت لتهرب مع وسيمٍ مثلي؟

- وها قد أكرمتها السماوات بابنةٍ أخرى..

- تتحدَّثين كمسيحيةٍ بامتياز!

- منذُ عرفتُك، أصبحتُ على جميع الدِّيانات.. هيَّا انهضْ واطبعْ لي صورةً كبيرةً لها..

يبتسمُ وهو ينهضُ نحو الطابعة التي لا أفقهُ فيها شيئًا.. يوصلها بجهاز "اللاب توب" دقائق حاسمة قبل أن تلد الطابعة صورةً لجسد.

راح يُطالع الصورة وبجوارهِ ظلٌّ يبكي لصبري الذي يرجوهُ أن يرأفَ بي.. لم يقُل شيئًا.. وجدتُ طفولة تولين تنطبع على وجههِ فابتسم.. أخذتُ الصورة. تكوَّرتُ في أحد المقاعد.. وبكيتُ بكاءً عظيمًا. لم يُحاول روب إيقافي.. هو أدرى بمواسمِ حزني. تولين كم أحببتُكِ وكأنَّكِ منِّي.. كم أحببتُ يديك الصغيرتين وعينيْك المُغمضتيْن كثيفتيْ الأهداب، وشفاهكِ الفراولة! أيكونُ الحنين قهريًّا هكذا لمن لم نرَ؟ أحببتُكِ وكرهتُ هذا الفراق بيننا.. كرهتُ عُهري الذي حالَ بيننا.. لكنِّي لستُ عاهرة يا تولين. وإن حدَّثوكِ بالسوء عنِّي.. لا تُصدِّقي يا صغيرتي. كُنتُ أُشبهك.. ولكن إيَّاكِ أن تُشبهيني!

وآهٍ يا تولين.. هل ستكرر أمي ذات الخطأ معك؟ هل ستمارسُ حُمقًا آخر مع طفولتك؟ هل سيطولكِ منها حُبُّها المتنكِّر بالقسوة؟ فتُصبحي ريمًا ثانيةً؟! إيَّاكِ وإيَّاكِ أن تكوني ريمًا ثانية!

أحيانًا أشعرُ أنَّني أذكُرني ولا أذكُرني، وأنَّني أخرى تُشبِهُني ولا تُشبِهُني. وسيظلُّ الإنسانُ هو الأحجية الأبديَّة لكل العصور. كيفَ لسفَّاحٍ أن يكونَ فيما مضى طفلًا؟ أجدني أعجزُ عن التَّصديق.. أنَّنا كُنَّا صغارًا لا نعبأُ لشيءٍ سوى اللعب والحلوى. لنكبُرَ لاحقًا فتنهشُنا الحياة، لتجد ذاكَ قد أصبحَ قاتلًا، وذاكَ مُستبدًّا، وذاكَ خائنًا، وتلكَ ببساطة.. عاهرة. كيفَ لنا أن نولدَ وعلى الجبينِ حروفٌ مخفيَّةٌ بمصائرنا. حروفٌ لا يراها سوى رب الخَلق. ليتَها كانت ظاهرةً لنا يا الله، أقلُّه لنسعى لما هو أفضل لمصائرنا.. فما

اختار القاتل أن يكونَ قاتلًا، ولا اختار الخائن أن يخون، ولا العاهرة أن تفجُر. لا أعترضُ على ما حُفظَ في الصُّحف، إنَّما لا أُصدِّقُ خياراتنا وكيف تكون عواقبُها مُذيَّلة بظلالِ خائبةٍ لنا. أشتاقُ فطرتي، أليست الفطرة تنبعُ من الطيبة والجمال؟! ليتنا نعودُ لفطرتنا، فما عَصينا، ولا ضِعنا ولا لُعنَّا من الملائكة.. أتلعنُ الملائكة؟ كيفَ هذا ولهم دون الخلقِ أجنحةٌ بيضاء يحلِّقون بها في سماءاتك السبع..!! أحملُ لكَ هذه الأسئلة، فلا تُجيبني.. لأطلِقها في ملكوتك، وأنسى.. أو تُراني أتناسى؟

في الأمسِ كنتُ أتشارك صحنَ البطاطس المقليَّة مع إخوتي، مع المايونيز والكاتشب. فارس بأعوامه الثَّماني ينتقي حبَّات البطاطس، يمسكُ واحدةً ولا تُعجبُه فيُلقيها لي ولحسام ذي السادسة. كان طفلًا مُستبدًّا ديكتاتورًا. على عكسي أنا وحسام.

كانَ في بيتنا مجلسٌ كبيرٌ بهِ كراسيٌّ مرصوصة، وعلى كل كرسيٍّ وسادة قطنية. كنَّا نجمعهُا كُلَّها حينَ تنامُ أمي وقتَ القيلولة، ونضعها فوق بعضها حتَّى تقتربَ من السقف. ثُمَّ نقف ثلاثتُنا على الكرسي الأجرد خلف ذاكَ الجبل.. نعدُّ لثلاثة قبل أن نصيح:

- نريدُ الحصولَ على "بيكاااااتشووووووووووووو"

ونسقط أرضًا ضاحكين، وكَم شُجَّ رأسي ورأس إخوتي من هذه اللعبة. إلَّا أنَّها من الذكريات العامرة بالفرح والحب، مُقارنةً بذاكرتي الآن العامرة بالخطايا. لكنَّها الليلة التي نادتني أمي من مجلسِ اللعب.. ذهبتُ إليها وأنا ألهث جرَّاء اللعب:

- نعم ماما؟

- في الغد ترتدين الحجاب قبيل ذهابك إلى المدرسة..

للحظاتٍ جَزعتُ. ثُمَّ مرَّ بخاطري صديقاتي ومعلِّماتي اللاتي لا يرتدينَهُ، قلت:

- إذن أرتَديهِ يومًا، واخلعهُ يومًا..

قالت حاسمةً:

- لا يكونُ حجابًا إذن، ارتديهِ تدخلينَ الجنَّة!

والجنَّة آنذاك لم تكُ عندي سوى أسطورةٍ عظيمةٍ، أو حلمٍ مهولٍ، الجنَّةُ يمينًا والنَّارُ يسارًا وربُّ الأكوانِ بينهما يتربَّعُ عرشًا من ذهبٍ مُصفًّى وماسٍ عظيم، ولأنِّي خفتُ أن أدخلَ النَّار، وافقتُها الرَّأي مغمضةَ العينين والحُلم.

وقد كان...

***

٣

ذهبتُ لمدرستي يطالعُني الخلقُ كأنِّي عارية. وكيفَ ذاكَ والحجابُ سترٌ؟!

- أماتَ لكُم عزيز؟

سألتني إحدى المعلمات بشَعرها المهذَّب.. فنفيتُ صامتةً.. فوضعَتْ يدها على كتفي، وسارت، إذ كانَ الحجابُ مُقترنًا فقط بحالات الموت والكِبَر! وفورَ عودتي للبيت.. ألقيتُ بهمومي قليلًا لتعتليني في الغد كما تشاء.. فكيفَ للهموم أن تقربني بحضرةِ إخوتي؟ وبحضرة أبطال الديجيتال:

"في فخٍ غريبٍ وقعنا..

في عالمِ الأرقامِ ضِعنا..

كيف الخروج؟ كيف الخروجُ من أين الطريق؟"

فلنَقل أنَّني حصلتُ على حِصَّتي من ذلك الزمن الكرتونيِّ الجميل، قرأتُ يومًا معلومةً مفادها أنَّ أبناء جيلي، بدءًا من أواخر الثمانينيات وحتَّى الألفية الثانية، هُم الأكثر حظًّا بالاستفادة من برامج الكرتون الهادفة. اشتقتُها رشا رزق، وأغانيها البديعة على سبيس تون "قناةُ شباب المستقبل". سبيس تون هي زمني الجميل، وإن كانَ بعضهُ مُبهمًا، إلَّا أنَّني كنتُ أجوبُ حلقاتها ويخيَّلُ إليَّ أنَّني من أبطال الديجتال، أو أنَّني مع كونان المحقق الصغير نُحققُ في قضايا القتل فنُحقق العدالة، أو أنَّ عندي بوكيمون يُصاحبني وأُصاحبهُ، أو أنَّني على بساط السندباد السحري، أُحلِّق معهُ وياسمينة. وأحيانًا كنت أعيشُ قهرًا مع ريمي وسالي.. وعهدُ الأصدقاء.

- متى يأتي أبي يا ماما؟

سألها الصغير حسام وقد فقدَ اثنين من أسنانهِ الأمامية. ولأن أمي تخشى أن تنمو له عوضًا عنها أسنانٌ مُبعثرة وأخرى عوجاء، ظلَّت تَبُثُّ الرُّعبَ في نفسهِ بأن لو مسَّها بلسانهِ أو أصابعه، لنَمَتْ له أسنان وحشٍ قبيح. وبامتيازٍ نلتُ قسطي من الرُّعب في عمرهِ وحفظتُ الدرس، لكنَّ أخي بالغَ في حفظه للدرس حتَّى أصابَ لسانهُ عطبًا كلما نطق حرف السين، والزَّاي.. فيقول: اِثمي حُثام عبد الجواد.. وظلَّ هذا العطبُ حتَّى يومنا هذا.. اشتقتُك يا حُثام، واشتقتُ سينُكَ المعطوبة، وزايُكَ العوجاء.

- قريبًا صغيري يأتي إلينا ومعهُ الحلوى والملابس والألعاب..

وكانت أمي شديدةَ الخوف عليَّ وعلى إخوتي، فلقد أخذتنا الغُربة من مصر.. وعشنا مطوَّلًا في إحدى دول الخليج.. فكانت تقتسمُ قلبها ثلاثًا قُبيلَ ذهابنا إلى المدرسة. تضعُ لكلٍّ منَّا بعضًا من قلبها في حقيبته.. حتَّى إذا عُدنا، أعدنا لها قلبها، فهكذا كانَ فؤادُ أمي خاويًا.. إلى أن نعود.

وكنَّا قد اعتدنا منها حذرها وخوفها، وقَبِلنا جدرانَ أمومتها، فلم نعرف غيرها جدران. وظلَّ هذا العالم بمثابة كائنٍ مرِّيخيًّ كبير، وظللنا نحنُ في كوكبِ أمي.. لم يكن لنا جارٌ ولا ونيس. كانت حديقةُ منزلنا الكبيرة هي عالمنا، وأمي تُطالعُنا من الشرفة، إلى أن تغيبَ شمسُها، فتُناديِنا: أن تعالوا قلبي..

لكنَّ كوكبَ أمي.. لم يكُن كفاية، أقلُّهُ لي. شعورٌ أبديٌّ باكتشافِ العالم لم يُفارقني. بيدَ أنَّني كنتُ أخشاه، وأخشى معالمَهُ. أذكر عشقي للأفلامِ الأجنبية، حين كانت تتصدَّر Mbc2 عرشَ القنوات الأجنبية، بل إنِّي لا أذكرُ لها منافسًا آنذاك. كمالُ نجوم هوليوود أتمَّ عليَّ نقصي، ووددتُ لو فررتُ لأمريكا يومًا، حتَّى أنَّني أتقنت اللغة الإنجليزية في سنٍّ صغيرة لشدِّة ما

أحببتهم، وكانت هي المادة الوحيدة التي تميزتُ فيها، وحسدني عليها زملائي.

حتَّى روبرت يعجب لإنجليزيتي المُتقنة.. يقول إنَّهُ ما ظنَّ قط أن يُتقنَ عربيٌّ اللغة الإنجليزية بتلك الحرفيَّة. يذكِّرني روب دومًا بإمكانات عروبتنا المهدورة. وكانَ روبرت مُستقبلًا بشريًّا لي. مُستقبلًا لأوجاعي، لتقلُّبات قلبي. يقول لي إنِّي موسميَّة، امرأة من الفصول الأربعة، امرأة لا نراها سوى في الروايات. ولولا صدقُه في زرقةِ عينيْهِ الشبيهة ببحار كاليفورنيا صيفًا، لظننتُه يكذب. لكنَّ روبرت لا يكذب أبدًا. يبلغ خمسةً وأربعين عامًا، يستقبلها برضىً للحال. أسألهُ لِمَ لم تتزوج حتَّى الآن؟ يُخبرني أنَّ الزواج للجبناء. لبرهةٍ مرَّ نزار قبَّاني في خاطري، حين قال: "أنَّ الحب للشجعان".. حتمًا لم يقصد الزواج، حتمًا.

وكانَ روبرت مسالمًا، حتَّى أنَّني تبنَّيتُ منهُ موقفهُ تجاه الطيور. كان من عادتهِ أن يبتاعَ العصافير بأنواعها. ثُمَّ يأتي عندي لاحقًا، يقفُ عند الشرفة، يفتح باب القفص ويهمس:

- طِر يا صغيري طِر ..

أضحكُ من كوم الأقفاص عندي في البيت، يقول لي إنَّهُ سيرميها لاحقًا في إحدى السِلال الخاصَّة بالأشياء القابلة لإعادة التَّدوير، أو إحدى الجمعيات الخيريَّة. لكنّهُ كسول ولا يفعل.

لم يكن روب زوجي، ولا حبيبي.. هو صديقي أوَّلًا، أحيانًا أشعرني ممتنَّة له فأشعر أن جسدي ليسَ كفاية.. كلَّما شعرتُ بذلك، شعر بي.. فزادني حبًّا واهتمامًا، زادني مما نَقص.

ويبقى السؤال مُعلَّقًا.. ما الذي نَقصَ تحديدًا؟ كُل ما أعرفه.. أنَّ حاضري كانَ مُزدحمًا بالماضي حدَّ التَّلاصق.. فلم يمُرَّ يومٌ بلا ذكرى من الأمسِ.

روب.. روب.. يا روب!

مَن كان ليصدِّق أن ينتهي بي المطافُ عندك؟ حين هجرتُ أهلي وبيتي ومصر، حين هجرتُني وانطلقتُ في الشوارع كجروٍ ضائع.. لم يكن سهلًا أن أبقى حبيسةَ البيت حينَ علموا بأمرِ "عُهري". حادثتُ روبرت من أحد "سناتر الإنترنت"، وحرصتُ على التواجد على الإنترنت في وقتٍ يتواجد هو فيه على الجهة الأخرى من العالم كذلك، فلم يُصدِّق ما وصلتُ إليه. وإذا به يطلبُ مني أن أُخبرهُ باسمي كاملًا كما في بطاقتي، أخبرني بأنَّه سيرسل بعض المال لي، وأن أتوجَّه لفرع "ويسترن يونيون" مجاور لي خلال ساعة. شعرتُ بالخجل من نفسي، شعرتُ بقهر الحاجة. سألتُهُ على استحياء كم سيُرسل لي. فأخبرني بالحرف:

- ثلاثة آلاف دولار إلى أن آتيك..

جزعتُ، أنا التي تدري أنَّ لكل شيءٍ مقابلًا، لكنِّي لم أفكِّر في المقابل كثيرًا، فلقد سعدتُ بخبر لُقياهُ، روبرت، الحلم الأمريكي.

وما بينَ إغماءةٍ وإفاقةٍ، وجدتُ الكثير من المال في يدي، ابتعتُ هاتفًا ذكيًّا وأوصلتهُ بالإنترنت لأجل روبرت، ابتعتُ ثيابًا شهيةً، عطرًا من "إيسكادا"، أدوات تجميل مشاغبة، وحجزتُ في فُندقِ خمس نجوم وكان كل ذلك بناءً على طلب روبرت.

بقيتُ أنتظرهُ في الفندق يوميْن، إلى أن وصل إلى القاهرة. حدَّثني من المطار بصوتهِ الجميل الذي سمعتُهُ للمرَّة الأولى. أنهينا المكالمة، فتوجَّهتُ إلى الحمَّام لأستحم وأرتدي الجميلَ من الثِّياب.

إنَّهُ لشعورٌ مختلفٌ، أن أفتح بابَ غرفتي، لأواجه العالم لأوَّل مرَّة بلا حجابٍ يغطِّي رأسي، بل بفُستانٍ أسودَ قصير وكعب عالي يُنادي: أنا هُنا.

لكنَّني حتمًا، شعرتُ بالفقد يوم خلعتُ الحجاب، وشعرتُ أنَّني بفعلتي بترتُ جزءًا من روحي ودفنتها في غياهب النِّسيان. طالعني الناس بعيونٍ فوقَ عيونهم، ما بينَ الدهشة والانبهار وجدتُهم، وصادفتني طفلة صغيرة في العاشرة ربَّما، ترتدي الحجاب، تُطالعني بشغفٍ.. فحَكتْ لي عيناها كلامًا لا يُقال.. يا طفلتي الصغيرة لا تُقلِّدي الكِبار!

وأتى روبرت، استقبلتُه في أحد مطاعم الفندق، لم يتعرف عليَّ فورَ رؤياي، بدا مأخوذًا بي، بجمالي ووجعي في آنٍ. ومرَّت أشهر، وروب صديقي مُنهمكٌ في إجراءات سفري لأمريكا، واستخراج جواز سفر آخر عوضًا عن ذلك في بيت أهلي. معظم أوراقي الأساسية، استخرجناها كبدل فاقد، والحقُّ أنِّي بأكملي، كنتُ كبدلٍ فاقدٍ لي. الغريب أنَّ هواجسي ببحث أهلي عنِّي لم تتحقق، وكأنِّي لم أُخلَق من الأساس.. إلى أن سافرتُ لأرض الولايات المتَّحدة. وتحقق حلمٌ قديمٌ حلمتهُ في مجلسِ بيتنا القديم.. السفر للولايات!

وبذكرِ مجلس بيتنا القديم، فإنَّ لهُ من الحكايا الكثير، إذ أطلقتُ خيالي الطفوليَّ يمرحُ في كل الأرجاء، شعرتُني Buffy تحارب مصاصي الدماء لتُغرمَ لاحقًا بـ Angel مصاص الدماء المثير، لم أكُن مراهقةً بعد لأشعُر بلهيبِ الحب حينَ رأيتُ خطأً أول قُبلةٍ تلفزيونيَّة إذ لم تستطع أمي آنذاك أن تكونَ أسرعَ منها لتُغيِّر القناة إلى أن تنتهي القُبلة، كنتُ في حالةِ اندهاشٍ، أنا التي ظننتُ أنَّ الفم خُلِق للأكلِ والكلام.

لم أكن أدري أنَّ الشفاهَ قد خُلِقَت للقُبلِ أيضًا، كما خُلِقَت للحُب. فما كانَ منِّي إلَّا أن أعدتُ تمثيل مشهد القُبلة في الخفاء.. فأخذتُ وسادةً مستطيلةً، قمتُ بتقريبها من وجهي، أغمضتُ عينيَّ بطفولةٍ، وقبَّلتُ الوسادة. كنتُ أفعلُ هذا وأدري أنَّ اللهَ يلعَنُني ويمقتُني لفعلتي الكريهة،

نعم.. كنتُ أدري أنَّهُ يراني من سبعِ سماوات، يُشفقُ لحالي، ويملأُ دفتري الصغير بالسيئات، كنتُ دومًا ما أُشبِّهُ سيئاتي بعلامات "إكس" كبيرة سوداء، وعلى يمين كل صفحة، علامات "صح" قليلة أعُدُّها على أصابعي.. لكنَّني أحببتُ الله، أحببتهُ دونَ أن أراه! وفي كُلِّ ركعةٍ ركعها جسدي الصغير، كنتُ أرجوهُ أن يسامحني، كيفَ لعاشرتي أن تظنَّ الله بتلك القسوة؟ .. كيفَ لشعوري بالجرمِ أن يُصاحبني حينَ لا أقبلُ أن يُصاحبني؟ عجبًا وقد عرفتُ القهرَ ربيعًا، فأصابني خريفُ الأفئدة.

***

٤

بتكاسُلٍ، نهضتُ، إذ سئمتُ من تقلُّب ليلة الأمس معي، كضُرَّةٍ لعينةٍ، يهُمُّها التَّربُّص بي وحَصر حركاتي. رائحة البيض واللحم المُقدَّد تملأُ الشقة. بانهزامٍ ابتسم، لحنانِ روبرت. كان لتوِّهِ قد اشترى ماكينة خاصَّة لصُنع القهوة بأنواعها. يقفُ أمامها كطفلٍ صغيرٍ، يسعد لسرعتها، يُحادثها ويُلقي عليها النُّكت كذلك. وحين تنتهي، يُخبرها كم يُحبُّها.. روبرت الذي لم يخبرني مسبقًا أنَّهُ يحبُّني. للحظاتٍ أصابتني الغيرة منكِ يا صانعة القهوة!

يأتي إليَّ يحملُ صينيَّة الإفطار، يجلس على حافة السرير باسمًا، وبخفَّة اكتسبها من الإنجليز، راحَ يُقطِّع لي البيض واللحم المُقدَّد، يغرزُ الشوكة فيها، ثُمَّ يضعها في فمي. آكُلها مغلوبةً على أمري إذ إنَّهُ يدري أنِّي لا أُحبُّها سوى بالخُبزِ فهكذا تربَّى جسدي العربي، أنا ابنةُ الخُبز.

- لِمَ تُصرِّين على عدم الذهاب لتجارب الأداء الخاصَّة بعروض الأزياء؟ لو ذهبتي لحصلتِ على عروضٍ ممتازة..

بالطبع سأحصلُ على عروضٍ ممتازةٍ، فمن غيره يحفظ جسدي هذا، أجبتُهُ:

- لا أسعى للنجوميَّة أبدًا، يكفيني عملي في المكتبة المجاورة، لا أجمل من العمل برفقة الكتب، كما أنَّ السيِّدة جوليا طيِّبة للغاية، واعتدتُها واعتادتني.

- عنيدة أنتِ، عنيدةٌ منذ اليوم الأوَّل..

شربتُ عصير البرتقال رشفةً واحدةً.. قبَّلتُهُ سريعًا كما اعتاد منِّي قُبيل

ذهابي لعملي.. وانطلقتُ للمكتبة. وكنتُ قد حَصلتُ لتوِّي لترقية لمساعد مدير لإثباتي جدارتي، ليست بوظيفة العمر، لكنَّها سترتني، فلم أتحمَّل مطوَّلًا أن تسترني أموال روبرت، وحرصتُ على مدى سنين معرفتي به، أن أُعطيهِ الأحد لو قدَّمَ لي السبت، وأحيانًا كنتُ أُعطيهِ باقي أيام الأسبوع/ جسدي.

جوليا تستقبلني بابتسامتها الهادئة، أعلمُ من توافد الزُّوار أنِّي سأعمل لساعاتٍ إضافيةٍ. وكما اعتاد دومًا، أبدأُ يومي بقهوةٍ صباحيةٍ، أنزوي في أحد الأركان قليلًا، أستمع لحكايا الجريدة، ليسَ حُبًّا في أخبارٍ لن تخُصَّني، بل إنِّي حين أقرأ، أقرأ كأبي.

رحتُ أتصفَّحها مرورًا بالكلمات المتقاطعة، أحلُّها بسهولةٍ بالغةٍ إلى أن تنتهي قهوتي، ويبدأ يومي في المكتبة، أُشرفُ على العاملين، وعلى الكتب الواردة، واصطفافها على الأرفف، أطلبُ الناقص والمطلوب منها. وكنتُ قد ألزمتُ جوليا بتخصيص مكان للأطفال يستمعون فيها للحكايا من قبل عاملات المكتبة، وكنتُ أحيانًا من تتكفَّل بذلك فأحكي لهم بشغفٍ وأنا أتقمَّص الشخصيات ببراعة، وأُغير صوتي لأصواتٍ مختلفةٍ. قالت لي إحدى الزائرات أنَّني سأكون أمًّا طيبةً في يومٍ ما. أحقًّا؟ أنا لم أرني يومًا إلَّا أمًّا لإخوتي، فارس وحسام، حتَّى تولين، شعرتني أُمًّا لها عن بُعد.. روبرت لم أشعر باتِّجاههِ بالأمومة، وإن كانَ طفلًا صغيرًا في أغلب الأحيان..

- ريمونا .. كيف هي أحوالك مع روبرت؟

هاكَ جوليا بفضولٍ تسألني مجددًّا..

- جيِّدة.

- لا أقصد أن أتطفَّل.. العلاقة بينكما تُثير فضولي.. يكبركِ بعشرينَ عامًا،

صحيح؟

- "أها"

- أووو يا إلهي إنَّهُ بعُمري..

- أأُرتِّب لكما موعدًا غراميًّا؟!

واستطعتُ بسهولة أن أهرب من فضولها بضحكٍ مُفتعل.. والحقُّ أنَّها راحَت تُذكّرني بالذي لم أنسَ.

***

٥

في أيَّام إجازتي..

أُحبُّ دومًا أن أُنظِّف الشقة، يستاء روب إذ يظنُّها ليست وظيفتي. لم أرتحْ يومًا لفكرة أن تأتي خادمة لتنظِّف خلفي.. أو ربَّما لأنَّني اعتدتُ مساعدة أمي في الصغر ولم تكن في بيتنا خادمة. كما أن الأمر مسلٍّ.. أن أقلبَ المكان رأسًا على عقب، إنَّها مملكتي الصغيرة وأنا الملكة- ولو كذبًا-.. والأجمل أنَّني أحببتُ جمع الملابس المتَّسخة لأخذها إلى المغسلة كلَّ أسبوع خاصَّةً ثيابي أنا وروب المُعتَّقة بالجنس. عُدتُ من المغسلة لأجد روبرت قد أحضر قفصًا جديدًا بهِ عصفور.. ورعد ينبحُ كعادته حينَ يرى واحدًا. وما إن رآني رعد حتَّى حلَّقَ إليَّ راكضًا يُحييني بجسده.. بعينيْه.. بذيله وحتَّى بأنفاسه. قد أهبُ روحي فداءً لهذا الكلب. حضنتُه لقلبي ضاحكة وأنا أُحضِّر لَهُ طعامه فازدادَ فرحًا. روب الكسول يتركهُ جائعًا.. لكن لا أَحبَّ عندي من إطعام رعد.. من مشاركتي إيَّاه كوبَ حليب بعد الغداء..

- تعالي حرِّري هذا العصفور لأجلي!

- هذا ما تفلحُ فيه!! شراؤك لمئات العصافير وتوريطي لاحقًا بأقفاصها التي ملأت المكان..

ورحتُ أضحك.. كم يودُّ إقحامي بالحرية وإقحامها بي، لكنَّهُ تلكَ المرَّة طلب منِّي أن أتمنَّى أمنيةً قبل تحريرها من القفص.. مممممم أمنية.. أمسكتُ العصفورة بحذر.. ارتسمت على شفتي ابتسامةٌ لن تفهمها سوى العصفورة.. همستُ لها:

- أخبري الله بأنِّي لستُ سيئة..

وطارت العصفورة في قلبِ السماء مودِّعةً إيَّاي حين قالَ روبرت:

- تمزحين أليسَ كذلك؟

- ماذا؟

- أهذهِ حقًّا الأمنية؟

- سمعتني يا لئيم!!

- ما هذهِ الأمنية بحقِّ الجحيم؟ تمنِّي عُقدًا ماسيًّا ربَّما.. لامبرجيني.. مكتبة.. مصنع دونات.. عليكِ اللعنة!

ضحكتُ وأنا آخذهُ بينَ ذراعيَّ.. قال مُعاتبًا:

- ربَّما لستُ بمسيحيٍّ صالح.. لكنَّ اللهَ ليس قاسيًا هكذا..

وراحَ يضمُّني بشدَّة في صدرهِ حتَّى سمعتُ دقَّات قلبه دقَّة دقَّة.. ومع هذا، لم أمَلَّ سؤال نفسي يا روبرت.. ما هذا المُسمَّى بيننا؟ أراكَ لا تملُّ احتلال هذا الجسد. حملني إلى السرير.. نزعَ عنِّي الثياب، مرَّ بي بشفتيْهِ مرورًا كالنَّسيم ثُمَّ سُرعان ما أصبحَ من الثُّوار على أرضي.. يرُجُّني رجًّا، يتفنَّن بالحديث مع جسدي أكثر مني.. لربَّما هم أصدقاء أكثرَ منِّي.. يتصاحبان بمباركةٍ من الجنس والشهوة، يتهامسان سرًّا فلا يصلني الكلام.. يُخفيان عنِّي ما يُقال.. لكنِّي مُتعبةٌ فلا أسأل.

وحين ننتهي.. أنهضُ خلسةً وقد نام روبرت.. لأستحمَّ من دنسٍ ثُمَّ أتوضأ دون صلاة. وأظلُّ أناجي الليل الذي لا تصلهُ أبدًا مناجاتي. من أي الأبواب آتيكَ يا الله؟ أدري أنَّ دفتري عندك قد أنهكهُ الإثمُ، أتخيَّلهُ الآن أسود لا خيرَ فيه، أتخيَّل ملائكة الحساب تخجلُ من إيصالكَ أخباري: "اليوم ريم مارستْ الجنس مع روب، اليوم ريم فتنَت خمسين شخصًا لدى نزولها من

البيت، اليوم ريم لم ترتدِ الحجاب كذلك، اليوم ريم احتستَ كأسَ نبيذ، اليوم ريم لم تُصلِّ الخمْس، وفي آخر المساء عادت لأحضان روب أيضًا".

***

٦

أنا لم أعرف الحُبَّ يومًا.. إلَّا في العاشرة..

أذكرك يا عبد الصَّمد بطفولةٍ أنتَ أجمل ما فيها.. لا تهمنُّي سخرية روب مني كلَّما ذكرتُك في حديث، أتدري كم يغار منك؟ كم يغار من بطولاتنا ومغامراتنا في المدرسة. أُخبرهُ دومًا أنَّك لم تكترث لقُبحي في صغري.. ولا لفشلي في مادَّة الرياضيات ومسائل القسمة اللعينة.. ولا لنبذ جميع الطلاب لي والتحاقي دومًا بالمقاعد الخلفيَّة. أحبَّني لي دون أي شيءٍ أُعطيه، بل اكتفى برسائلي الورقية التي أُلقيها عليهِ أثناء الحصص خلسةً.

عبد الصَّمد..

مَن أذكرهُ دومًا كأنَّهُ أمامي، يطربني بضحكاتهِ العالية.. يجلس في آخرِ صفٍّ عند الصبيان لأنَّهُ الأكثر طولًا في الفصل.. يقوم بحركاتٍ غبيَّة بين الحصص لإضحاكي.. كأن يقلِّدني حينَ أدسُّ رأسي في الكتاب، أو حين أقوم بتعديل حجابي وإدخال خصلات شعري داخله، أو حين أقوم بالرَّكض في ساحة المدرسة. أحبَّ مرافقتي..

أشكُّ بأنَّني لو كنتُ على قُبحي وأنا صغيرة لما احتضنني روب عنده.. كنتُ نحيلةً بشكلٍ لافِت، أقربَ إلى هيكلٍ عظمي، قمحيةً تميلُ إلى السَّمار قليلًا، تملأُ وجهي وجسدي شاماتٌ سوداء لا معنى لوجودها سوى أن تزيدَ من قُبحي، عُنقٌ طويلٌ تبرزُ في منتصفهِ "تفاحة آدم" عظيمة، فم كبيرٌ لا يليقُ بوجهي الصغير، عظمتا خدٍّ بارزتان تقولان: "نحنُ هنا"، أنفٌ حادٌّ كم كَرِهتُهُ، عينان كبيرتان، إحداهما ينحرفُ بؤبؤها عن الأخرى، حاجبان

كثيفان يكشفان كذلك عن جسدي المليء بالشَّعرِ أيضًا، جبينٌ عريضٌ جدًّا، وأسفلَ حجابي شعرٌ بنيٌّ أشقَرُ لكنَّ تَموِيجتَه أخفَت لونَه المميز فأصبحَ كقلَّتِهِ. لن تفعل يا روب.. لكنَّ صَمَد الوسيم فعل.. وأحبَّني كما أنا.. عبد الصَّمد المصري كأنا والذي لم يُصاحب أحدًا في الفصل سواي، بالرَّغم من وجود العديد من المصريين في الفصل كذلك.

ما زلتُ أذكر الأبلة روضة بصوتِها الحاد تأمُرُني أن أحِلَّ إحدى المسائل على اللوح الأبيض. أتنهَّد بخوفٍ وأنا لا أدري ما حلَّ بقلبي. أنهضُ تعلوني الحسرةُ وأنا أدري مُسبقًا كم سأفشلُ في حلِّها، كم سيضحك عليَّ زملائي، كم سأعودُ بخيبتي لمقعدي! نهضتُ على أيةِ حال.

أخذتُ منها القلم وأنا أتوقُ لو مضتْ تلكَ الدقائق سريعًا، لو أنَّ لديَّ آلةً للزمن، بكبسةِ زرٍّ أفعلُ بالوقت ما أشاء، لو أنَّني ساحرةٌ بعصاها تفعلُ الأعاجيب، أو أقلُّها لو أنَّني "شاطرة" في مادة الرياضيات. سقطتُ من سُحب الحلم، لأرتطم بالواقع.

وقفتُ أمام مسألة القِسمة، أسألها أن تحلَّ نفسها ذاتيًّا وتُخلِّصني.. شعرتُ بأعين زملائي تخترقُ ظهري، ألصقتُ جانب رأسي على اللوح، وأنا مُمسكةٌ بالقلم، وبيدي الأخرى ألُفُّ الغطاء بقلقٍ، كانَ قلقُ يدي وجسدي لا ينعكسُ مع وجهي، كان وجهي كحجرٍ أصم، لا تعلوهُ ملامحُ حركيَّة، أرحتُ عضلات وجهي جميعها بألمٍ، وأنا أسمع أبلة روضة تُنبهني أن أنتهي، أنا أنتهي من حل مسألة رياضيات؟ تحلُمينَ يا روضة. لحظات وإذا بها تأخذُ القلم من يدي، وتأمُرني بالعودة لمقعدي، كم بدا طريقُ العودةِ لمقعدي طويلًا طويلًا، وكأنَّهُ طريقٌ سرمديٌّ، كألمي السَّرمدي.

وما إن جلستُ حتَّى دقَّ جرسُ الفُسحة، فانتفضَ الطلابُ متسارعين

للنزول، وأنا بجسدي العجوز أنتظر خروجهم وعبد الصَّمد، حتَّى نخرجَ أخيرًا.

- أمعكِ إفطاركِ كعادتك؟

سألني عبد الصَّمد، فأجبته:

- نعم، ماما أعدتهُ لي.

فقالَ مازحًا:

- ليتَ أمي تُعدُّ لي الإفطارَ مثلكِ!

وما بينَ دهشتي ودهشتي سألتُه:

- ماذا تأكل إذن؟

فقال:

- تُعطيني أمي مصروفًا يوميًّا أشتري منه ما أشاء من كافتيريا المدرسة..

سألتُه:

- تأكل من خارج البيت؟

فتبسَّمَ ضاحكًا من قولي، وقال:

- تعالي يا مريخيَّة مجنونة..

وإذا بهِ يُمسِكني من يدي، ويركض، هل أُبالغُ لو قلتُ إنَّ الكونَ بدا أجملَ في يديه؟

ركضنا خلفَ مبنى المدرسة، حيث لم أذهب قط، لنجد ما يُشبهُ غرفةً أرضيةً، بها نافذة نصف مفتوحة، يتزاحمُ حولها الطلاب من جميع الأعمار، ويدًا سحرية من الداخل تَمُدُّهم بما لذَّ وطاب مقابل "المصروف" الذي لم يكُ ضيفًا لجيبي آنذاك.

سألني عبد الصَّمد وهو يلهثُ:

- ها.. كم أعطتكِ أمك اليوم؟
- نسيتُ أن آخذَ مصروفي منها اليوم..
كم بدا الكذبُ شهيًّا وأنا أُجيبهُ بثقةٍ، فقال:
- لا عليكِ، سأشتري لكِ حلوى اليوم..
ورأيتهُ يندسُّ بين الطلاب، ويُساعدهُ طولهُ في الوصول إلى النافذة، خرجَ لي بعد دقيقةٍ وهو يَمُدُّني بسخاءٍ بالحلوى قبل أن يقول لي:
- هيا نتسابق للأرجوحة، والخاسر سيدفع الفائز على الأرجوحة.
وطار يُحلِّق قبل أن أصيحَ به:
- تعالَ يا غشَّاش!!
وصلَ قبلي وأخذ الأرجوحة بينَ يديْه، وهو يقول:
- وصلتُ قبلكِ لكنَّني سأتنازل لكِ اليوم، هيَّا تعالي أدفَعُكِ..
ابتسمتُ بفرحٍ وأنا آكل ما جلبَ لي من حلوى مرةً واحدةً، وهممتُ أجلسَ على الأرجوحة، وراح يدفعني.. عبد الصَّمد. ولحُسن حظِّي بعدها بلحظاتٍ، انتهى أحد الطلاب من الأرجوحة جواري، وما إن تركها حتَّى أخذتُها فورًا وأنا أجلسُ على أرجوحتي حتَّى لا يأخذها غيري:
- تعالَ يا صَمَد!
نظرَ لي ساخرًا وهو يأخذ الأرجوحة مني:
- صَمَد؟
قلتُ ضاحكةً:
- صَمَد أجمل!
قال:
- إذن أُناديكِي ري..

- ري؟

- أجل ري..

وراحَ يضحكُ عاليًا، فضحكتُ لضحكتهِ. ورحنا نتأرجحُ معًا ونحكي الحكايا، كنتُ شهرزادَهُ وكانَ شهرياري، فلم تنته الحكايا، وبدَت الحياةُ أجمل، بَدتْ ألفَ ليلةٍ وليلة.

***

٧

- سبقني عبد الصَّمد للأرجوحة، لكنَّه كانَ لطيفًا كفاية ليدفعني، على الرغم من وصولهِ أوَّلًا..

ما زلتُ أذكر وجه أمي حين تلوتُ عليها تراتيلَ فرحي، وجدتُ وجهها يصفرُّ قلقًا، قالت:

- ماذا عن صديقاتك البنات؟ لِمَ لا يلعبنَ معكِ؟

آهٍ يا أمي.. أأقولُ لكِ إنَّ البناتَ أبينَ أن يلعبن معي، ولقلبي الطيب عَصين، قلبي الذي لم يكُ بآمرٍ ولا ناهٍ، قلبي الموبوء بعزلة جدران فصلي الأربعة. أجبتها:

- لا أحبُّ بنات الفصل..

فصاحت بي:

- تترُكينَ البنات لتلعبي مع الصِّبيان؟

- لم ألعب مع الصِّبيان، هو عبد الصَّمد فقط..

كانَ بجوفها كلامٌ سيعصفُ بي عَصفًا لولا أن رنَّ جرسُ الهاتف. نهضتْ تجيبُ غاضبة:

- "ألو"

وسُرعانَ ما تهلَّلَ وجهها بدرًا مُنيرًا..

كانَ هاتف بيتنا لا يرنُّ إلَّا وكانَ أبي المُتَّصل يُحادثُنا من جنوبِ المدينة، دقائق وانتهت المكالمة.. فصاحت:

- يا أولاد ....

تنبَّهَ ثلاثتُنا لها، وتقافزَ شوقُنا حولَ شفتيها..

- بابا قادمٌ اليوم..

فقفزنا فرحين، أذكرُ أنَّني هربتُ للمرآةِ أحكي لها فرحي. لا أدري.. لربَّما خُيِّلَ إليَّ أنَّني بدوتُ جميلة، فبقدوم أبي أنا دومًا أجمل.

- إذن سنسهرُ اليوم في انتظار أبي.. غدًا الجمعة.. لا مدرسة!

ها هو فارس يُعطي تعليماتهُ المشاكسة، نظرَتْ له أمي بحُبٍّ.. فتنقَّلَت نظراتي وحسام بين أمي وفارس، لحظات صامتة، إلى أن أومأت بقلبها أن نعم. فصِحنا وضحكنا وتشابكت أيادينا حولَ أمي ورحنا ندور:

- "فتَّحي يا وردة، غمَّضي يا وردة، فتَّحي يا وردة، غمَّضي يا وردة"

فهاكَ كانت أمي، أجملَ وردة، بل عروسًا في انتظارِ حبيبها.

لم نُبال لسبيس تون بحلقات توم جيري التي تقتُلنا ضحكًا، ولم تبدُ لي رغبةً في مشاهدة فيلمٍ أجنبي. فالعيدُ قادمٌ، والعيدُ أبي.

اختفت أمي في قلب المطبخ، تعُدُّ لُقيماتٍ من الجنَّة، تطبخُ ما طابَ ولذَّ، وامتلأ بيتنا مساءً برائحة اللحم والمكبوس وحساء الخضار والسمبوسة. وفي المبرِّد.. تبردُ كعكة الفواكه وقوالب "الجيلي" بالموز. تسلَّل ثلاثتنا عندها، نكيدُ لها، قالَ فارس:

- أكُلُّ هذا الطعام لأبي؟ محظوظٌ أنتَ يا أبي، فحينَ لا تكون هنا تحلُّ علينا المجاعة.

فضحكتُ وحسام من قوله، وسرعان ما ضحكتْ أمي، وقالت:

- آهٍ يا نصَّاب تتَّهمني زورًا وعدوانًا، قاتلَ إبليسَك اللهُ. فكيفَ هذا وحين أطبخُ لك تتركُ صحنك كما هو!!!

في حين وقوف "حُثام" ضعيفًا أمام الكعكة في المبرِّد تُغطيها الكريما

والفواكه، أمسكناهُ بالجرم المشهود يلحسُ بإصبعهِ منها. نهرهُ فارس وأقفلَ المبرِّد ثُمَّ وقفَ يحرسها.

ودقَّ جرسُ الباب..

ركضتُ كأنَّني في سباق ماراثون، ورحتُ أقفزُ نزولًا على السلالم مُستغلَّةً طولي، وصولًا للباب السفلي الأوَّل في حين تبعثر إخوتي خلفي. ركضتُ في حوشِ منزلنا وصولًا للبوابة الثَّانية، تلكَ البوابة العظيمة السوداء بنقوشها الذهبية، رحتُ أجرُّ البابَ نحوي ما إن فتحتُ القفل، لأجدَ أبي واقفًا باسمًا عطرًا ينظر لي، هرعتُ ليديْه، فحملني كطفلةٍ في الخامسة ليدخلني قلبه.

- كيف أنتِ يا ماما؟

كان يدعوني بماما لشدِّ ما أحبَّني.

وصلَ إخوتي وتسابقا لحضنِ أبي، فرحْتُ أجرُّ حقيبتهُ لأعلى وأصرُّ ألَّا يجرَّها أحدٌ إلَّاي، وقد كان.

وصلتُ لآخرَ سُلَّمة لأجدَ أمي بثوبٍ أسود وفضي تنتظرنا، ولا أدري متى ارتدته أو كيفَ تعطَّرت وتزيَّنت بتلك السرعة!! هي "سوبر" ماما إذن.

وصل إخوتي وهم يخاصرون أبي، رحتُ أتسلَّلُ من خلف الكواليس لأشهد لحظة لقاء أبي بأمي وقد غاب عنَّا ستة أشهرٍ عِجاف.

رآها، فتبسَّمت، وتعانقَت عينان، وهمسَ الفؤادُ كلامًا لا يُقال، وعلى الشفاهِ فرحةٌ من مشرقٍ لمغربٍ. عانَقها، أخذها في صدرهِ يؤويها، توحَّدتْ به، بجسدهِ، تطالبهُ أن يُزيلَ عن عمرها الغياب، أن يَروي حنينها، فقال للقلبِ ارتوِ.. فارتوى.

ويلي.. ها أنا أترجمُ ما لم تستطع ترجمته طفولتي!

جلسَ أبي على الأرض كعادتهِ يفتح الحقيبة، يلقي علينا بهداياه، ودومًا

يكثرُ من الحلوى، الحلوى التي ترشينا قليلًا فننسى غيابهُ لكنَّنا حقًّا لم ننسَ.

وفي ذاكَ العام، جلبَ لنا ثلاثة أجهزة "بوكيمون" دائرية، لتبدأ رحلة بحثنا للبوكيمون بداخلها فور أن نضغط زر الـ start. أذكرُ أخي حُسامًا يطالعُ جهازهُ بحذرٍ قبل أن يفتحه.. نظر إليَّ وفارسًا بفرح قبلَ أن يلقي جهازه بكل قوةٍ على الأرض على أمل أن يخرج له كائن بوكيمون!! لتُكسر شاشة جهازهِ فيخرَّ باكيًا.

لم تكُ أمي بمزاجٍ سيئ يستدعي أن تصيح بحسام، فراحت تُهدِّئه بأن الجهاز لا يزال يعمل، ثُمَّ سرعان ما انفجرتْ ضاحكةً من ذكاء ابنها.

وتناولنا عشاءً شهيًّا طيِّبا. حمدتُ الله سرًّا، شعرتهُ يرعانا ولا يقول، يحمينا خفيةً من عَلٍ، يأمرُ ملائكتَهُ أن تحرسَ بيتنا، أحيانًا كنتُ أحادثهم خفيةً، أخبرهُم أنِّي أدري بوجودهم، وأنِّي أدري بأمرِ الله سبحانهُ في علاه، بل إنَّني أحيانًا كنتُ أسمعهُم في تسابيح الحَمَّام، فأبتسم للسماء.

- أتُصلينَ يا ماما؟

سألني أبي باسمًا، فأجبته:

- لا أتركُ فرضًا، كما أنِّي أدعو الله لك..

فقبَّلَ رأسي، وقال:

- راضٍ أنا عنكِ..

فرَضَتْ عنِّي الحياة..

لعبنا كما لم نلعب من قبل وأكلنا من الحلوى الكثير، جلبَ لي والدي كذلك أقلامًا ملوَّنة، تلكَ العلبة التي تحوي ستة وثلاثينَ قلمًا، يدري أنِّي أهوى الرسم والألوان. وجلبَ لأمي ما لم نتوقَّع آنذاك، أوَّل هاتفٍ محمول يدخل بيتنا. وكان نوعهُ Siemens ، أبيض يميلُ للفضي صغيرًا، تعجَّبنا له

ولجماله، خطفه فارس من يد أبي، وقال:

- أريد مثل هذا!!

فضحك أبي، وقال:

- حينَ أجلبُ لنفسي واحدًا!!

فانزوى فارس مع الهاتف وهو يقوم بتشغيلهِ وفهم تفاصيله، وددتُ لو أمسكته لأتفقدهُ، لكنَّ فارس لن يقبل، بدا ذاكَ واضحًا وحسام يجلسُ جوارهُ خاضعًا.

لحظاتٌ وراحَ الهاتف يُشغِّلُ ألحانًا كلاسيكية مرحةً، قال فارس:

- ها يا ماما.. أي نغمة تختارين؟

ذُهلنا من ذكائه، فارس الذي لا يستطيع القراءة بالإنجليزية جيِّدًا أن يقوم بذلك، بل ويقوم بضبطِ التاريخ واليوم، هو الذي يُمسكُ هاتفًا محمولًا للمرةِ الأولى. بَدتْ الأنغام كلُّها جميلة، وأعجبتني جدًّا النغمة التي لم يختاروها.

وحينَ تجازوت الساعة منتصف الليل، بدأت نداءات أمي لنا بالنَّوم. فتوجَّهنا إلى غرفتنا فرحينَ، وقبل أن تُطفئَ أمي النور، قالت:

- نوم!! لو سمعتُ لكم حِسًّا، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم.

صمتتْ قليلًا قبلَ أن تقول:

- سأنام وأبوكم، فلا يقربنَ أحدكم الباب، بابا متعب من السفر جدًّا.

فقالَ حسام:

- ماذا لو حلمتُ كابوسًا هذه الليلة أيضًا؟ أأستطيع أن آتي لجوارك كما كل مرَّة؟

أجابت سريعًا:

- لا لن تحلم!!

وأطفأتْ الأنوارَ سريعًا وأقفلتْ الباب. لحظات، وعادت تفتحه قائلةً:

- لو حدثَ ذلك، تعال!! ولكن دُقَّ الباب أوَّلًا!!

- وماذا عنِّي يا ماما؟ آآتي أيضًا؟

كانَ ذلك فارسًا يُشاكس، فقالت أمي:

- هيَّا نَم، فنوم الظالم عبادة!!

فضحك فارس وعاد للهاتف في يديْه يُقلِّبه يمينًا وشمالًا..

***

٨

يوم آخر في المكتبة.. "الكريسماس" يقتربُ، وبدت وجوهُ الجميع في نيويورك تتأهب لاقترابهِ وابتياع شجرة العيد بكلِّ الزِّينة المُعلَّقة عليها. وكأي مواطنةٍ تعيشُ في أمريكا.. لم يكن صعبًا التأقلم على تلك التّقاليد التي حفظتُها عن ظهرِ حُبٍّ في طفولتي جرَّاء تلك الأفلام التي شاهدتُها. لكنَّ يُتمي ما أوجعني، أنا العربيَّة الهاربة من بيتِ أبيها.

لكنِّي رأيتُ إخوتي في كُلِّ وجوه الأطفال الذين يُحبّونَ سردي للقصص في المكتبة، رأيتُ ظلًّا لفارس وحسام حينَ كُنَّا صِغارًا لا نعبأُ لشيءٍ سوى اللعب والحلوى! حملتُهم في قلبي كأمٍّ حُبلى لا تودُّ أن تلد أبدًا. حفظتُهم في قلبي قُربَ ما حفظتُهُ من ألمٍ وحسرةٍ ووجعٍ..

مضتْ خمس سنوات يا إخوتي.. وحالَ بيننا ما حال.. أشتاقُ لرائحة ثيابنا بعد المدرسة.. أشتاقُ لفطائر أمي التي لم أُنهها يومًا، أشتاقُ حتَّى لتوبيخها إيَّاي لفعلتي.

وبحنينٍ من الأمس.. رحتُ أقصُص على الأطفال السِّندريلا، تلمعُ عيون الفتيات، يسمعنَ ما أقول بشغفٍ، بينما يسمعني الصِّبية بضجر. أضحكُ سرًّا، ليتَهم فقط يفهمون أنَّنا لا نريدُ منهم سوى أن نكون أميراتٍ في قلوبهم، أنَّنا نذوبُ كالسكَّر، أنَّنا نرى الدنيا في كفوفِ أياديهم، فنميلُ كُلَّ الميْل.

وانتهت القصَّة، وودَّعني الصِّغار برفقة أهاليهم، ولكن بقيت طفلةٌ صغيرةٌ تُمسكُ دميةً بيديْها.. سألتني:

- هلَّا أخبرتِ الأمير تشارلز أنَّني أجمل من سندريلا؟ وأنَّني لو حصلتُ

على حذائها الزُّجاجي لما أضعتُهُ أبدًا؟ هي أضاعته، أنا لن أفعل.. واسألي ماما..

ضحكتُ وأنا أُخرج لها من جيبي الحلوى.. وأخبرتُها بأنِّي سأفعل.. وأنَّها أجمل بكثيرٍ من سندريلا.. وحينها اقتربت أمُّها باسمةً تشكرُني لُطفي. قالت:

- أنتِ الوحيدة التي استطاعت إخراجها من حالتها السيئة جرَّاء إصابتها بالجُديري.. ششششش وكأنِّي لم أقُل شيئًا!

وودعتُهما ضاحكةً حينَ اشتعلَ في قلبي الحنين.. وقد ذكرتُ إصابتي بالجديري في صغري وإصابة فارس وحُثام بالعدوى منِّي. أذكرُ تواجدي بالمشفى حين ضربَت أمي صدرها فور إخبار الطبيب لها بأنِّي أُصبتُ بالجديري، في حين لم أفهم ما هو الذي أصابني، أسننفخُ بالماء حتَّى انفجر؟ أم سيسيلُ ماءٌ أبديٌّ من جسدي؟ ويحي كيفَ أذهبُ إلى المدرسة؟

- المرضُ مُعدٍ ويجب أخذ الحذر، ألديكِ أطفالٌ غيرها؟

- اثنان..

- اعزليها عنهم!

- الله المستعان..

- ويجب أن ترتاح وتواظب على العلاج وسأكتُب لها إجازةً لو احتاجتها إدارة مدرستها..

- أشكرك، الله المستعان..

وخرجنا وما زلتُ لا أدرِي ما بي.. جديري مائي؟

وصلتُ البيت وحينَ علِمَ فارس بأمر مرضي وبأنَّني سأتغيَّب عن المدرسة قال:

- يا رب أنا أيضًا يا رب!!

وبطبيعة الحال قام حُسام بتقليدهِ فورًا.. وسبحان من غيَّرَ الأحوال بعدها بعدَّة أيَّامٍ حين قال فارس متأفِّفًا:

- مرضنا بسببك!

قلتُ ضاحكةً:

- أنتَ من دعوتَ الله أن تمرضَ حتَّى لا تذهب إلى المدرسة، وقد حقق الله لكَ أمنيتك.

نظرَ لي في دهشةٍ وقال:

- أأدعوهُ إذن أن يُحضر لي بيكاتشو؟

أجبتهُ بثقةٍ:

- اِدعه.. أليسَ هو الله؟

فرفع يديْه للسماء خاشعًا:

- يا رب.. بيكاتشو.. يااااااااا رب.

وراح يركضُ يُنادي حسام..

لا أدري سرَّ عشقهِ لمخلوق البيكاتشو لهذا الحد، إلَّا أنَّني شعرتُ بالسعادة وأنا أراه يُصدِّق حديثي الذي يحتملُ الكذبَ والصدق. عادَ يركض نحوي هو وحسام الذي قال:

- أأدعو الله أيضًا أن يُحضرَ لي ثلاحفِ النينجا؟

صمتَ قليلًا، وقال يلهث:

- المفضل عندي هو دوناتيلُّو!!

أجبتهُ قائلةً:

- تعالوا عندَ الشرفةِ الوسطى في المجلس ندعوا الله ثلاثتنا أن يُحقق أمانينا في الصباح، لندعوهُ أن نجدَ جميع البوكيمونات وأبطالَ الديجيتال

وسلاحف النينجا في بيتنا.

صاحَ حُسام:

- ماذا عن ماما؟ لو عرفَت بأمرهم، لقتلتنا ضربًا وما سمحت لنا بالاحتفاظ بهم!!

صمتُّ قليلاً قبلَ أن أقول:

- مممممم لندعو إذن أن يكونوا متخفِّيين حتَّى لا تراهم ماما..

فصاح كلاهما بورعٍ وتقوى:

- آآآآآآميييييييييين..

وانطلت عليهم.. بل انطلَت علينا الحيلة. وفرَّ النوم منَّا في انتظار أن يستجيبَ الله ما دعوناهُ به. وأتى الصباح، ولم يأتِ أحد.

قال فارس غاضبًا:

- يا لكِ من كاذبة!!

ووافقهُ الرأي الصغيرَ حُسام بعينيْنِ دامعتيْن.

قلتُ بثقةٍ لا أدري من أينَ جاءت:

- استجابَ الله دعائي وأتى السِّندبادُ ببساطةٍ وحلَّقنا في الفضاء، وذهبنا لعالمِ الأرقام والبوكيمون، وبعدَ ذاك، مررتُ بأميرات ديزني أميرةً أميرة. كل هذا وأنتُما نائمان.

***

٩

أحببتُ الطريقَ في صغري إلى المدرسة، حينَ تقفُ حافلة المدرسة كُلَّ آنٍ عندَ منزل أحدهم تقلُّهُ، يُفتَح الباب مُصدرًا صوتَهُ ويُقفَل. إلى أن نصلَ قريبًا من المدرسة. ودومًا ما كانت تُطالعني المدرسة.. من عَلٍ، تبثُّ في قلبي فزعًا ورعبًا وحُزنًا، وكأنَّها مخلوقٌ عظيمٌ يبتَلعني، إلى أن زالت من قلبي وحشتها، لكنَّ ما صبَّرني.. هُما جنَّتي في الأرض.. فارس وحُسام اللذان يجلسان دومًا خلفي في الحافلة.. يذهبانِ في نومٍ عميقٍ قبلَ وصولنا إلى المدرسة. ساعات الصباح الأولى دعتهما لشهياتِ النَّوم والأحلام، لعلَّهما يُحاربان الأشرارَ في حُلم.. وما آزرني دومًا، هو ملاكي الحارس.. صَمَد!

نصل.. ويبدأ نشيدٌ وطني.. لغيرِ بلادي. وكيفَ هو حال نشيد بلادي..؟

ينتهي النَّشيد.. ولا تنتهي غُربتي..

تأتي زميلتي بثينة بشَعرها المُصفف بعنايةٍ، تنثرهُ بدلالٍ إلى الوراء، تُمسِكُ الميكروفون لتقدِّم الإذاعة الصَّباحيَّة في اليوم المُخصص لصفِّنا..

أكاد أحفظ إذاعتنا القديمة بافتتاحيتها المعتادة بالنبرة ذاتها:

" السلام عليكم ورحمة الله وبركاته أساتذتي الكرام، زملائي الأعزاء، معكم بثينة عامر من الصَّف الخامس الابتدائي لتقديم الإذاعة الصَّباحيَّة، ونبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم وتلاوة القرآن والطالب عبد الصَّمد"

أُحييه بابتسامةٍ قبيل توجُّهه لها، قبلَ أن تخشعَ روحي لتلاوته لآية الكرسي، فأتمنى ألَّا أسمع صوتًا بعدَ ذلكَ أبدًا.

"صدقَ الله العظيم، والآن مع الحديث الشريف والطالب صُهيب"

يتوجَّه صُهيب مُستعرضًا ريشَهُ وهو يأخذُ منها الميكروفون. ينتهي.

”صَدَقَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، والآن مع فقرة هل تعلم والطالبة شهد“

”هل تعلم أنَّ الحصانَ ينامُ واقفًا؟ هل تعلم أنَّ الابتسامة تحتاج إلى ١٧ عضلة من عضلات الوجه بينما الوجه العابس يحتاج ٤٣ عضلة؟ هل تعلم أنَّ الثعبان ليسَت له آذان ظاهرة، ولكنَّهُ يسمع عن طريق موجات الصوت التي يلتقطها لسانه ويترجمها لآذانهِ الداخليَّة؟ هل تعلم أنَّ....“

شهد.. هل تعلمينَ كم كنتُ غبيَّة وأنا أسمعكِ؟ هل تعلمين أنَّ البيضَ بداخلهِ صفارُ بيض؟

تأخذ بثينة المايكروفون من شهد وتقول، والآن والفقرة الإنجليزية والطالبة أماني..

وكانت أماني في الصَّف الثاني الثانوي، الطالبة الوحيدة المسؤولة عن الإذاعة الإنجليزيَّة. دقيقة تمضِي وأماني لم تظهر بعد. لنعلمَ لاحقًا أن أماني متغيِّبة لأسبابٍ مرضيَّةٍ، وفجأةً يقفزُ صَمَد يسحب يدي ويرفعها عاليًا قائلًا:

- لدينا بروفيسورة إنجليزيَّة هنا!!

ويعودُ المجنون لطابور الصِّبيان.

تطالعنُي بثينة بسخطٍ وهي تُمسكُ المايكروفون بلا اهتمامٍ وجسدها بأكملهِ يُخاطبني دون لسانها: أن تحركي يا غبيَّة.

وما بينَ تعجُّب الجميع عامةً، واستياء صَمَد خاصةً، أخذتُ نفسًا عميقًا، وتشجَّعتُ.. ونويتُها.. ولم أبرَح مكاني.

وهكذا هي الفُرص الضائعة، تلحقُها حسراتنا الأبديَّة.. ببساطة!!

بدأنا بحصَّة العلوم، والمعلِّمة الباكستانيَّة شانشل تشرحُ لنا أسماء عظامنا

البشريَّة بالإنجليزيَّة، كم بدا الأمرُ معقَّدًا ومخيفًا وهي تقوم بالشرح، خاصةً، أنَّها تُشبه هيكلًا عظميًّا بجلدٍ رقيقٍ يغطِّيه، لعنتُ باكستان وأرضها سرًّا، ثُمَّ ذكرتُ كم هي لطيفةٌ معي، فطلبتُ منها السماحَ سرًّا. كم صَعُبَ عليَّ أن أستحضرَ ذاكرتي وقتَ الامتحان، حين تُصبح الذاكرة رجلًا عجوزًا يمضغُ النِّسيان، حتَّى إذا سألتهُ ما بجوفك؟ قالَ نسيت.

تلتها حصة التربية الوطنية، حيثُ وجعي الوطني، وأنا أدرسُ حدودًا عربيَّة وجغرافيَّة لغير بلادي. بلادي التي وجِدَتْ على هوامشِ الصَّفحات. ثُمَّ حصَّتي المفضلة، الإنجليزية.

تَلتَها.. الفسحة المدرسيَّة، حيث أنا وعبد الصَّمد، صَمَد، صَمَدي أنا.

- غبيَّة أنتِ!! لِمَ لم تُقدِّمي الإذاعة بالإنجليزية؟

- لا عليكَ يا صَمَد.. مرة أخرى صديقي..

ورحنا نسيرُ باتِّجاه الأرجوحة، لنجد بثينة تتربَّع واحدًا دون أن تتحرَّك به فعليًّا، فقط تجلسُ عليه وحولها الفتيات والصِّبية يُطالعونَ باهتمامٍ جهازًا ما بيدها. جهاز مربَّع متوسط الحجم، وبيدها الأخرى شريط تسجيل تضعه بداخله ثُمَّ تصلـه بسمَّاعاتٍ في أُذنيها. سألتُ صَمَد مندهشةً:

- ما ذاك في يديْها؟

فنظر صَمَد بغير اهتمامٍ، وقال:

- مممممم.. Walkman

Walk تعني يسير، وman تعني رجل.. رجل ويسير؟ للحظاتٍ ظننتُ صَمَد يهذي فما الذي يفعلهُ رجلٌ يسيرُ في يديْ بثينة؟ هل كانَ رجلًا لا يُصلي وقام الله بسخطه؟.. فسألتهُ بذات الدهشة:

- وما ذاك؟

- جهاز الأغاني.. ما بكِ؟

تلا على مسامعي المحرَّم، الأغاني والموسيقى، رجسٌ من عملِ الشياطين، هكذا قال أبي، لكن فضولي أرهقني، فلم تبرح عيناي الجهاز في يديْها، فقال صَمَد:

- يا لكِ من مريخيَّة!! بل العرب جميعًا من المريخ، الـ Walkman قد ذاعَ صيطُهُ منذ زمنٍ في أمريكا وأوروبا، وها أنتُم تتعرَّفونَ عليه لتوِّكم!!

- كيف تعرف كل شيء؟

وإذا بهِ يصعدُ على صخرةٍ في ركن المدرسة، ويصيحُ بشكلٍ درامي:

- أنا رجل خارق!

ثُمَّ فجأة، ومن حيث لا أدري.. أجدهُ منكسرًا في عينيْه، وإذا بجسدِ حزنٍ يرتديه، فلم أعُد أميز صديقي عن ذاكَ الواقف أمامي حزينًا كالمسيح.

سألتُه:

- ما بك يا عبد الصَّمد؟

أجابَ سريعًا:

- صَمَد، اسمي صَمَد..

ليتركني في حيرةٍ من أمري ويمضي.. ودقَّ جرسُ الفُسحة، وعُدنا مقاعدنا.

***

١٠

- سأقول لأبي إنِّي أريدهُ أن يبتاعَ لي Walkman

أنا لإخوتي، فأجاب فارس:

- وما هو الـ Walkman ؟

فرحتُ أقولُ عن علمٍ مُدَّعٍ ما تلاهُ صَمَد على مسامعي، فأجاب حسام:

- الأغاني حرام!!

فأضافَ فارس:

- لو عَلِمَ أبي، لقتلك.

رغبتي في امتلاكِ واحدٍ لم تك عاديَّة، بل جهنميَّة، أنا التي لم أعرف آنذاك أغنيةً قط. كنتُ كعمياء تطلبُ أن يضيئوا لها الأنوارَ قليلًا، لكنَّها تنسى أنَّها عمياء، ومع هذا تطلبُ.

ذهبتُ لأبي أخبره، فاستعاذ بالله من الشيطان وأمرني أن أنسى الموضوع تمامًا. رحتُ باستياءس أُقلِّب التِّلفاز لقناة MBC2، علِّي أرى فيلمًا يُنسيني حينَ سمعتُه يقول لأمي:

- هذه القناة أفجرُ من الفجور! أخافُ من ابنتك هذه!!

فأجابت أمي:

- هي لا تُطالع سواها.

شكرتُها سرًّا قبلَ أن يغلبَني النَّوم، وأنام بلا حُلمٍ ولا.. موسيقى.

***

١١

يركضُ فارس بجسدهِ الهزيل في أرجاء البيت، لا يرتدي سوى بنطالِ البيجامة. أكادُ أعدُّ عظامَ قفصهِ الصدري. أقتربُ منهُ أعُدُّها، واحد اثنان ثلاثة، يُبعِدُ يدي، يتابع الركض محادثًا أصدقاءه الخياليّين. "آش" صائد البوكيمون:

- **" أحلمُ دومًا أن أكون الأفضلَ بين الجميع،**

لذا أجمعُ البوكيمون، سلاحي المنيع..

سأسافرُ عبر الأرض، باحثًا في كل مكان..

عن بوكيمون، أداة السلام، قوة لا تُهان"

تناديهِ أمي:

- فارس.. هيَّا!

يُحلِّقُ لها فاردًا ذراعيْه، مُصدرًا صوت طيارة مُزعجة.

يجلسُ على كرسيٍّ أبيض وضعتهُ أمي في منتصف الحمام، تفتح آلة الحلاقة، تمرِّرها على رأس أخي بعناية. تنهرهُ حين يُحرِّك رأسه، ثُمَّ تعود تضحك لحركاتهِ الحمقاء.

تنتهي منه، وتُغلق باب الحمام، تُحمِّمه.

عشر دقائق، يخرجُ فارس يغطِّي رأسهُ بمنشفةٍ تصلُ لركبتيه. تدخلُ خلفهُ أمي، تُغلقُ بابَ غرفتنا أيضًا، تُلبسهُ الثياب، الأبيض أوَّلًا، ثُمَّ الألوان.

ومن بعدهِ حسام، نفس المنوال.

يأتي دوري:

- انتهيت يا ريم، الحمَّام جاهز لك إن أردتِ الاستحمام!

ارتديتُ فستانًا أزرق وجواربَ طويلة لأني "مُحجبة"، وحجابًا بلونِ السماء، كعادتي كنتُ أقومُ بِثَنيهِ وثُمَّ ربطهِ أسفلَ عُنقي لم يكن مسموحًا لي أن أتعطَّر خارجَ منزلي على عكس إخوتي، خافتْ أمي عليَّ أن أمُرَّ بالرجال، فتمُرَّ على أنوفهم رائحتي، فأُصبحُ زانية، زانية في العاشرة.

كانَ فارسًا يجلسُ بجانب سائق سيارة الأجرة، كُنتُ أحسُدهُ سرًّا أنا وحسام ونحنُ لا ندري ما هو الشعور حقًّا حينَ نجلسُ قرب السائق. لم نجلس قرب السائق لعاهتينا، كانت عاهتي كوني فتاةً، وعاهة حسام صِغر سِنِّه، وهكذا كان فارس.. قوَّامًا علينا. فارس الذي بطبعه كانَ يُحبُّ الأُسُود، ليكونَ دومًا نصيبَهُ، نصيبَ الأسد! ووصلنا المركز التِّجاريِّ الأكبر في المدينة، وبدأ الإدرينالين بفعلِ أفعاليهِ في أجسادنا الصغيرة. ما زلتُ أذكرُ الساحة المُخصصة للأطفال بألعابها ومراجيحها. وبطبعها أمي تراقبنا عن قُرب، وتراقب البشر، القادمينَ والرَّاحلين، وأراهنُ أنَّها كانت تُسافرُ بروحها، إلى مصرَ وأهلها، فلِزامًا أن تفعل في رحابِ الغُربة.. غربة سفر.. وغربة انهماك أبي في أعمالهِ وغيابهِ الدَّائم عنَّا.

جلستُ في أحد الأركانِ بعدَ أن نالَ التَّعبُ منِّي، وصدفةً نظرتُ صوبَ البوابة الرئيسية للدخول، لأجد جميلة تسير تركلُ برجليْها نظرات العابرين، لم تبدُ من المدينة، فالمدينة بأكملها تتبرأُ منها، ومع هذا هي لا تُبالي.

ظللتُ أطالعُها بعينيَّ وأتمنَّى لو لحقتُ خلفها، تسيرُ كالرِّيم، مهلًا تعالي هنا، اسمي ريم. لكنَّها لم تسمعني، وجدتها تدخل أحد محال الأثاث الكبرى، وتختفي.

رحتُ أعضُّ على شفتي، فويلٌ لي لو لَحقتُها واختفيتُ عن عينيْ أمي. ذهبتُ أجلسُ جوارَ أمي أسألها:

- أرأيتِ الجميلة؟

لكنَّ أمي كانت لا تزالُ في مَلَكوتها:

- أي جميلة؟

فاحترقتُ حسرةً ونالَ مني فضولي. مضت ساعةٌ قبلَ أن تشاءَ أمي أن نسيرَ قليلًا معًا في أرجاء المركز قبل أن نذهب إلى "السوبر ماركت" لنشتري حاجيات البيت كما اعتدنا. أخذنا نسيرُ أربعتُنا، إلى أن جالت بخاطري فكرة لئيمة:

- ماما، تحبينَ أنتِ الأثاث والديكور، ما رأيكِ لو دخلنا هنا؟

وأشرتُ لها للمكانِ بمكر، رحتُ أقرأُ عينيْها من تحت نقابها، أقرأُ فضولها هي الأخرى. قبلَ أن تومئ برأسها أن نعم. كانَ مسموحًا لنا أن ننتشر في المكان إلى ما تسمحُ بهِ حدودَ عينيْها. وعلى الرَّغمِ من مُضي أكثر من ساعة على دخول الجميلة لمحلِّ الأثاث، إلَّا أنَّني كنتُ أدرِكُ جَزمًا أنَّني سأراها. أثاث، أرائك، غُرفُ نومٍ أنيقة، سجاجيد مُعلَّقة تفوحِ منها رائحةٌ لن أنساها ما حييتُ، ستائر كلاسيكيَّة تهواها أمي، نعم استَطعتُ خداعها.

بدأَ اليأسُ يتسللُ لروحي إلى أن وجدتُ غرفةً ببابٍ صغيرٍ خلفَ السجاجيد المُعلَّقة. دفَعني فضولي دفعًا لها، وفي حين انشغال موظفي المكان وأمي، أمسكتُ مقبض الباب ودفعتُهُ، لأجدها بمُفردها... على سريرٍ جميل. كانت تبدو مختلفةً، جمالٌ مختلفٌ، كانت تُغطي جسدها بمِنشفةٍ تلُفُّها أعلى صدرها، وبمِنشفة أخرى ترفعُ شعرها المُبتَل، وجهها خلا من المكياج على عكس حينَ رأيتُها أوَّل مرَّة، فبدا قاتلًا أكثر. تبادلنا الصمت، إلى أن قالت بمرحٍ مُبتَسمةً لي:

- يا أهلًا..

وأشارت إليَّ:

- تعالي يا صغيرة!

كنتُ كالمُنوَّمة مغناطيسيًّا، دفعتُ البابَ أكثر لأدخُل في حين خروج رجل عاري الصدر من أحد الأركان يغطِّي أسفله بمنشفةٍ بالكاد تستره فانتفضَ مكانه قائلًا:

- كيف فتحتْ الباب؟

جزعت، وأخذتُ خطوةً للوراء وأقفلتُ الباب بسرعةٍ. لم أُدرِك وقتها، ما الذي كانا يفعلانه، أُدرِكُ هذا الآن!

ركضتُ مسرِعةً بحثًا عن أمي وإخوتي، لمحتني أمي فصاحت:

- ريم!!!

عرفتُ أنَّ يومي أسود وهي تشدُّ أُذني وتضربني بقوَّةٍ في كتفي أمام الملأ تسألني أينَ اختفيت.

***

١٢

ذاكرتنا ليست ملكًا لنا.. هي رهينةٌ للأمسِ الذي يُقايضنا.. يذُلُّنا في حاضرنا تاركًا الغد رماديًّا كفاية لنشقى.

روب كانَ الأفضل فيما يتعلَّق بالمُضي قُدُمًا.. شعارهُ في الحياة يعود لفيلمٍ لروبرت دي نيرو Heat حين قال في أحد المشاهد التي لا تُنسى:

- "Don't let yourself get attached to anything you are not willing to walk out in 30 seconds "

"لا تدع نفسك تتعلَّق بشيء لا يُمكنُكَ التَّخلِّي عنهُ في ثلاثين ثانية"

جُملة مُرعبة من صميم القسوة التي لن أصلَ إليها ما حييت..

أسألُ روبرت مازحةً:

- أبهذا تعني أنَّك قادرٌ على التَّخلي عنِّي في ثلاثين ثانية؟

- بالطَّبع!!

يُجيبني حاسمًا.. ومع هذا أدري مُسبقًا بأنِّي لو تركتهُ لبكى كطفلٍ صغيرٍ. أدري أنَّهُ سيختنق بغيابي في أقل من ثلاثين ثانية.. لكنِّي لم أُجبهُ.. فليهنأ ببعضِ الكبرياء.

اصطحبني لأحد المطاعم الكلاسيكيَّة.. ارتديتُ لهُ فستانًا بلون البنفسج أسفلَ معطفٍ أنيقٍ يقيني من شتاء نيويورك. شروعُهُ في كتابة رواية جديدة هو خير سببٍ لنحتفل في ذلك المطعم الفخم. وعلى الرَّغم من أنِّي لا أحبُّ الخمرَ أبدًا، يرغمني دومًا على شُربِ كأسٍ لعينةٍ. يقول مُستعرضًا معرفته بمُعظم أنواع الخمر:

- بورجوندي وبوردو الأفضل في فرنسا لإنتاج أفضل أنواع النَّبيذ.. توسكانا في إيطاليا.. وريوخا في إسبانيا..

أُجاريهِ قائلة:

- ماذا عن الولايات؟

يُجيبُني واثقًا:

- نابا فالي في كاليفورنيا بالطَّبع!!

ابتسمتُ لهُ في حين وصول النَّادل الذي أوصاهُ روبرت قائلًا:

- نريدُ كأسين من 1875Chateau Margaux فعندي مناسبة عظيمة أحتفل لأجلها مع الفاتنة هذهِ.. أليسَ كذلك جميلتي؟

أبتسمُ بخجلٍ لكليهما.. لحظاتٌ قُبيل أن يعودَ إلينا النَّادلُ بكأسيْن من النَّبيذ الفرنسيِّ الفاخر. يطالعُني روب بحُب، تلمعُ عيناه وهي تُخبرني أنَّني الأجمل. نرفعُ كأسينا عاليًا على نخبِ المُناسبة.. يقولُ باسمًا:

- ستُبهرك الرواية القادمة.. أعدك أنَّها ستكون أفضل من روايات "غيوم ميسو" التي تحبِّينها!

لروب ثلاث روايات صادرة. حقَّقَ شهرةً واسعةً خلال فترةٍ قصيرةٍ. لكنَّهُ ما كفَّ عن إظهارهِ لانزعاجهِ من أمر "غيوم". ربَّما لأنِّي أحبُّ هذا الكاتب الفرنسي.. أو ربَّما لأنَّهُ أذهلنا جميعًا في روايته "فتاة من ورق".. بيلي تلك الفتاة الخياليَّة المُشاكسة.

يقول مغتاظًا:

- من يظنُّ نفسه ليكتبَ عن أبطالٍ أمريكيين في روايته؟ فليكتبْ عن فرنسا فقط!!

- وأنتَ من تظنُّ نفسك لتشرب من نبيذِهم دومًا؟ لِمَ لا تكتفي بنبيذ

كاليفورنيا.. ها؟

قالَ مازحًا:

- تبًّا لكِ.. ولأكونَ أكثرَ صدقًا.. سأظلُّ أحتسي خمرَهُم دومًا وأملأكِ بقُبلهم الفرنسيَّة.

***

١٣

ولأنَّها مناسبة مُهمَّة.. يُصبح الجنسُ طقسًا إلزاميًّا بيننا..

يعتلي جسدي.. ثُمَّ يتركُ لي زمامَ الأمورِ بعدها. أحيانًا أظلُّ حائرةً حينَ يدع لي نفسَهُ كلوحةٍ جرداء في انتظار فرشاتي.. يضحكُ لبعثرتي بل إنَّها تزيدهُ نشوةً وإذا بزمام الأمور تعودُ ليديْهِ مجددًّا.. حلبة مُصارعة بلا نتائج لخاسرٍ أو فائز.. أمواج كاريبيَّة.. ثُمَّ إعصار بنفحة كاترينا.. إلى أن نهوي معًا نحو قاعِ التَّعب فنُشبهُ معًا خطَّ استواء.. وكعادتي أنتظرُهُ ليذهب في سكرةِ النَّوم.. أستحم فأتوضأ.. ولا أقربُ الصلاة.. لم أقربها منذُ زمنٍ والمفارقة هنا أنَّهم أخرجوني من بطنِ أمي على سجَّادةِ الصلاة مباشرةً.

ينظرُ إليَّ رعد كأنَّهُ يُعاتبني.. أجدُني أسأله:

- هل ستشهد عليَّ يوم يجتمعُ الخلق أجمعين؟

يركض إليَّ راميًا بجسدهِ الكبير عليَّ.. يُقبِّلني على طريقتهِ الخاصَّة. مُهدئًا من روعي.. ضحكت..

- أعلمُ تمامًا أنَّك لن تشهدَ عليَّ يا رعد!

***

١٤

أُلوِّنُ أصابعي بقلم الرَّصاص حينَ اقتربَ منِّي صَمَد قائلًا:

- انظري لإصبعي!

نظرتُ قبلَ أن أشهق:

- يا مجنون!!

- لستُ مجنونًا.. بل ساحرًا.

وكان قد أدخلَ بطرفِ إبهامهِ دبُّوسًا وأخرجهُ من الطرف الآخر.

- ليسَ هذا فقط، هاتي مسطرتكِ وورقة!

فأخرجتُ مسطرتي في حين نداء المُعلِّمة لصَمَد أن يعودَ مقعده، ثُمَّ أخرجتُ دفترًا وقمتُ بفتحِ آخره، وقطعِ ورقة دون أن أُبالي أنَّني بفعلتي ستُقطَع باقي الأوراق من الأمام تدريجيًّا..

أمسكَ صَمَد الورقة وقام بقطعها لوريقاتٍ صغيرةٍ على طاولتي، قال:

- أحتاجُ شعرًا لفتاة.. النتيجة ستكون أفضل..

نظرَ إليَّ، لحجابي، ثُمَّ لباقي الفتيات، ثُمَّ بحركةٍ سريعةٍ قام بإدخال المسطرة أسفلَ حجابي وفركهِ برأسي بقوَّة!!

أخرجَ المسطرة وقام بتقريبها من الوريقات الصغيرة، ثُمَّ قال:

- "أبراااااكاااادااابراااااا"

وإذا بالوريقاتِ الصغيرةِ تنجذبُ وتتطايرُ نحو المسطرة، آنذاك بدا ذلكَ لي كالسِّحر المُبين!!

وإذا بالفصلِ كلِّهِ يقفُ يُطالعنا، ضحكتُ حتَّى دمعت عيني، وكنتُ حينَ

أضحك، لا يقدرُ على إسكاتي أحد، علمتُ سرًّا أنَّني سأندمُ على ذلك! أدركتُ هذا وأنا أقفُ بجوارِ صَمَد، نرفعُ أيدينا عاليًا.. بوجهيْنا للحائط!

عدتُ لمنزلي حينَ استقبلتني أمي:

- انظري لأظافرك كم تبدو قبيحةً!! أخبرتُكِ ألفَ مرَّةٍ ألَّا تصبُغيها بالرصاص.

فنهضتُ للمَقلمة أبحثُ عن الممحاةِ بجانبيْها، الأحمر والأزرق، الجانب الأزرق الذي حافظتُ عليهِ جيِّدًا كي أستخدمهُ لاحقًا حينَ "أكبر"، وأمحو به أخطاء القلم الجاف الذي لم يخطَّ قط دفاتري حينها.

رحتُ أمسح أظافري بالممحاة، كمنْ تمحو سطورَ طفولتها، قلتُ لها دون أن أشعر:

- لم يُمانع عبد الصَّمد حين رآني أفعلُ ذلك.. بل إنَّه...

ورحتُ أضحكُ كالبلهاء:

- قام بإدخال دبوس في إصبعه وإخراجهِ من الطرف الآخر هاهاهاها، أتدرين ماذا فعلَ أيضًا؟

- ريم!!!

أتى صوتها حادًّا، تبخَّرت ضحكاتي وأنا أطالعها، قالت:

- تعالي غرفتي، أريدُ محادثتكِ في أمرٍ مهم.

كان طلبُها أكبرَ مني، أكبرَ من جدائلي، أكبرَ من أسناني اللبنيَّة، لحقتُ خلفها، فغلَّقتْ الباب وقالت:

- بنات بيتنا لا يُصاحبونَ الصُّبيان، ولأنَّكِ بنت عبد الجواد ابن الرجال، أمنعكِ منعًا باتًّا من الاختلاط بأي ولدٍ في الفصل، خاصةً عبد الصَّمد هذا "المتأنِّث"!

لم أدرِ ما قصدُها، لا أذكر وقتها لِمَ غضبتْ جدًّا.. هل شعرت أنَّها تهين رجولته؟ هل كان صَمَد عندي ورغم صغري قويًّا إلى هذا الحد؟ لكنِّي أذكر تمامًا أنِّي قلتُ:

- لكنَّ صَمَد رجل.. رجل كبير.. "أطول" ولد في الفصل.

قالت مُحتدَّة:

- قد أعذر من أنذر، بلِّغيهِ غدًا أنَّكِ لن تُحادثيهِ ثانيةً وأن ينشغل مع الصبيان كما تنشغلينَ أنتِ مع البنات!! لا أفهم حقًّا!! أنتِ بنت.. بنت.. وهو ولد!!! الاختلاط مع الأولاد حرام، وأنا لن أسمح لكِ بالخطأ أبدًا.. يا ليت أحدًا قال لي مثل هذا الكلام في صغري.

شعرتُها تتحدثُ عن مخلوقاتٍ لم يخلقها الله، تُبارك لي حياةً لا رجال فيها سوى أبي وأخواي. كانَ الأمرُ مهولًا لدرجةِ أنِّي لم أبكِ. حزنًا عظيمًا في ثنايا الرُّوح، حزنًا تهتزُّ لهُ طفولتي فلا أفهمُ ما يحدث. هربتُ لكتاب ذكرياتي، أرسمُ للمرَّةِ الأولى صبيًّا سمَّيتهُ سرًّا.. صَمَد.

ومضى الوقتُ سيفًا، في صباحٍ تُعلِنُ فيهِ البومة الكبرى الأبلة روضة، أنَّهُ أسبوعنا الأخير قبيل إجازة ما قبل الامتحانات. دقَّ جرسُ الفُسحة.. أمسكتني يا صَمَدي من يدي واتَّجهنا للأرجوحة، لكن ما بالُها يدي تَعصيك، ما بالُها يدي تخشى أن تكونَ حطبًا في مَن وقودُها النَّاس والحجارة؟ وما بالكَ أنتَ لا تدري بما تُسوِّلُ له نفسي وأمي، فأجدكَ تضحك ضحكتكَ البلهاء التي تهتزُّ لها تُفاحة آدم في عنقك.. وتسألني: ماذا أجلبُ لكِ من حلوى اليوم؟ كنتُ أشعرُ بأمي وكأنَّها تجلسُ قربَ الله تحكي لهُ عن عصياني فيغضبَ منِّي كثيرًا.

وإذا بهذا الجسد يبتعدُ عنك والرُّوحُ لا تزال مُعلَّقة بك يا صَمَدي الجميل،

لِمَ أخبرتني بحقِّ الله، أنَّ قلبكَ يحبُ قلبي؟ تفاجأتُ لتلكَ الحروف الأربع من شفاهك وأنا اقولُ لك ما أمرتني به أمي! خشيتُكَ حينها وخشيتُ هذا الحُب الصغير!.. تركتُكَ قربَ الأرجوحةِ وحيدًا، وفي يديكَ حلوى.. لن نتقاسمها أبدًا.

***

١٥

ويحدثُ أحيانًا ألَّا تكونَ الغُربة.. غربةَ أوطانٍ فقط، وألَّا يكونَ يُتمنا يُتمًا لموتِ أحدهم فعليًّا! قد تكون غربتكَ ويُتمكَ مرتبطيْن ارتباطا كليًّا.. بظلِّ أحدهم، برائحتهِ، بخطوطِ كفَّيه، حتَّى إذا اختفى، أدركتَ كم أنتَ مُغتربٌ في قلبِ موطنك، وكم أنتَ يتيمٌ، وحولكَ ألفُ شخصٍ وشخص. ويحدثُ أحيانًا أن تتساوى الحياة بالموت، ألَّا يصبحَ هنالكَ فارقٌ، حتَّى الأمنيات، تُمسي كلُّها باللونِ الرَّمادي، أو أنَّها باهتة؟ يبدو الأمرُ سيَّيْن، ما أنتَ سوى آلة لها وظائف بشرية، حتَّى يأتي الليلُ فارضًا سوادَهُ في السماء، فارضًا أحقِّيتَهُ في عينيك.. أن تنام، لكنَّكَ لا تنام.

كانَ بي ما يكفي من الوجع لأعودَ منزلي أجرُّ فَقدي، سألتني أمي عمَّا أمرتني بهِ، لم أقل شيئًا، فكُتِبَ على وجهي ألَّا عبد الصَّمد بعد اليوم. رحتُ أجلسُ على طاولة المذاكرة، أحاول مع مادة الرياضيات على وجودها اللعنة، أحاول مع معادلات القِسمة التي خُلقَت لتقسم ظهري، وسرعانَ ما فررتُ لكتب الإنجليزية، أسدُّ ما أحدثتهُ مادة الرياضيات في طفولتي، وإذا بي ألاحظ وجود جهازٍ ما في قلب حقيبتي، جزعتُ وأنا لا أُصدِّقُ عينيَّ، أخذتُ الجهاز بملحقاته وأدخلته أسفلَ قميصي وتوجَّهتُ سريعًا للحمام وأنا أقول:

- بطني يؤلمني..

أقفلتُ الباب وقمتُ بفتح صنبور المياه ثُمَّ جلستُ على الأرض في هول الصدمة. جهازَ Walkman بسمَّاعتيْه وشريطٍ في الداخل!! كنتُ أسمع طبولًا تدقُّ في فؤادي. إلى أن لاحظت ورقةً مطويةً جدًّا على إحدى السّماعات.

قمتُ بفتحها.. وبكى فؤادي:

- ريم.. صديقتي المفضلة في الفصل..

لستُ غاضبًا منكِ وسأظلُّ أحملكِ في قلبي، كنتِ تحبِّينَ الـ Walkman وأردتُ أن أعطيكِ الجهازَ خاصَّتي كذكرى، وقمتُ بأخذِ شيء من أشيائكِ كذلك، أتمنى ألَّا تغضبي مني.. أنا أحبُّك جدًّا يا ريم.

أنا عبد الصَّمد، أو صَمَد كما تُحبين

٢٠٠٠/٠٥/١٨"

شعرتُني أشتاقهُ، أشتاق ظلَّه الطويل. نهضتُ عن الأرض وأنا أضعُ السمَّاعات في أُذني، وأضغط على زر التشغيل:

"My loneliness is killing me

Give me a sign

Hit me baby one more"

"بريتني سبيرز"، أتعرَّف عليها للمرة الأولى، مَن كنتُ أسمعُ عنها كمن تسمع عن أسطورة، وها أنا ذا أسمعها حرفيًّا، تعبثُ بأذني برفقةِ الأدرينالين، الأمرُ كان مهولًا بما يكفي لشعوري بحدقتيْ عينيَّ تتَّسع، لم أُغلق فمي، وأمَّا الصوتُ فكانَ عظيمًا، حتّى أنَّني لم أثق بأن يكون كلُّ هذا الصوت قادمًا من السمَّاعة، بل إنَّني رحتُ أُطالع أركانَ السقف، بدا الصوتُ قادمًا من الأعلى، يتزايدُ في أُذني بتزايد إثمي، آهٍ كم بدا الممنوعُ مرغوبًا، كم كانَ الأمرُ شهيًّا، لذيذًا، ساحرًا، فما اشتهيتُ بعدهُ شيئًا..

لم أشعر بأنِّي مكثتُ قرابةَ نصف الساعة حينَ سمعتُ أمي تُنادي خلف الباب. أطفأتُ الجهازَ سريعًا وتصنَّعتُ المرض وأنا أُخفي الجهازَ مجددًا أسفلَ قميصي، بعد أن تأكدتُ أنَّ أمي لا تقفُ خلف الباب وقد تحققتُ

من فتحةِ المفتاح. فررتُ لغرفتي فرِحَة بالموسيقى، لكنَّني سرعانَ ما ذكرتُ صَمَد وأنا أُخفي الجهاز أسفل السرير. ثُمَّ جلبتُ الكثير من الأوراق من مكتب أبي، وأظرف كثيرة للرسائل، تلكَ البيضاء التي على أطرافها مربعات زرقاء وحمراء اللون. وبدأتُ في كتابة رسالة لعبد الصَّمد.

كانَ أسبوعًا حافلًا ببريتني سبيرز، لصوتها أبعادٌ لن تجدها في مطربةٍ أخرى. صوتٌ قويٌّ، بنكهةٍ جنسيةٍ إن دققنا النظر.. يُقال..

"Sex sells"

لم يكُن شاقًّا عليَّ أن أسمع الموسيقى في الخفاء، في الحمَّام، حينَ ينامون. وكلَّما ذكرتُ الرِّياضيات وأنِّي لم أذاكر، شعرتني لا أبالي، وفررتُ لمحبوبتي"السبيرز"..

وفي اليوم الأخير في الإجازة قبيل أول يوم في امتحانات آخر العام، ذهبتُ كعادتي للحمَّام لأستمعَ لمرةٍ أخيرةٍ للألبوم كاملًا. رحتُ أرقصُ ببلاهةٍ دون أن أرتِّب خطواتي، سعادتي برسالتي الأولى لصَمَد ولرؤيتي إيَّاه في الغد، لم تكُن لتوصف. وأتى قرعُ أمي للباب:

- ماذا تفعلين؟ افتحي الباب حالًا!

- أنا في الحمام..

- وهل قلت إنَّكِ في المطبخ؟ افتحي الباب يا ريم!

قمتُ بشدِّ "السيفون" وأنا أتمنى لو كنتُ نسيًا مَنسيًّا. وضعتُ الجهاز ما بين قميصي وبين بنطالي، وفتحتُ الباب لأجدها بعينيْن غاضبتيْن تودَّان كشفَ أمري.

- ما بك؟ مختبئة دومًا في الحمَّام!!

- بطني يُؤلمني.

- كاذبة، الصابون ليسَ مبتلًّا، ريم.. اعترفي حالًا!

شعرتُ ببرودةٍ في ظهري وعنقي وأطرافي، قلتُ لها:

- كنتُ جالسةً فقط في الحمَّام..

ثُمَّ حاولتُ الابتعادَ عنها، ولسوء حظي، سقطَ الجهازُ أرضًا ومعهُ قلبي.

لم أنطق، وقفتُ أطالعها بلا حراكٍ، بذلك الشَّرر بعينيْها وهي تقتربُ من الجهاز لتأخذهُ.

- مَن أعطاكِ الجهاز؟!

- ....

- انطقي، وإلَّا ضربتكِ بالشمع!

ثُمَّ قامت بتشغيله والاستماع قليلًا:

- الله.. الله.. يومكِ أسود!

فهرعتُ لقدميْها أُقبِّلهما.

- لا تُخبري أبي، سيغضب كثيرًا، أرجوكِ لا تخبريه!

- قولي مَن أعطاكِي إيَّاه، وسأفكر!

قلتُ بتعبٍ:

- صَمَد، عبد الصَّمد.. والله لم نتحدَّث منذُ أمرتِني..

فلم تنطق، كان صمتُها أشدَّ قوةً من كلامها. تركتني وتوجهت غرفتها. وهربتُ أنا لغرفتي، ونمتُ حتَّى الصباح. لم يكن وجهُ أبي يُنبئُ أنَّ أمي قد قالت له شيئًا في اليوم التالي. فحمدتُ الله سرًّا وأتى باص المدرسة. لم أستطع تهريب رسالتي لصَمَد معي، آثرتُ أن أعطيهِ إيَّاها في آخر يومٍ في الامتحانات. لكنَّني لم أنوِ تأجيلَ اعتذاراتي.. وحبِّي.

لم أجد عبد الصَّمد في الفصل في اليوم الأوَّل من الامتحانات، فعلمتُ أنَّهُ

لربّما يكون في أحد الفصول الأخرى، فبيني وبين حرف العين ثمانية أحرف، فبالتأكيد تم وضعه في فصلٍ آخر.

تمرُّ الأبلة روضة بعطرها الحاد، توزِّع الأوراقَ بيننا، تنهانا عن التَّنفس والالتفات. نظرتُ للورقة أمامي، ٣ مسائل لعملية الضرب فرحتُ لرؤياها، وباقي الصفحة.. مسائل قِسمة. أطالع بثينة والأخريات، يكدنَ يدخلنَ في الورقة لكثرة ما يكتبنَ. أقعُ في حسراتي، أتمنى وجود صَمَد.

وفجأةً تُنبِّهنا روضة بانتهاء الوقت، تنهضُ تلم الأوراق، يأتي دور ورقتي، ترمقُها بسخريةٍ، تُتمتم بكلماتٍ لا أفهمها. رغبة مفاجئة تنتابني بالاختفاء، لكنِّي لن أختفي قبل أن أرى صَمَد. دخلتُ كل الفصول، لم أجدهُ، ذهبتُ للأرجوحة أسألها عنهُ، لم تُجبني.. كدتُ أجن. بالتأكيد عبد الصَّمد مستاء مني على عكس ما قال في رسالته.

***

١٦

عادَ أبي إلى عملهِ تاركًا أمي وعصافيرها الثّلاث.. يُسافر، تاركًا إيَّاها جرداء من بعدهِ.. تاركًا خلفهُ الجرائد، وبقايا القهوة في فناجين الغياب. وكعادتها راحت ترصُّ ملابسه في انتظار أن يعود. لكن شيئًا بدا مختلفًا، شيئًا بدا مريرًا كفاية لتستقبلَ أمي تلك الرسالة من أختها "قِسمَت" تخبرها أنَّ جدِّي قد مات. لم أكن أدري كيفَ يكون النُّواح على ميِّت قبل تلك اللحظة، حين ألقتْ أمي بنفسها أرضًا، وراحت تلطمُ على وجهها ونحنُ حولها حيارى لا ندري ما العمل سوى البكاء، البكاء على جدٍّ بالكاد تذكرهُ طفولتنا، لأنَّهُ حينَ مرَّ بالذاكرة، مرَّ بلا ألوان، كأفلام السينما القديمة، بالأبيض والأسود.

نظرتُ لفارس أسألُ وجهه ما العمل، لم تُجبني دموعه، بل زادتني قلقًا. فقمتُ بالنزول مهرولةً للخارج لأطلب المساعدة من الجيران الذين هم جيرانُنا اسمًا فقط، وحينَ وصلتُ للباب، ذكرتُ أنِّي لا أرتدي حجابي، فعدتُ لاهثةً لبيتنا- خوفًا من أمي- أبحثُ عن أيِّ شيءٍ أغطِّي بهِ شَعري، أو تُراهُ خِزيي؟!

هرعتُ للمنزل المقابل لنا أدقُّ بابَهُ، يفتحُ لي طفلٌ في عاشرتهِ ربَّما، يطالعني من أسفلي لأعلى رأسي، تسألهُ أمُّه من الداخل: من؟

فيجيب: جيراننا "الغرباء"..

أبتلعُ ما قاله في حين وصول أمِّه تطالعُني هي الأخرى قائلةً:

- ما بكِ يا صغيرة؟

أُجيبها دون أن أنتبه لأنفاسي المتقطِّعة:

- جدِّي مات في مصر، وأمي تبكي على الأرض، وتلطمُ وجهها باكيةً.

تدعوني للدخول، فلا أدخل، دقائق وتخرجُ برفقتي إلى بيتنا. وكلما اقتربنا من الباب، عَلا صوتُ بكاء إخوتي.

ندخل في عُجالة، تهرع الجارة لأمي، ثُمَّ للمطبخ، تلقي على وجه أمي المُصفرِّ المياه، تنتفضُ أمي، تُتمتم بكلماتٍ مُبهمةٍ، أقربُ إلى طلاسمِ موتٍ ووجع. تقرأ المعوذتين في أذنها، تهدأ أمي إلَّا من الأنين.

لا أدري كيف نجحنا في حملِ أمي إلى غرفتها، تسألني الجارة عن أبي، أجيبها:

- سافر.

أعود لإخوتي أحاول تهدئتهم،أحويهم بما أعطتني أمي من أمومتها، يلومني فارس أن أدخلتُ غريبةً الدار. أخشى أمي حين تستيقظ وتعلم أنِّي استعنتُ بالجارة. تعود الجارة بيتها بعد أن شكرتُها.

وإذا بأبي يتَّصل، آخذُ الهاتف من يدي فارس الذي لم يبالِ لتلك المرَّة.

- أبي..

- ريم، نور عيني..

- كيف حالك أبي؟

((أكتم بكائي))

- اشتقتكم.. تخيَّلي..

- أمي مُتعبة قليلًا جدًّا..

- ما بها؟

- جدِّي في الجنَّة، لكنَّها تشتاقهُ.

والحقُّ أنِّي لم أدرِ- وقتها- ما وجهتهُ، لكنَّ ظنِّي بالله كان أعظم، فاخترتُ

لجدِّي جنَّتهُ في عُلاه.

- لا إله إلَّا الله، إنَّا لله وإنَّا إليهِ راجعون، قادمٌ إليكم في الفجر..

يُنهي المكالمة، أنفجرُ باكية.

***

١٧

عودةُ أبي من السفر كانت كلمحٍ من البصر، يدخلُ وجههُ مُصفرٌّ، يُلقي سلامًا مذعورًا كقلبهِ، لم يأخذ أحدًا منَّا بين ذراعيْهِ، بل أخذنا إلى قلبهِ.

دخلَ إلى حيثُ أمي:

- نور عينيَّ..

همسها من شفتيْهِ الباكيتيْن.. نظرتْ إليهِ أمي بعينيْن تحترقانِ دمعًا، اتَّسعتْ عيناها قليلًا وهي تُدركُ أنَّهُ حقًّا قد عاد، ثُمَّ تعودُ تغمضهما باكيةً. كانت تبكي بحرقةٍ لم نعهدها من قبل، ولشدِّ ما بكت، ظننتها ستفقدُ بصرَها مع كل تلك الدموع المنهمرة، ظننتها تعصرُ عينيْها، حتَّى جسدها، كان يبكي، كلُّ شيءٍ بدا فيها أكثرَ حُزنًا، بدت كزهرةٍ مُلقاةٍ في بساتين الموت. كُنَّا حولها لا ندري ما نفعلُ إلى أن جاعَ إخوتي وأخبروني أن أطعمينا.

شعرتُ بجبلٍ كبيرٍ على كتفي، وشعرتُ بأمومةٍ مفرطةٍ، وخوفٍ مفرطٍ.

وقفتُ أمام الثَّلاجة لا أدري ما العمل، وأمي لم تطبخ بعد.. فقال حسام:

- "بطاطث" بالكاتشب..

بدتْ فكرةً لامعةً وعصافير بطني ترتِّل تراتيل الجوع بإتقانٍ.

أخذتُ كيسَ البطاطس الجاهزة، وكما كانت تفعل أمي قمتُ بتسخين طاسة الزيت للمرةِ الأولى. منعتُ إخوتي منعًا باتًّا من دخول المطبخ خوفًا عليهم. شعرتُ برهبةِ أن أكونَ "كبيرة" وأنا أُلقي أول قبضة بطاطس في يدي، ثُمَّ أفرُّ إلى الباب وأعود بعدها بلحظاتٍ أكرِّر فعلتي إلى أن امتلأت الطاسة. رحتُ أقلِّب البطاطس باكرًا وأنا لا أدري أنِّي بفعلتي تلك سأقوم

بعجنها.

بدا الأمرُ مسلِّيًا..

رحتُ أتخيَّل بأنِّي الشيف ريم عبد الجواد لإعداد أشهى المأكولات، رحتُ أتخيَّل أنَّ لي مطعمًا مشهورًا في إحدى ضواحي نيويورك، حيث يعتادهُ الآلاف. ارتديتُ مريلةَ الطبخ طاعةً لخيالي، ورحتُ أحادثُ نفسي وأحادثُ الأشباحَ حولي أنَّهُ حريٌّ بنا أن نُسرع حتَّى لا يستاء الزبائن، رقصت وقتها. يحاولُ فارس وحسام الدخول، أطردهما خارجًا فورًا.

شعرتُ بما في الطاسةِ قد نضج، فوضعتُ المناديل على صحنٍ كبيرٍ بعدَ أن أقفلتُ النَّار، سعادة لا توصف بأوَّل وجبةٍ تصنعها أناملي الصغيرة. وبدأتُ في وضع البطاطس في الصحن قربَ المشعل.

بقيَ القليل ليكتملَ الصحن حين تزحزحت طاسة الزيت وسقطَ بعضٌ منها على فخذي.

شعرتُ وقتها أنَّ الألم كان عظيمًا، أذكر أنِّي ارتميتُ أرضًا من شدَّة الألم، وفخذي انتفخ بعضه مثل عدة بالوناتٍ صغيراتٍ متجاوراتٍ. أُغلقُ باب الحمام، بكيتُ مِن هولِ المنظر على فخذي. ذكرتُ الـ Walkman، وأنَّ هذهِ رسالة من الله "يقرصني" فيها على فعلتي ليذكِّرني أنِّي آثمةٌ. وعلى صوت بكائي، أتى صوت أبي من خلف الباب قلقًا:

- ريم؟

- بابا..

ثُمَّ قمتُ بفتح الباب قليلًا والوقوف خلفَهُ وأنا لا أستطيع الوقوفَ من شدَّة الألم، نظرتُ لأبي باكيةً ثُمَّ قلت:

- أبي لا تُخبر أمي، احترقت فخذي بالزيت..

فقام أبي بفتح الباب.. مسكين أبي.. لا يدري من أين تنهالُ عليه المصائبُ، نظر لفخذي ثُمَّ غطَّى فمَه بيُمناه، وهمسَ لي وهو يفتح الدُّش:

- تحمَّلي ولا تُصدري أصواتًا، يجب غسلهُ بالماء فورًا..

فحملني إلى "البانيو"، ولخوفي، فعلتُها على نفسي، وحتَّى هذهِ اللحظة، لا أدري إن لحظَ أبي ذاك، أم لا..

كيفَ لعاشرتي.. أن تطيقَ ذلك الألم المهول، وخجلي من أبي على ما خانني جسدي وسرَّبَهُ، وخوفي من أمي حينَ تدري أنِّي أدخلتُ غريبةً الدَّار، وقلقي.. من الله؟

كنتُ أشهقُ من روحي وأبي يرشُّ الماء على فخذي، ثُمَّ يحملني مجددًا ويقوم بدهن معجون الأسنان على الحرق، لا أشعر بأيِّ ارتياحٍ كان. خرجتُ لإخوتي باكيةً، فيستقبلني حسام باكيًا عليَّ لما جرى لي، وعلى الجهة الأخرى يطالعني فارس ذاهلًا.

- لا تُخبروا ماما!

يركضُ إليَّ حسام بصحن البطاطس قائلًا:

- أبقينا لكِ هذا، كُلي.. كُلي!

لكنَّ ألمي غطَّى على كل شيء، فأجبتهُ باكيةً:

- في الغد يا حثام..

أدخلني أبي غرفتي وتمدَّدتُ بصعوبةٍ على السرير دون أن أُقرِّب فخذيَّ من بعضهما. بقي أبي إلى جواري في انتظار أن أنام، كنتُ أدري أنَّهُ يودُّ التَّحليقَ للاطمئنان على أمي. تصنَّعتُ النوم، فراحَ إليها.. فانفجرتُ باكيةً إلى أن نمتُ من التعب.

***

١٨

يوقظُني روبرت..

يوقظُ جسدي الذي أصبحَ برائحته. يقول لي إنَّني الأجمل في الصباح. جسدي يؤلمني من غزواتهِ بالأمس.. لا أُخبرهُ بذلك لكنَّ عرجتي تشي بي فيضحك.

أذهبُ لعملي.. يأكُلني الأسى.. فأنا عصفورة روبرت الوحيدة التي لن يرضى تحريرها. تلوم جوليا تأخيري. أرشوها بالدُّونات. تعجبُ كيف لا أسمن جرَّاء إدماني إيَّاها. ينتهي يومي.. فأعود للقفص.

يُحادثُني روبرت عن العرب، يغرزُ أظافره في عروبتي القديمة.. يمرُّ بكلماته كالسَّيفِ على جروحي الغائرة التي لن تلتئم، يسألني:

- كيف تتم التوبة عندكم؟!

لربَّما هي أبسط ممَّا تتخيَّل يا روبرت، أو أصعب ممَّا تتخيَّل. ذكَّرني بنفسي قديمًا، حينَ شاهدتُ في إحدى القنوات برنامجًا دينيًّا هو أقرب إلى الاستفسارات الدِّينيَّة على الهواء مُباشرةً، حيث اتَّصلتْ بالشيخ إحدى السيِّدات تُخبرُه أنَّها أتت بذنبٍ عظيمٍ وأنَّها تظن أنَّ الله لن يغفر لها. فأمرها الشيخ ألَّا تقنطَ من روحِ الله، وإذا بها تُخبرهُ أنَّها ذهبت لتغسل ذنبها في مكَّة، لتطوف حول الكعبة، لكنَّها لم ترَ الكعبة، وكأنَّ النَّاس يطوفون حول السراب، وكلَّما سألت أين الكعبة؟ اتَّهمها النَّاس بالجنون في الحرم وشفقوا لحالها فكيف تسأل عن الكعبة وهي بارزة يطوف النَّاسُ حولها؟! قالت والله ما رأيتُها وفقدتُ عقلي، وذهبتُ هناك لأيَّامٍ متتاليةٍ، حرمني

الله من الكعبة يا شيخ.

لن أنسى وجه الشيخ الذي تلوَّن لما سمع، الشيخ الذي أمرها بإنهاء المكالمة قائلًا: فليتولاكِ الله برحمته.

وكم خشيت أن أذهبَ إلى هُناك، فلا أرى الكعبة. لم أُجب روب، ورحتُ ألهيه بحماقات العرب، أُخبرهُ أنَّ العرب الآن مشغولون بكتابة "الله أكبر" على منشورات "لو أنت تحب الشيطان لا تكتب الله أكبر"، والأشد غرابةً تعليقاتهم بـ"سبحان الله" على صورةٍ لرأس قرش بجسد حصان وكأنَّها من خَلق الله، وما هي إلَّا من خَلق "الفوتو شوب".

أتدري أنَّ توبتي بحق تتطلَّب الانتهاء منك؟ أن أقوم ببترِكَ من جسدي وقلبي.. أن أرمي بعطورك كلِّها.. مسكينٌ أنتَ يا روب إن ظننتها سهلة.. وتعيسةٌ أنا بينكما!

***

١٩

أنهضُ لأجدَ أمي تجلسُ أسفلي بوهنٍ تضعُ مرهمًا ما على فخذي، يعودُ الشعورُ بالألم مجددًا، فأبكي..

- ريم الجميلة، أعرف أنَّكِ تقولين أنَّ أمي قاسية، صدِّقيني يا بنيتي أنا أخاف عليك.. أنت لا تعلمينَ شيئًا عن قُبح هذا العالم، لكنّني خائفةٌ عليك.. خائفةٌ جدًّا.

لا أُجيبها وقد رأيتها ترتدي عباءةً سوداء على أبيها الميت..

- كيف حدث هذا صغيرتي؟!

أُجيب بتعبٍ:

- لن أستمعَ للموسيقى مرةً أخرى، كي لا يغضب مني الله..

أنهضُ وأحضنها وهي تمدُّني بشطائر الإفطار والحليب. أتناول الطعام كأنِّي لم آكُل دهرًا. أنظر لفخذي المُلتهب، أتساءل ما إذا كانت ستترك ندوبًا.

أطالعُ فَخذي الآن... تبًّا!!

لم تسلم أمي من وجع الموت، أصابتها وعكةٌ صحيَّة عنيفةٌ اضطُرَّ أبي على أثرها باستدعاء خالتي قِسمَت من مصر بعدها بأيَّام..

أسبوعٌ جنونيٌّ ما بين تعب أمي، امتحاناتي وإخوتي، صَمَد الذي اختفى.. و.. قِسمَت!!

يدُقُّ بابَ بيتنا، وكعادتي أوَّلُ الواصلينَ إلى الباب لاستقبال قِسمَت، أفتحُ لها، أرفعُ ناظري إليها أبحثُ عن بسمةِ استقبالي، لم أجدها، بل دخلَتْ إلى حوش بيتنا تُطالعُهُ بريبةٍ وصمتٍ، بتقاسيم وجهها الباردة كالجليد،

ترتدي أسود، تمدُّ رأسها لترى مَن قادم أيضًا، تسمعُ أصواتهم، ثُمَّ تأخُذني بين ذراعيْها وتملأني بقُبَلٍ مليئةٍ بريقها.

أمالتْ على الحائط، وهي تُمسكُ عُلبةَ كبريت، تأخذُ عودًا، تقفُل العُلبة، تُشعل العود وتُقرِّبهُ من وجهها، تنفخُ كَمَن تنفخُ شمعة أعياد الميلاد، ينطفئ العود.. فتشمُّ دخانهُ كَمَن تشمُّ عطرًا أو وردًا بديعَ الرائحة وتُلقي بالعودِ أرضًا، ثُمَّ تُدخل العُلبة في جيبِ ردائها.

لم أفهم ذلك المشهد الذي أرعبَ فؤادي، وفررتُ إلى الداخل في حين وصول أبي وإخوتي لاستقبالها.

فررتُ أجلس جوارَ أمي التي بدا عليها الفرحُ لاستقبال قِسمَت. أفكِّرُ بما رأيتهُ للتَّو، أفكِّر بالكوابيس التي سأشهدها جرَّاء ما شهدتهُ عيناي. وصل الجميع برفقة قِسمَت:

- اشتقتكم أحبَّتي!

لم يكن في وجهها ما يشيرُ لكلمة "أحبَّتي"، حاولتُ تصديقها.. حاولت!

تحضنها أمي بقوَّة، تبكيان معًا.. يأسفُ أبي لدموع حبيبته.. لكنِّي أشعرُ به منزعجًا من أمرٍ آخر.

أمي بعدها تجلسُ لا تنطقُ بحرفٍ، تبكي حينًا وتشردُ حينًا، ساعة على ذاك المنوال، تقف تُطالعنا، ثُمَّ تُطالع الأرضية، تقول:

- عبد الجواد خُذني وأولادي إلى مصر!..

يصمت أبي وهو يتلقفُ منها رغبتها المفاجئة، يبتلعُ ريقًا، يقول:

- نعم.. مضت ثلاثة أعوام، تسافرون خلال أيامٍ وتُمضون الإجازة الصيفية هناك، أبشري!

- عبد الجواد، سفر لا عودة منه! أبقى وأولادي هناك، قرار نهائي

يتلقى أبي طلبها كصفعةٍ، يقول:

- قرار نهائي؟ ماذا تقصدين؟

- أقصد أنِّي اكتفيتُ اغترابًا، أقصد أنَّ أبي قد مات، الحاج صالح مات مات.. أقصدُ أنِّي اشتقتُ أمي وأختي قِسمَت وأنِّي ضقتُ ذرعًا من وطنٍ ليسَ بوطني. خُذني لمصر سأكونُ آمنة، وأولادي أُدخلهم أفضلَ المدارس.

أنا وإخوتي نشهد أوَّل خلافٍ بينهما، تُنهي أمي حديثها:

- خذني لمصر أو طلِّقني!

ثُمَّ تنهارُ باكيةً..

أليسَ الطلاقُ حين ينفصلُ الزوجان وينقسمُ الأطفالُ اثنين؟! حينها تدخَّلتْ قِسمَت قائلةً:

- استعيذوا بالله من الشيطان..!!

تصمُت قليلًا، ثُمَّ تقول:

- هيَّا يا أولاد إلى النَّوم، أليس الغد آخر الامتحانات؟! سآتي معكم..

في حين ينهضُ أبي يُحاول تهدئة أمي، تُبعدُه بيديْها، تبكي أكثر، يستاءُ، يقولُ غاضبًا:

- سأخلد إلى النَّوم!!

***

٢٠

أودِّع جميع من في المكتبة وقد انتهى يومٌ آخر بين الكتب، يُسلِّم عليَّ الشتاء على طريقتهِ الخاصَّة، أُحيِّيهِ بصمتٍ، أُخبرهُ أنَّهُ دومًا الأجمل! تبتسم لي سيِّدة عجوز، تدعو لي بأن يحفظني المسيح. أيحفظني المسيحُ حقًّا؟ أخبريهِ أنِّي سآتي بخطيئةٍ هذهِ الليلة أيضًا. أدركتُ هذا لدى رؤيتي روبرت الذي فاجأني ليصحبني إلى المنزل. مدَّ يدهُ لي باسمًا:

- ما حالها الجميلة؟

- بخير.

- اشتقتِ لي؟

- مممممم.. لا..

فيضحك قائلًا:

- ماكرة!

مررنا بعربةٍ مُتنقِّلة تبيعُ شطائر الـ"هوت دوج".. يقول روب للبائع:

- اثنيْن من فضلك!

أصيحُ به:

- أربعة!!

يُطالعني روب ضاحكًا:

فأقول:

- واحدة لك، اثنان لي، والأخيرة لرعد!!

يضحك أكثر.

ينظر إليَّ رعد مُعاتبًا وأنا أتناولُ المهدِّئات ومضادات الاكتئاب كسكاكر Skittles. أهمسُ إليه سرًّا: ششششش. كي لا يُخبر روبرت، يفهمني ثُمَّ يُطأطئ الرأس فأرشيه بشطيرة الـ"هوت دوج". أخشى غدر العالمين ولا أخشى غدرك يا رعد. كنت قد ابتعت لهُ قلادة فضيَّة على شكل حرف الـR، لم أنتبه لتشابه الحرف الأوَّل من اسمينا إلَّا وأنا أشتريها. أمرُّ بالأمسِ الذي يُثقلُ ذاكرتي، فأدرك للمرَّة الألف أنَّ النِّسيان كذبة.. النِّسيان كلمة مستحيلة، فثمَّةَ ما يبقى عالقًا فيك، ثمَّة ما تبقى عالقًا فيه، كالوشم الذي حصلتُ عليه حديثًا، وشم صغير يُزيِّن رسغ يدي وعنقي من الخلف. على رسغ يدي فاصلة منقوطة. يُقال إنَّ الفاصلة المنقوطة يستخدمها الكاتب في جملةٍ كان من الممكن أن ينهيها لكنَّهُ لم يفعل. واكتشفت كذلك أنَّ الفاصلة المنقوطة في عالم الوشوم تحملُ أملًا وبهجةً، إذ إنَّها تدعوك للتوقُّف قليلًا، ثُمَّ متابعة المسير على الرَّغم من أي عقبات أو مطبَّاتٍ كانت. أعجبتني الفكرة؛ أعجبتني للغاية. وعلى خلف عُنقي وشمتُ كلمة الإيمان بالإنجليزيَّة، Faith، حتَّى ولو لم أدرِ فعليًّا الإيمان بماذا. نحنُ نؤمن بما كفرنا بسواه، لكنَّ أغلب المؤمنين في بلادي، مؤمنون بما اعتادوه ونشأوا عليه، إيمانهم إيمانٌ مكتسبٌ، أي ليس على درايةٍ ودراسةٍ وفهم وتصديق، بل كَبروا معهُ، ولِدوا عليه، وجدوهُ في الأهل والمجتمع والصُّحف والمدارس. هو إيمانٌ مشكوكٌ في أمرهِ، لذلك يسهل الوقوع في الخطأ، ذلك أنَّ الإيمان لم يكن سوى قشرة. فتجد المُصلي يصلي فروضَه لأنَّه اعتاد على الصلوات الخمس، لأنَّه وجد أباه مُصليًا يدعوهُ للصلاة كي يدخل الجنة ولا يُرمى مع الحطب في النَّار، وتجد تلك ترتدي الحجاب لأن المجتمع والعادات والتقاليد تلزمها بذلك.. وذلك يُزكِّي لمظاهرَ خادعة أو ليواري ذنبًا بزكاة. لم تعُد العلاقة بالله

مباشرة، لم تعُد لهُ وحده، لم تعُد سلسة أو شفافة. أصبحت بعض العبادات لعبد الله لا لله، أصبحت مشوَّهة بالتكرار الأعمى والإمعيَّة والجهل.. ((هذا ما وجدنا عليهِ آباءنا)).. ربَّما أقول هذا لأنِّي مضرَّجة بالخطايا، أو ربَّما لأنِّي وكما يقال، أُحبُّ الصَّالحينَ ولستُ منهم ههههههههه.

- أأنتِ متأكدة أنَّ آثار الحروق على فخذتك هي من سقوط الزِّيت عليها؟

يسألني روبرت وهو يقبِّلها، أقول وقد أغلقتُ كتابًا أتصفحهُ آنذاك:

- أجل، يا إلهي كم تكرر هذا السؤال!

- أواثقة أنَّها ليست من صنع أهلك؟

- لا!! أتظنُّهم وحوشًا؟

لم يجبني، بالطَّبع لن يجيب فعقلهُ الأمريكي مشغولٌ بحقوق الطفل والمرأة التي يفتخرُ بوجودها وقوتها في الولايات. أخذَ الكتاب من يدي باسمًا، وراحَ والجنس يمارسانني، يسردان حكايا على جسدي، جسدي الذي لن يحكيها لي أبدًا، سيتلقاها وحده، سيبلعها وحده نافيًا إيَّاي برفقة الروح، وتحدُّثني عن حقوق الطفل والمرأة يا روبرت؟ الطفلة بداخلي ترفضك، والمرأة بداخلي ترفضك، لكنِّي بكماء يا روبرت، بكماء لم تتعلَّم فن الرفض، ولا فن الإيمان، أُدرك في كل مرةٍ تعتليني أنِّي أخذتُ من الإيمان القشرة. وحين تنتهي مني، أعجب للصلوات والطاعات في صغري، كيفَ لم تَصُنِّي وتحفظني؟

كان لي حق الاختيار، أنا المسؤولة عن الانتهاكات المُمارسة ضدي، أنا التي قبلتُ أن أكونَ ساديةً مع نفسي. لكنِّي لم أكن المخوَّلة بإصدار القرارات، شعرتُني مقيَّدة بأغلالٍ صنعتها بنفسي وقيَّدتُني بنفسي. لم يرضني حقًّا أن

أشتري الطيور وأحررها، سيمسكون بها ثانيةً، وستُحتجز ثانيةً، لكنِّني مع هذا، أحببتُ أن أراها تطير، أن تشعر بالحرية مجددًا فاردةً جناحيها التي لا أملك، أحبَّبتُ أن أعلِّمها أن للحرية ثمنًا لن تعرفه إلَّا وهي في القفص، القفص الذي هربتُ منه أنا لأدخل لقفصٍ أكبر يُسمى الحياة.

***

٢١

وطلَّ صباحٌ برائحة الجنس، يضحك روب من أمري دومًا حين يعلم أنَّني أغتسل أوَّلًا بأوَّلٍ حين ننتهي. يقول لي إنَّهُ يُهان من فعلتي، لكنَّهُ لا يتوقَّف أبدًا عن الضحك. أستقبل كلامهُ بابتسامةٍ وأنا أرجوهُ سرًّا ألَّا يُثفلَ قلبي أكثرَ من ذلك. أنا أتوضأ يا روبرت لأغتسل منك، من شفاهكَ على جسدي. أحيانًا أتمنَّى لو أنَّ الغُسلَ من الإثم يسيرٌ كالوضوء، أتوضَّأ فأعود طاهرة مُطهَّرة كطفلٍ صغير، ببساطة.

أتوضَّأ فيعود دفتري نظيفًا طيِّبًا.

- ماذا أعني لك يا روبرت؟

وجهه يكون جميلًا حين يبتسم، قال:

- تعلمين أنِّي جيِّد مع الكلمات، أنَّى لكِ أن تعرفي صدقي من كذبي؟ أنا روائي أنسيتي؟

- لي مع عينيكَ عهدٌ بألَّا يكذبان عليَّ!

- ريم.. أنتِ ربيع هذا العالم، وأنا أشكر الأقدارَ دومًا بأن ألقتكِ عليَّ. سأظل ممتنًّا لغُرف الدردشة ما حييت..

'You are my best friend'

إذن فاتفقنا على أنَّنا صديقان يا روب، أنتَ لم تعشق سوى هذا الجسد.. ولكن أيكونُ الجسدُ صديقًا كذلك بمُباركةٍ من الجنس؟! سنظلُّ أنا وأنت يا روب دومًا، والجنسُ ثالثنا. وتقول لي إنَّ العاهرة هي من تعمل لدى قوَّاد؟

كفاكَ مُزاحًا، أنا عاهرتك.. لكن لا قوَّادَ بيننا.

***

٢٢

صَمَد يا صَمَد.. أينَ أنتَ يا صَمَد؟!

أنهيتُ آخر امتحاناتي، وتوجَّهتُ حيث ينتظرني فارس وحسام. دعوتُ الله ألَّا تصدق قِسمَت بوعدها وتأتي لاصطحابنا من المدرسة كما أخذتنا إليها، لكنَّني وجدتُها بردائها الأسود تُشبهُ الساحرات الشريرات، فاقشعرَّ جسدي لرؤياها. أربعينيَّة من صنفِ الجان حتمًا، هي ليست بإنسان، أو أنَّها "إنجان"؟!

راحت عيناي تبحثان في أسى عن صَمَد، تدعوهُ أن يظهر فجأةً أمامي كالأمنية! كنتُ أسيرُ بجسدي فقط، لكنَّ كُلِّي ظلَّ يُناجيني ألَّا أسير إلى أن رأيتُ صَمَد يقف على بُعد عدَّة أمتار، لم يبسم لي، ظلَّ يُطالعني مُعاتبًا. وكانَ بي ما يكفي من الحنين لملء قارَّة، أرجوهُ بعيني أن يقتربَ لأعطيهِ رسالتي، أرجوهُ ألَّا يظلمني لأنِّي عاجزة.

- مَن هذا؟

تسألني قِسمَت فأشعر بقلبي يسقط أرضًا. أُجيبها سريعًا:

- لا أحد!!

ثُمَّ نظرتُ لإخوتي خشيةَ أن يفضحوا أمري ويخبروا ماما. ثُمَّ لقِسمَت التي أخرجت عودَ كبريت تُرعبُ بهِ فؤادي.. تُشعلُه كمن تقوم بتحضير الأرواح، تُطالعهُ لثوانٍ وهو يشتعل، تنتشي بفرحٍ، وبأنفاسها تُطفئه، ثُمَّ تشم الدُّخان وقد أغمضتْ عينيْها، المُرعب أكثر، هو تلك الابتسامة اللعينة على وجهها حين تنتهي وهي تُلقي العود أرضًا. قالت:

- فارس، حُسام.. ستذهبان بباص المدرسة، أمَّا أنا وريم فسنتبعكما لاحقًا!

أُطالعها بدهشةٍ، وحينها قال فارس:

- لا نريد الذهاب بباص المدرسة، سنأتي معكما!

فقالت قِسمَت:

- إذن رافقونا، رافقونا كالبنات!

فظلَّ فارس يُطالعها بعينٍ حائرةٍ، يُقلِّدهُ حسام. لحظاتٌ ثُمَّ قال:

- بنات؟ سنذهب بالباص بمفردنا كالرجال! لكن ماذا لو غضبتْ ماما لترككما لنا؟

- اترك الماما جانبًا، هيَّا إلحقا الباص!

وما بين دهشتي وخوفي سألتني:

- أحبيبكِ الطويل ذاك؟

حبيبي؟ ابتلعتُ ريقًا، وقلت:

- لا تُخبري ماما!

رفعتْ حاجبًا وقالت:

- ولِمَ سرَّبتُ إخوتك يا غبيَّة؟ هيَّا نادهِ!

لم أكُن سوى جمادٍ أصم. لا أدري كيفَ أتصرَّف أو ما أقول. فقالت:

- ستسافرين بلا رجعةٍ خلال أيَّام، ستندمين أشد النَّدم إن لم تودِّعيهِ بحق. أيعلم بأمر سفرك؟

أجيبُ وأنا أُطالع الأرض بصوتٍ بالكاد يُسمع:

- لم أخبرهُ، نحنُ متخاصمان تقريبًا..

- لِمَ؟!

- منعتني أمي عنه لأنَّه ولد.

- آآآآخٍ منها هذه أمُّكِ فاطمة! لن ولم تتغيَّر. هيَّا نادهِ، الوقت يداهمنا.

فلم يستجب لها جسدي فصاحت بي:

- ما اسمه؟
- صَمَد، عبد الصَّمد..
وإذا بها تُناديهِ بملء صوتها:
- ياااا عبد الصَّمد!
يُطالعُنا ذاهلًا وهو يقتربُ، وكم وددتُ رميَ عُمري بينَ أحضانه!
- نعم..
يُجيبها بأدبٍ، تُجيبُ:
- أمسِك يدها وسيرا خلفي!
وقفنا بلا حراكٍ ننظرُ إليها كالحمقى.
تجيبُ بضجرٍ:
- أووووووه
ثُمَّ تُمسكُ يميني وشماله ليتعانقا، ثُمَّ تقول:
- هيَّا تصالحا!!
فقال صَمَد بحسمٍ:
- لِمَ منعتها عنِّي؟
فضحكت الخالة دون أن تبتسمَ، وقالت ساخرةً:
- لستُ بأمِّها، ولا أحد كأمِّها، أنا خالتها.. هيَّا تصالحا!
جميلة يدي دومًا في يدك يا صَمَد، نحنُ معًا نُشبهُ نسيمَ الربيع بلا هُراء هذا العالم، بلا حماقات البشر وظنونهم، نحنُ معًا جميلان ولكن في الكون الخاطئ. أتدري كم كنتُ أودُّ الفرارَ بك ومعك في كوكبٍ يُشبهنا ونشبههُ يا صَمَد؟ حيثُ لا نُلقي بالًا إلَّا للعب والحلوى، ويدك الدَّافئة في يدي.

***

٢٣

أعطيتُهُ الرِّسالة، أراد أن يقرأها في حضرتي فمنعتُهُ. سألني عن السبب:

- في البيت أفضل.

- أتخجلين؟

ثُمَّ يُرقِّصُ حاجبيْه فأبتسمُ، قال:

- ستنقضي الإجازة الصيفيَّة ببطءٍ، أعلمُ هذا مُسبقًا، ولكن يجب علينا أن نفكِّر بطريقةٍ ذكيَّةٍ لتستمرَّ صداقتُنا ولا تغضب أمُّك.

آهٍ يا صَمَد، لم أستطع إخبارك أنَّها لحظاتُنا الأخيرة في قلبِ وداع. كتبتُ لكَ ذلك في الرسالة لأنِّي لن أقوى على إيذائك.

- خالتك تبدو.. لطيفة.

لم أستسغ ما قال، لحظاتٌ وإذا بقِسمَت تلتفتُ إلينا قائلةً:

- أتصالحتما؟

فقال صَمَد باسمًا:

- نحن لم نتخاصم أصلًا!

- أأخبرتهِ يا ريم؟

نظرتُ إليها بحُزنٍ عظيمٍ:

- في الرسالة..

أمَّا صَمَد فظلَّ حائرًا بيننا لا يدري ما نقول. كنَّا نسير ثلاثتنا تقودنا قِسمَت كمن تحفظ الطريق جيِّدًا، لم نبتعد كثيرًا عن المدرسة حين دخلنا أحد الأحياء، علمنا منها لاحقًا أنَّها تُريد أن تُلقي السلام على إحدى

صديقاتها القُدامى، وكأنَّها تريدُ سرًّا إعطائي المزيدَ من الوقت لأملأني به.

وقفتُ أُطالعُه بحنينٍ موحشٍ:

- سأشتاق إليك..

فإذا بهِ يخجلُ من أمرِ اشتياقي، قال:

- ستمرُّ الإجازة سريعًا دون أن تشعري.

ها هو يُناقض نفسه.. لكنَّه يمر بعينيْهِ على أملي، ينتفضُ، ولا يُخبرني ما به.

***

٢٤

ولم أدرِ ما حدث، أو كيفَ حدث، شعرتُني في روايةٍ عجيبةٍ يلعب بأقداري الكاتب ما يشاء، يضعني هنا، ويُلقيني هناك. أنا أجلسُ في الطائرة المتَّجهة لمصر، لقاهرة المُعز، بقربِ إخوتي وأمي وقِسمَت. أبي لم يأتِ معنا، آخر ما أذكرهُ رقم ١١ على جبينهِ الأسمر. سمعتُه يقول سيلحقنا لاحقًا، ولم أدرِ ما إعرابهُ في قلبِ أمي، حبيبٌ مُتَّصل أم مُنفصلٌ، مَبنٍ على وِصالٍ أم مَبنٍ على هدم، ولم أدرِ ما موقعي وإخوتي من ذاك الإعراب.. خشيتُ أن ننضم لـ"كان" وأخواتها، ولا نُصبحُ إلَّا النِّسيَ المَنسي.

كدتُ أنسى ما هو شعور التَّحليق، لحُسن حظي استوليت على المقعد قرب النافذة، كفارس الذي فعلها في المقعد أمامنا وقربهُ حسام. لم يكن صعبًا أن أُقنع أمي بمطلبي. لم تُحدِّثني كثيرًا لاستيائها منِّي بسبب درجاتي في المدرسة، ورغم هذا، بدَتْ أخرى لا أعرفُها. قِسمَت جلست بمفردها بعيدًا، بعد أن صادروا منها أعواد الثِّقاب.

أخرجتُ دفتر ذكرياتي أكتبُ إليهِ أنِّي في السماء، بين السحاب والغيم، أكتبُ إليهِ أنَّني في رحمٍ المفاجأة لا أدري من أينَ أتتْ أمي بكل تلك القوة للمِّ جميع حاجياتنا، بل وأجهزة المنزل والسجاجيد والأغطية ومستلزمات المطبخ وأجهزة التبريد وإرسالها بحرًا ثُمَّ برًّا.

وصلنا مطارَ القاهرة الدولي، لم أستطع كتمَ فرحتي وإخوتي وأكسجين مصر يلحفُنا. شيءٌ غريبٌ هذا الهواءُ المصري، شيءٌ فيهِ يُحاور رئتيك، يحكي لكَ الكثير من القَصص، إذ إنَّهُ ممزوجٌ بعَرق الناس.. وحكاياتهُم المُتعَبة.

ذكرتُ صَمَدًا، فدمعتْ عيناي..

رحتُ أملأُ عينيَّ بشوارعها العتيقة، أعجبُ وتأخذني الحيرة ولا أبالي. إنَّها لعشوائيَّةٍ ممتعةٍ ومُنفرةٍ في آنٍ، تكاد لا تُميز فرحك من سخطك إلى أن يخطفكَ الحشود.

وصلنا إلى بيتِ جدَّتي في الورَّاق، حيثُ تسكنُ في إحدى عمائر "العطَّار" الشهيرة. وكانَ بيتًا قديمًا يُذكِّرني بكعكِ أمي. صعدنا أدوارهُ الثَّلاث وصولًا للشقةِ أقصى الشمال.

وصلنا لتستقبلنا جدَّتي "هانم" التي ما إن رأتني حتَّى تهلَّل وجهها على الرغم من الموت المرسوم بإتقانٍ في تجاعيد عينيْها. أخذتني في أحضانها وراحت تُقبِّلني وخشيتُ أن يُصيبني ريقها كما تفعل دومًا ، لكنَّها لم تفعل!

تقول لنا ضاحكةً:

- صنعتُ لكم الحَمام والمحشي والملوخية والكباب والبانيه..

تبلع ريقهَا:

- "كِشك" وسلطات ما لذَّ منها وما طاب.. أمَّا الحلويات..

تنظرُ إليَّ باسمةً:

- أتذكرينَ يا ريم؟

أجيبها فورًا:

- "آيس كريم" على هيئة دُب؟

تضحك رغم حزنها وتقولُ:

- صغيرتي لا تزال تذكر!!

تنظر لأمي قائلةً:

- لِمَ حجَّبتها؟

لا تُجيب.

وفي اليوم التَّالي تُوقظني الخالة قِسمَت، تفتحُ النَّوافذ استقبالًا ليومٍ جديدٍ. أسمعُ صوتَ منادي "الروبابيكيا" من الخارج مع ازدحام أنفي برائحة الفول والطعمية والبصل القادمة من الصالة. لا أزالُ أفْرُكُ عيني محاولةً استيعاب كوني في القاهرة، في حين وقوف قِسمَت تطالعُ ظلًّا من النافذة، تُخرجُ عودَ الكبريت من جيبها، تعودُ لفعلتها اللعينة، تشُم الدخانَ بعد أن تُطفئ العود كمن تشُم مِسكًا، ثُمَّ تُلقي العود من النَّافذة وقد أسدلتْ الستائر. عاد الرُّعب يُداعبُ أطرافي إلى أن خرجَتْ من الغرفة. فارس وحسام أمي في الخارج ينتظرونَ الإفطار من صنع جدَّتي.

نهضتُ عن السرير وبي حنينٌ لهذا البيت، لجدرانهِ القديمة، لتلكَ الشقوق عليه، لخطِّي السيئ على الحائط حيثُ اسمي بالإنجليزيَّة حين تعلَّمتُ أن أكتُبهُ، لتلكَ الألعاب العجيبة التي حتمًا تنتظرني في مكانٍ ما، السُّلم والثُّعبان، "البلي"، دمية "الأراجوز"، الطائرات الورقية وأوراق "الكوتشينة"، والأتاري وماريو المغامر. ودفعني الفضول لفتح الأدراج واكتشاف ما بداخلها. أشرطة كثيرة لعمرو دياب وأنغام وإيهاب توفيق. في بيت أمي مَن يسمعُ الأغاني!

تقعُ عيناي على كتبٍ صغيرةٍ أفتحها لأجدَ كلمة "نهدين" في وجهي، أُغلقها وأنا لا أعرف معناها، فأقرأ نزار قبَّاني في الغِلاف. ظلَّ يحيِّرني أمر النَّهدين. أتحسَّسُ نهديَّ الآن، أتحسَّسُ فعلَ التغيُّرات الفسيولوجيَّة "والروبرتيَّة"، كم تغيَّرَ نهداي!

وجدتُ ساعاتٍ قديمةً، أقراص إسبرين، وألبوم صور عتيقًا، أفتحهُ لأجد صورًا رماديَّةً لأمي، وفتاةً تُشبهُ قِسمَت في عشرينياتِ قلبها. أُقلِّب بحثًا عن صورتي العارية المعروفة وأنا رضيعة، أجدها، أضحك ببلاهةٍ. تسقط صورةٌ

على الأرض، قِسمَت يُخاصرها رجلٌ أنيقٌ تُطالعهُ بحبٍّ، في حين يُطالع هو المُصور. أضعُ الصورة جانبًا مع الألبوم، وقد عبثَتْ بفضولي وذاكرتي.

ثُمَّ تقترب أناملي من خزانة الملابس، أفتحها على مصراعيْها فتلفحُني رائحةٌ غريبة لدواءٍ ما، رائحة نفَّاذة، أقترب أكثر فأجد على طرف كلِّ رفٍّ حبوبًا بيضاء صغيرة بدت كالحلوى. وعلى طرفِ أناملي وقفتُ لأرى ما في الرَّف العلوي. أقفُ مندهشةً، رفٌّ كاملٌ يحوي مئات العلب من أعواد الثِّقاب، مرصوصةً بإتقانٍ وعنايةٍ، أشعرُ بلسعةٍ في ظهري، أهربُ لأمي.

تستقبلني جدَّتي مُعاتبةً:

- أهلًا بمن تُحب السهر وتستيقظ متأخرًا.. أتدرين ما الذي يحدث لمن ينامونَ متأخرًا؟

يجيبها وجهي بأنَّني لا أريد أن أعرف، ومع هذا تُجيب:

- تزورهم المرأة ذات الرِّجل المُنسلخة!

تضحك.. ويضحك إخوتي، فيقول فارس:

- ريم لديها رِجلٌ مُنسلخة كذلك..

فتحكي لهم أمي أمر الزيت الذي أحرقني، أنكمشُ على الكرسي في انتظار أن آكُل.

أعلمُ من أمي لاحقًا أنَّنا سنبقى لفترةٍ ليست بطويلةٍ في بيت جدَّتي، ثُمَّ نعود بيتنا في مدينة نصر، برفقة الخالة قِسمَت. جزعتُ للفكرة. لكنَّ النور في وجه أمي لقربها من أهلها.. أسكتني.

***

٢٥

وكعادتي.. أحرصُ على نظافة المكتبة ووجود كل الكتب في أماكنها بانتظامٍ، أقفُ عند الأدب الجنسي قليلًا، أجدهُ سلعةً تجاريةً لا أكثر، لو كانت المكتبة مكتبتي لما طلبتُها تلك الكتب.

- سمعتُ أنَّ Fifty Shades of Gray سيصبح فيلمًا..

وسيمٌ غريبٌ يسألني وأنا أحمل الكتاب في يدي، أجبتهُ باسمةً:

- لقد صدر بالفعل منذ فترةٍ، وهم بصدد تصوير الجزء الثاني لباقي السِّلسلة.

يضرب رأسهُ بيده برقَّةٍ قائلًا:

- لستُ من مُحبي الأفلام فلا أدري ما آخر أخبارها، الروايات الأقرب لقلبي، وبوسعي بخيالي أن أكون الممثل والمخرج والمشهد والمكان والزمان في آن، أليسَ كذلك؟

أضحكُ قائلةً:

- بوسعكَ بالطبع..

أصمُت قليلًا قبل أن أقول:

- كيف بإمكاني مساعدتك سيدي؟ أتبحثُ عن كتابٍ مُعين؟

- بالطبع فلا أفضلَ منك يُساعدني اليوم، بالمناسبة أحسدكِ على عملك في المكتبة، تستطيعين القراءة هنا ما شئتِ، والحصول على خصوماتٍ وعروضٍ رائعةٍ.

- ليسَ الأمرُ كما تظن، كما أن الكتب تأتيني عن طريق صديق مقرَّب

وليس من هذهِ المكتبة..

- أريدُ روايةً عن فتاةٍ عربيَّةٍ..

للحظاتٍ ألجمني، لم يكن طلبهُ عندي، حتَّى في الأدب المُترجم من العربيَّة..

- مممممم.. إن تركتَ لي اسمك ورقم هاتفك، سأتواصل معك حين أتمكن من الحصول على رواياتٍ شبيهةٍ لما طلبت، هل من كاتب مُفضَّل لديك؟

- لا.. أنا أثقُ في ذوقكِ يا بائعة الكتب..

أصمتُ قليلًا قبل أن أقولَ باسمةً:

- تُذكِّرني بفيلم You have got mail

- ولأنَّكِ ذكَّرتني به، دعوتكِ ببائعة الكتب..

أخرجَ ورقةً من حقيبةٍ صغيرةٍ يحملها، راحَ يُدوِّنُ شيئًا عليها وهو يقول:

- لم تسأليني، لِمَ "عربيَّة" بالذات؟

- خشيتُ أن أتدخَّل فيما لا يعنيني..

- بربِّك، اسألي ما شئتِ فالعربُ يحبُّون التدخل فيما لا يعنِيهم..

يُحاول إفحامي، قلتُ:

- من أيِّ البلاد أنت؟

- أتخشينَ التَّحدُّث بالعربيَّة؟

- لم أتحدث بها منذ سنوات.

- لِمَ؟

- لُغتي أصبحت موجعةً.

- لا ترمي بأوجاعك على اللغة ما دمتِ اعتزلتها، عودي لها، لتسمع أوجاعَك وتسمعين أوجاعها..

يتحدثُ عن اللغة العربية بلغةٍ إنجليزيَّةٍ ممتازةٍ، إلى أن قال:

" أنا البحر في أحشائهِ الدُّرُّ كامنٌ * فهل ساءلوا الغوَّاصَ عن صدفاتي"

وددتُ لو أخبرتُه أن يتلو عليَّ الشعرَ كلَّه.. أنا التي تكرهُ العرب في أمريكا ولا تتمنَّى قربهم، أحببتُ قُربَهُ الغريب هذا..

- سعيدةٌ بلقاءكِ آنسة....

- ريمونا..

ينظرُ إليَّ ضاحكًا، يقول:

- أستطيع رؤية أنفكِ يطول كبينوكيّو، لكنَّكِ كاذبةٌ لطيفةٌ يا ريمونا.

- أنا لم أكذب، سألتني عن اسمي، ولم تسألني عن اسمي الحقيقي.

- إذن ما اسمكِ الحقيقي؟

- لا شأنَ لك، وإن تكرَّمتَ دع اسمك ورقم هاتفك عند "الكاشيير" لآتيكَ بطلبك إن أحببتَ.

أجابني بابتسامةٍ عامرةٍ بالفرح، وتقبَّلَ انزعاجي برحابة صدر، وانصرف.

***

٢٦

- كان اليومُ مُهلكًا في المكتبة يا روبرت..

ألقيتُها مساءً وأنا أتكوَّم بقربهِ، لروبرت رائحة الليمون بالنِّعناع، يدري كم أُحبُّ عطره، فلا يضع سواه. وحين تصلُ زجاجةُ عطرهِ للنِّصف، يشتري أخرى. كما أنَّهُ اشترى لي واحدةً. أخبرني أن أرُشَّ رشَّةً كلَّما اشتقتهُ. والحقُّ أنَّهُ لم يُعطني فرصةً لاشتياقه، كالوريدِ هو، يُريد أن يكون!

- اتركي العمل إذن!

- روبرت!!

- ماذا؟

- نسيتُ أن أُخبرك، صادفني اليوم عربيٌّ في المكتبة، وعلى ما يبدو يدري بعروبتي وباسمي الحقيقي.

يرفعُ روب حاجبًا، وهو يقضمُ التفاحة:

- أحقًّا؟ وما الذي يريدهُ السيِّد العربي؟

لوهلةٍ شعرتُه يغارُ، فما استطعتُ إلَّا أن أقول:

- أحقًّا تغارُ يا روبرت؟

- لا.. روبرت لا يغار.

آه، يزعجني حين يتحدَّث بصيغة الغائب عن نفسه، ومع هذا لا أُصرِّح له بذلك أبدًا. قلت:

- لا أدري مَن هو، لكنَّهُ مُستفزٌّ وواثقٌ، أتظنُّهُ مصريًّا؟

- مممممم حتمًا لم تُحادثيهِ بالعربيَّة؟

- تدري بأنِّي لم أفعل..

- لم يقل ما اسمه؟ مَن يكون؟ أي شيء؟

- لا لم يفعل.. لكنُّه بالتَّأكيد يعرف كل تلك المعلومات من صفحتي على الفيس بوك.

- لكن اسمك على الفيس بوك ريمونا!!

- ممم.. لكن ريم موجود كذلك كاسمٍ ثان.

- أهاااا صحيح، اسمك ريمونا ويليمز وقرب الاسم ريم بين الأقواس.. لكنَّ احتماليَّة ذلك ضعيفة!

أجبتُ وقد أصابني التَّردد:

- صحيح..

صمتٌ قليلٌ، ثُمَّ صِحتُ:

- كدتُ أنسى!!

وهرعتُ إلى معطفي لآخذ الورقة التي تركها لي عند "الكاشيير" والتي بدت أكبرَ مما أتذكَّر..

"أحيانًا أشتاقُ للعربيَّات فأبحثُ عنَّهن.. أنا ابنُ الغربةِ دومًا، لا تُعجبُني سوى العربيَّة، لا تُغريني سوى العربيَّة.. لأنَّها بطعم البُن والقمح، لأنَّها من نسلِ بلقيس، لأنَّها تُذكِّرني بكعكِ أمي، تُذكِّرُني بالنِّيل والشمس، الشمس التي لا أعترفُ بها إلَّا حين تسطع في سماء بلادي، أنا ابنُ النِّيلِ دومًا.. جَزمًا.. لا تُعجبُني سوى العربيَّة، لأنَّ الله حينَ كوَّنها وصوَّرها، ألقى الصَّبرَ في جيناتها، كما ألقى الوجع. لا مثيل للعربيَّات برائحة الشرق كرائحتك، بشَعرِكِ الأجمل من الليل، بل أجمل من حكايا السِّندباد، أتدرين لو أنَّكِ الشهرزاد، لأفنى الشهريار عمره لا في سماع حكايا تقُصُّها شفتاك، بل

لشفتيك فقط. العربيَّة لها شفاهُ التُّوت، فما أجملَ التُّوتَ في وجهكِ هذا المساء، سلامي لعينيكِ بكُحلها الأسود، سلامي لكُحلِ عينيكِ اللتيْن من مذهب الرِّيم، كحلكِ أصابني في مقتلٍ..

مَن..

لا، تعذَّبي قليلًا يا فتاة التُّوت"

عُدتُ بجوار روبرت، ما أزال مذهولةً، بيدي الورقة، أُمسِكُها كالبلهاء، يسألني روبرت عمَّا حلَّ بي، فلا أدري ما حلَّ بي، يسألني عن محتوى الورقة، فأقرأها من البداية انتهاءً بالتُّوت، ينظرُ إليَّ مُتعجِّبًا، وقد أدركَ كلانا أنِّي تحدَّثتُ بالعربيَّة، قال روبرت إنَّهُ على الرَّغم من كونهِ لم يفهم حرفًا مما قلت، إلَّا أنَّ قشعريرة النَّص عرفت طريقها إلى جسده، بل لجسديْنا معًا يا روب. نمتُ تلك الليلة بجواره، لم يزرني النوم حقًّا، أرهقتني الرسالةُ كثيرًا، نهضتُ مرارًا لأقرأها ثُمَّ أعودُ مُتسللة قربَ روب، روب الذي قال لي قبلَ تقلُّبهِ للجهة الأخرى من السرير:

- هاتي الورقة وضعيها قربكِ بحقِّ السماء، كفاكِ تَسلُّلًا كالقطط..

ضحكتُ وأنا أركض لإحضارها، لأقرأها على ضوء الغرفة الخافت على السرير. أتدري يا روبرت أنَّني خُنتُكَ مع الرسالة؟ على سريرنا؟ أتدري أن قلبي دقَّ تلك الليلة؟ أتدري أن سكرة البدايات أصابتني من ذاك الغريب؟ ذاك الغريب الذي جعل للحياة ألوانًا أخرى غيرَ التي عرفناها.

***

٢٧

لم تُشعل الرسالة تلك الحبَّ في قلبي فقط، بل أشعلت فيَّ عروبتي، ومصريَّتي.. وبقاياي الإسلاميَّة. أشعلتْ حنينًا مُضرَّجًا بخيبتي. لم يكن سهلًا على روب فهمُ ذلك، وجدتهُ مُنهمكًا في عشقهِ لجسدي، بتنفيذ الوضعيَّات الجنسيَّة جميعها عليَّ. وجدتُه يقرأ مقالًا بعنوان: ٢٤٥ وضعيَّة جنسيَّة. وأسفل العنوان، عنوان فرعي آخر: لا تكُن تقليديًّا، جرِّبها مع شريكك كلَّها. يا حبيبي!!

وجدتُني أُمارسُ الجِنسَ بجسدي فقط، تُنتَهك عُذريتي وأفقدُها لآلاف المرَّات، لا يشعر هو بذلك مَن يعتليني دومًا، فقط أنا مَن تشعرُ بها تُفَضُّ كأوَّل مرَّة بمُباركةٍ من الخطايا، أشعر كذلك بروحي العذراء تلومني إسرافي ببيع الجسد. لم يدرِ بذلك مَن يعتليني أيضًا ولن يدري.

ولا أدري ما الذي دفعني لإنشاء حسابٍ على تطبيق الـ Ask، لأسألَ أخي فارس سؤالًا عن أختهِ الكبرى دون أن أكشف عن هويَّتي.. بقيتُ قُربَ الهاتف كمن تنتظر الفرج أو الفجيعة، أعودُ بذاكرتي لأعوامي الأولى قرب ظلال إخوتي، أتحسَّسُ الماضي كامرأةٍ عجوزٍ فقدت بصرها. امرأة مثلي مُرهقة كفاية لتنتظر الفرح، بل لتنتظر أي شيء. ومع هذا دفعتني ريم الصغيرة بداخلي، أن أبحثَ في قلب أخي.. عنِّي..

"لا أختَ لنا سوى تولين"..

تصريحٌ أقسى من الحجر، لكنَّنا دومًا نبلعُ الصُّخورَ المقذوفة نحونا ممَّن نحب، بل إنَّهم لو رمونا بالنِّعال، لتلقَّفناها وأعدناها تحتَ أقدامهم إكرامًا

لهم.. دخلتُ لصفحتهِ على الفيس بوك لأجدهُ يعلنَ عن خطبتهِ لإحدى الجميلات. أمضَى بي العمر حقًّا يا فارس؟ أمضى بنا لأجدكَ تقتربُ من عش الزوجيَّة؟ كيف هذا وبالأمس كنَّا معًا نلعب بحضرةِ سبيس تون؟ كيفَ لم تُخبرني لأحضرَ لكَ أبطال الديجتال وريمي والقنَّاص وآش وبيكاتشو لنحتفل معًا؟ وهيَّا ادعُ حسام لنهزأ من سينه وزايه العوجاء.. هيَّا ادعُهُ وتعال لنلعب في مجلس البيت. أتريد أن نلعب الغميضة أم لنتسلَّق وسائد الآرائك؟ أعدكَ أنِّي سأخسر في كل الألعاب لتكون أنتَ وحسام الفائزيْن. أعدكَ بأنِّي لن أغش ولن أبذل أيَّ جهدٍ سوى في الخسارة. أعدكَ بأنَّنا سنضحك بصوتٍ مرتفعٍ حتَّى تركض أمي وراءنا بحبلِ الغسيل. أعدكَ بأن أُعطيك جهاز التحكُّم بالتِّلفاز وقتما تشاء، وأن أمسح قناة Mbc2 كي لا يغضب أبونا ويُخبرني أنَّه سيطردني من البيت، لكنَّهُ لو فعل.. فإنِّي آمنةٌ مُطمئنةٌ لأنَّكَ قادمٌ معي. جميلة خطيبتك، جميلة كقلبك. يا تُرى، هل سأحضُر الزِّفاف؟ هل سأراك بالحُلَّة السوداء تُخاصرها وترقصُ معها في منتصف القاعة، وتهمس في أُذنيْها كلامًا ستنسيانهُ لاحقًا وأنتما تشاهدان الصور؟ هل لي برقصةٍ كذلك؟ سأرتدي لكَ فستانًا جميلًا، ستُخبرني بأنِّي جميلة.. ولا بأسَ إن شاكستني وضربتني على عُنقي من الخلف كما تفعل دومًا، سأركضُ وراءكَ ضاحكةً، فأخبِر عروسك ألَّا تغار أبدًا منِّي، أخبرها أنِّي كنتُ أُمًّا لك كذلك وأنَّ ما بيننا عظيم. أتدري يا أخي أنَّني في كُلِّ عيد ميلادٍ أُحضر لكم الهدايا؟.. كيف تراها ألعاب الـ Playstation من دوني؟ أما زلتَ تلعبُ بالقزم راي مايستيريو؟ لم أعُد أُحبُّ جون سينا.. لقد تغيَّرتُ منذُ آخرَ لقاءٍ بيننا ولا بُدَّ أنَّك كذلك تغيَّرت. عندي لكم الكثير من الحكايا.. أعملُ في واحدةٍ من أكبر مكتبات نيويورك.. عندي كلب هاسكي بعينيْن زرقاويْن

وإنِّي سمَّيتُه رعد. لا أظن أنَّ أمي ستسمح لك باقتناء واحدٍ.. لكنَّها طيِّبة.. فتعال نتحايل عليها نحن الثَّلاثة.. آخ نسيتُ أن أبي يكرهُ الكلاب لأنَّها نجسة وتُنقضُ الوضوء. لا عليكما.. سنبني للكلبِ بيتًا في السطح. لكل مشكلةٍ حلٌّ عندي. فافتح لي الباب أو اُترُكهُ مواربًا. سآتي بجميعِ حقائبي إليكم، سأقطفَ من عمري زهورًا لأرميها تحتَ أرجلكم، لو فقط تتركونَ لي الباب مواربًا.. فما بيننا عظيم.

أجدني أهرع إلى التَّعليقات باكيةً، أشعرُ بالحنين أكثر، أمي تعلِّق بزغاريد وقلوب ووجوهٍ ضاحكة، أمي على الفيس بوك؟! كيف علَّموها "الفسبكة"؟. أخي حثام يعلِّق بالإنجليزي المُعرَّب، أو "الفرانكو" باللغة الدارجة، يبدو جذابًا وأشد وقارًا بلحيةٍ مهذَّبةٍ. وأبي يدعو لهم بالصلاح والهناء، أبي الذي اشتعلت في رأسه ذاتُ الشيبة المشتعلة في قلبي.

بكيتهم وكأنَّهم أمواتٌ، فأنا.. توصَّلتُ لحقيقةٍ واحدةٍ، هي أنَّ البُعدَ جزءٌ من الموت، أمَّا الموت فهو بعدٌ نهائي والبُعدُ موتٌ مُتقطِّع يحرمك من مشاهدة أحبابك كلَّما اشتاقتهم نفسك، وحنَّت إليهم روحك. فيا نفسي يا خاوية، أخبري روحي أن تحفظَ لي ذكراهم. الذكرى هي كل ما نملك. الذكرى هي ما تتبقى لنا في جيوبنا، نحنُ مُفلِسون إلَّا منها. الذكرى تحرقُ ما تبقَّى منَّا، تحرقُ الأخضرَ فينا، تجعلنا بنكهة الخريف، كأوراق الشجر حين تصبح صفراءَ عجوزًا فتتخلَّص منها الغصونُ وترميها أرضًا، وليتها حين تُرمى أرضًا تمُت بسلام، بل تأتي الريح تتقاذفها بجبروتٍ، حتَّى تهترئ تمامًا، كصورةٍ قديمةٍ لنا.. صورة لن نكونها مجددًا.

***

٢٨

مدرسةٌ جديدةٌ، حكايا جديدة، طلابٌ تلحقني أعينهم، "ريم" الطالبة الجديدة، القادمة من الخليج. بدا لقبًا مُسلِّيًا وقد قفزتُ للفصلِ الأوَّل الإعدادي، حيث لم يكن هنالكَ ما يُسمَّى بالفصل السادس الابتدائي في مصر آنذاك.

آخرًا كنتُ أجلس بجواري لا أحد. قميصٌ أبيض، تنُّورة كحلية اللون، ضفائرُ مستورة بحجاب. ويحي.. أنظرُ أقصى اليمين، أجدُ فتاةً ترتدي الحجابَ مثلي، تفرحُ لها روحي، يأنسُ لها قلبي. لكنِّي لا أحادثها.

حصة رياضيات لعينة، تمرُّ برأسي المعلِّمة روضة، أنفضُ ذكراها سريعًا وأنا أُحدِّقُ بالمستر حسن، أستاذ الرياضيات الجديد. أتراكَ حسنًا يا حسن؟ تسألهُ عيناي ولا يُجيب.

نفتحُ الكراريس في انتظار أن ننقُلَ الدرس. حساب المثلثات؟ يا ويلي!!

يكتبُ سريعًا، ويمسحُ سريعًا فلا أنقُل كامل الدَّرس. ألمحُ بطرفِ عيني الفتاة المحجبة يميني تنهضُ عن مقعدها لتجلسَ إلى جواري، طويلة جدًّا هي:

- قومي بالنَّقل مني!

أنظرُ إلى لُطفها مندهشةً، لم تنظر إليَّ، كانت تنظرُ إلى اللوح وتنقل الدرس سريعًا قبل أن يمحوه حسن. ورحتُ أنقلُ من دفترها. خطُّها كبيرٌ جدًّا مقارنةً بخطِّي "النملة". أشعرُ بالحبِّ نحوها. وإذا بها تنقلُ حاجياتها قربي، تقول:

- اسمي آلاء.

ينتهي الدَّرس.

تدخلُ معلمةٌ أخرى، نادوها بصابرين، معلِّمة التاريخ والجغرافيا، نحيلةٌ حدَّ الفزع، كان لها صدرٌ ضامرٌ كصدري.. صوتها حادٌّ كديكٍ لا يملُّ الصياح. لها فك أسنان علوي وسفلي به فراغٌ واضحٌ من المنتصف، بشرةٌ مليئةٌ بالبثور، عينان مُرعبتان.

ينتهي الدَّرس.

معلِّمٌ آخر، مستر كرم.. كرم علوم، هذا لقبُه. حصة لا تُذكر..

ينتهي الدَّرس. وتبدأ "الفسحة".. ومرَّ بفؤادي صَمَد، والأرجوحة، فينحصرُ الدمع في عيني، فأشعرُ به منحصرًا في حُنجرتي كالصَّخر.

وفي طريق خروجي من الفصل، تُمسكُني آلاء من يدي وتقودني خارجًا. بدا أمرًا عجيبًا أتعرَّفُ إليه للمرَّة الأولى.. أن تُصاحبني فتاة، خجلتُ منها ولم أدرِ ما التَّصرف سوى ألَّا أتصرَّف وأنساب كَمجرى النَّهر.

تسألني:

- كم عمرك؟

- أتممتُ الحادية عشرة.

- أكبرُ منكِ بعامٍ أنا.

تضحك، ثُمَّ تقول:

- هيَّا أخبريني، متى أتتكِ الدَّورة الشهرية؟

لم أفهم ما قالت:

- دورة؟ شهرية؟ ماذا تقصدين؟!

وإذا بها تقفُ وتسحب يدها عن يدي، وتقول:

- كيف لا تعرفين ماذا يعنِيهِ ذلك؟ لِمَ أنتِ مُحجبةٌ إذن؟
لحظاتٌ أُفكِّر في إجابةٍ قبل أن أقول:
- لكي يُحبُّني الله..
أجابتني سريعًا:
- الله يُحبُّك في جميع حالاتك..
صمتُّ مطوَّلًا.. لو يُحبُّني الله في جميعِ حالاتي، لِمَ أُغطِّي ضفائري الآن؟
سحبتني من يدي مجددًا وراحت تقولُ كمن تُفشي سرًّا:
- حينَ تكبُر الفتيات، يتعرَّضنَ لأمرٍ ما، مرَّةً في الشهر!
نعم أريدُ أن أكبر، فسألتُها بحذرٍ:
- ما الذي يتعرَّضنَ له؟
فراحت تتلفَّت يُمنةً ويُسرة، ثُمَّ همستْ الإجابة في أُذني فاقشعرَّ جسدي وأُصبتُ بالاشمئزاز، ولم أتناول فطوري. صدمة أكبر من سنين عمري.
مرَّت دقائقُ صامتةٌ قبل أن أسمعَ شجارًا بين الطلاب في الساحة، مددتُ رأسي.. أخي فارس يضربُه فتى، وحسام يبكي.
صحتُ بأعلى صوتي ولم أشعر بنفسي إلَّا وأنا أقفزُ على ذاك الفتى، أتعلَّق بظهرِهِ وألكمهُ في رأسِهِ وأعضُّهُ من أذنهِ. لا تَقرَب ابني يا كلب. يرميني على الرِّمال، يركلها فتدخلُ الرِّمال أنفي وعيني وفمي. يهرعُ إليَّ إخوتي يحملونني، أنظر لوجه فارس، أجدهُ مُنتفخًا من الضرب. أُقهَر. أصيحُ مجددًا قبل أن أنقضَّ على ذاك المجرم الذي يلكمني في بطني. أسقطُ أرضًا وقد فقدتُ القدرة على التَّنفس تمامًا، تهرعُ إليَّ الطويلة آلاء قبلَ أن تُمسكَ بحفنةِ رملٍ وتلقيها في وجهه ثُمَّ تركلُهُ بين فخذيْهِ، فيموت.. لا.. لم يمُت فعليًّا، ولكن ليتَهُ مات.

عادت أنفاسي إليَّ تدريجيًّا، يحضنني فارس، يُقبِّل رأسي، ثُمَّ يهمس في أُذني:

- أختي الكبيرة...

بكيتُ لشدَّ ما أُحبُّهُ. عدنا إلى البيت بالحافلة المدرسية. تستقبلنا أمي بلطمةٍ في الصدر. نحكي لها، تُقهر تفاصيل وجهها، تتوعد أن تذهب في الغد لتوبيخ ذلك الفتى وشكيهِ للإدارة المدرسيَّة.

يُخرجنا حسام مما أصابنا ضاحكًا:

- لو رأيتُم ما فعلتْ ريم، قامت بعضِّ أُذنهِ بأثنانها..

لا يضحكُ أحدٌ سوى قِسمَت:

- هه!

ضحكة مُقاسة، لجزء من الثانية، ثُمَّ يعودُ وجهُها قارصًا. لحظات تدخل غرفتها، ثُمَّ تعودُ بجهاز الأتاري، نقفزُ حولها في حين استياء أمي أنَّنا سنلعب قبل أن نتاول الغداء.

ومضَتْ بي الحياة، لم أجرؤ أن أسألَ أمي ما تعنيهِ الدورة الشهرية. وها أنا ذي أُفاجأ ذات صباح بقطرات دمٍ تخرجُ من أسفلي. شهقتُ من الصدمة، لم أشعر بأطرافي. وفررتُ لأمي عن استحياء أُخبرها بما أصابني، أمي استقبلت الخبر بحذرٍ، ثُمَّ همستْ به لقِسمَت وجدَّتي. تقول جدَّتي في ذات الثانية التي ينضم إلينا أخي فارس:

- سيكبُر صدرك وأشتري لكِ حمَّالات صدر.

ينظرُ إليَّ فارسٌ، ينفجر ضحكًا ويركضُ للغرفةِ المجاورة. أنتظر من الأرض أن تنشقَّ وتبلعني لكنَّها لا تفعل. ارتباك أنثوي أوَّل، ألمٌ قاتلٌ أسفلَ معدتي يجعلني لا أقدرُ على الحراك.. و.. شيءٌ تعيسٌ تُجبرني أمي على ارتدائه إلى

أن ينتهي الأمر. أسألها:

- كم يمضي من الوقت وأرميها؟

- أسبوع.

أشهقُ باكيةً:

- أسبوع؟ ظننتُ الأمرَ سينتهي بعدَ بضع ساعات..

فانعزلت!

أقفُ الآن أمام أمنيتيْن، أمنيتي في صغري أن أكبُر، وأمنيتي الآن أن أعود صغيرةً بجسدٍ غير مستوٍ.. أضحكُ ساخرةً من أنا الطفلة وأنا المرأة.. أينَ سجائري؟

***

٢٩

دروس التَّقوية اللعينة، وقد عزَمت أمي أن تُغيِّر حظي العاثر مع الرياضيات. ساعتان لثلاثة أيام أسبوعيًّا مع الأبلة لُبنى. السمراء الفاتنة التي شاكسَ شَعرُها خصرَها. أذكرُ أنَّها لم تكن سوى خلطتي السحرية لمادة الرياضيات، أحيانًا كانت تضربني بالمسطرة على ذراعي كي أتنبَّه، كي أحارب عالم الأرقام والمثلثات، كي أقهر عجزي.

- علِّميني كيف أحُل مسائل القِسمة!

نظرت إليَّ وقد رفعتْ حاجبًا قائلة:

- قِسمة؟ لستِ في الابتدائية.

- علِّميني!

- وإن كان رأسُكِ غبيًّا.

- هاكِ المسطرة.. اضربيني!

لربَّما لاحظت إصراري وعنفي، لكنِّي لا أظنُّها لمحتْ تلكَ الدموع في عيني. تشرح لي، تُعطيني أمثلة، تمُدُّني بأوَّل مسألةٍ كي أحُلُّها، أذكرُ روضة، قسوة روضة، أذكرُ بثينة والفتيات، أذكرُ عجزَ سنواتٍ. أحلُّ المسألة، ولا يقوى عقلي على التَّصديق.

أنظرُ لها بفخرٍ:

- بفضلكِ هذهِ أوَّل مسألة قسمة أحلُّها في حياتي..

تنظرُ لي بحبٍّ، تقول:

- وبهذهِ المناسبة، وبمناسبة انتهاء الدَّرس، تعالي أشتري لكِ المثلَّجات من

البقالية المجاورة.

أطيرُ لأمي أستأذنها أن أذهبَ برفقة معلمتي، توافق لأن المدرِّسة أحرجتها. أذهبُ برفقتها.. وقد تعلَّمت ما هو النجاح، لكنَّهُ لم يكن الدَّرس الأول لذلك اليوم.

كنَّا نسيرُ في الشارع، تُلاحق جمالها العيون، وعبارات الغزل، وهي تسيرُ بدلالٍ وعيناها تدريان أنَّها سرقت الأنظار، تبتسمُ بمكرٍ، تتجاهلُ مَن تُريد، تُشاكس مَن تُريد، أنثى قوية، حالمة، جميلة، جريئة. فرحتُ لها سرًّا، إلى أن سخرَ منِّي أحدُ الشباب، مقارنةً بها. كان من السهل أن أتظاهر أنَّني لم أسمع شيئًا، لكنَّ العاصفة بداخلي كانت أكبر، عاصفة ناريَّة لا تحرقُ سوى قلبي.

عدتُ البيت كالشبح، يُخبرني حسام أن أذهبَ إلى الشرفة لأن أمي في السطح تحرِّك الأسلاك الموصلة بالتِّلفاز لكي يعمل. فتحتُ باب الشرفة، نظرت لأعلى، حسام في الغرفة المجاورة، فارس أمام التِّلفاز. تصيحُ أمي:

- هاااا.. أعادت القنوات؟

أسألُ حسام الذي يسألُ فارس الذي يُجيب حسام:

- لا لم تأتِ بعد.

يُخبرني بذلك حسام، أصيح كي تسمعني أمي:

- لاااااااااا

تُجيبُ أمي:

- والآن؟

ثلاث، أو أربع محاولات، ويعملُ التِّلفاز. حلقة أخرى من يوميات ونيس، نجتمعُ حولها. لكنَّني لم أكن حقًّا معهُم، كنتُ أفكرُ بالشاب الوسيم الذي

سخر مني، أُفكر بالجمال الذي طالَ غيابه.

يأتي الصباح، تهوِّن عليَّ صديقتي آلاء برسالةٍ جميلةٍ وضَعتْها في دفتري:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

صديقتي العزيزة ريم،

أتمنى لكِ حياةً سعيدةً في ظلِّ والديكِ الكريميْن..

أكتبُ لكِ بالرصاص علامة الحب والإخلاص..

أكتبُ لكِ بالأخضر علامة الحب الأكبر.

أكتبُ لكِ بالمقلوب علامة الحب بالقلوب.

A+R= love for ever

من صديقتك المُخلصةِ آلاء".

***

٣٠

ظلَّ أبي غاضبًا من أمي مطوَّلًا، غاضبًا من أنيابِها التي طالت فجأةً، من آثارها على رجولته، من تلك النَّار في صدرِه ما بينَ حُبِّها والاستياءِ منها. زارنا فجأةً بعدَ غيابٍ، لم تكن في ملابسهِ رائحةُ السفر كما كُلِّ مرَّةٍ. شيءٌ من الخذلانِ ربَّما، والحنين المُنكَسر. تستقبلهُ قِسمَت والجدَّة. تقفُ أمي تُطالعهُ مُندهشةً، أتقتربُ لترمي نفسَها في قلبهِ؟ أم تظلُّ واقفةً والكبرياء بينهما حائلٌ كبحرٍ عظيمٍ بينَ جزيرتين؟!

لحظاتٌ مُربكةٌ، تُشعلُ قِسمَت أعوادها اللعينة، فارس يُراقبُ بحذرٍ، حسام لا يفهم ما يجري.. إلى أن تشتُمنا جدَّتي جميعًا وتُعلِن الصُّلح. يقترب أبي من أمي، يبتسم، تبتسم، يُسلِّم عليها بعينيْهِ فتَرُد ضاحكةً السلام.

وكانَ ذلكَ كفيلًا بأن نشُدَّ الرِّحالَ عائدينَ لبيتنا في مدينة نصر، بيتنا الذي لا ينفكُّ ينتظرُنا لنكبُرَ معهُ وفيه. تنتقلُ معنا قِسمَت. وحينَ أعلنَ الليلُ أحقيَّتَهُ في السماء، صُعِقتُ لقرارِ أمي أن أنامَ بغرفةٍ مُنفصلةٍ عن إخوتي، يبكي حسام قبلي، يتساءل فارس، وحين تساءلَ أبي أيضًا راحت تهمسُ لهُ في أُذنهِ شيئًا.. يتحوَّل وجههُ للون الأحمر، يضحكُ، ينظرُ إليَّ بحبٍّ. لم أجد داعيًا لأطلبَ من الأرضِ أن تنشقَّ وتبلعني، الحقيرة لن تفعل.

ألعنُ حظِّي وقد علمتُ أنَّ قِسمَت ستُشاركني دومًا الغرفة حينَ تمكُث معنا، حينَ دبَّ الرُّعبُ في قلبي وهي تقومُ برصِّ عُلب الكبريت في مكانٍ خَصَّصتهُ أمي لها في خَزانتي. تُرصُّهَا بحُبٍّ كما لو أنَّها أولادها. كنتُ أجبنَ من أن أسألها عمَّا تفعله، فرُحتُ لأمي التي نهرتني ألَّا دخلَ لي، سمعتُ

أبي لاحقًا يُخبرها أنَّ قِسمَت خطرٌ على الأولاد. لا تُجيبُ أمي التي تنظرُ للاشيء بأسفٍ.

نعلمُ لاحقًا أنَّ أبي لن يسافر، وأنَّهُ بصدد بدء مشروع أو اثنين في القاهرة كمصدر رزق، وأنَّنا لا محالة.. عائلة.

وتجمَّعنا حولَ التِّلفاز قبل النَّوم بقليلٍ، في حين انعزال قِسمَت في أحد الأركان، تسمعُ عبد الوهاب من جهاز الراديو، تميلُ برأسها، تُغمضُ عينيْها ويكأنَّها تتناولُ الموسيقى بروحها، وتسرحُ في حنين.

اقتربتُ منها:

- الأغاني حرام..

رمقتني بنظرةٍ شرسةٍ، قالت:

- إلعبي بألعابك أو أكتبي في مذكراتك..

فاجأني أنَّها تعلم بأمر مذكراتي.. وفاجأني عدم ردِّها على ما قلتُ. انصرفتُ عنها وأدرتُ وجهي وأنا أشمُّ دخانَ الكبريت.

وعلى سريرٍ صغيرٍ نمتُ بمفردي، وقِسمَت على فراشٍ أرضيٍّ أسفلي، لم تُرعبني أن تظهرَ لي الأشباح من الخزانة، أو أسفل السرير. ستُرعبُهم قِسمَت، وسيموتونَ جميعًا. رحتُ أطالعُ السقف، ثُمَّ لا أدري ما الذي أوحى لي أن أتحسَّسَ صدري، شعرتُ بانتفاخٍ بسيطٍ وألمٍ خفيفٍ. فرحتُ كثيرًا وأنا أتخيَّلُني بنهديْن جميليْن، أتخيَّلُني أرتدي حمَّالات صدر جذابة، أركضُ فيقفزان معي، أقفُ فتنطقُ استدارتهما: نحنُ هنا! وتظهر تقاسيم الحمَّالات أسفلَ ملابسي كما على الفتيات..

أضحكُ من سذاجتي الآن، قرأتُ منذُ عدَّة أيامٍ قصةً قصيرةً لروبرت:

"عندما دَخلنا غُرفتي لم تُمهلني وقتًا للمُلاطفة أو حتَّى القُبلات الخاطفة،

فكَّت أزرارَ قميصها في سرعة المحترفات ثُمَّ أبانت عن نهديْها، لهما لونُ العاجِ ومُكوَّرانِ كحبتيْ رُمانٍ ناضجتيْن، لم تكُن ترتدي حمالةَ صدرٍ فلما سألتها عن السببِ قالت إنَّها كالقيد الذي يُكبِّلُ صدرها وهي فَراشةٌ وثدياها هما جناحاها، كل مَن ضاجعتهن لم يُخبرنني بذلك، كُنَّ يُزلن حمالاتهن في صمتٍ، لماذا يتجشَّمن الحديث عن شيءٍ ما يعتبرنه قيدًا؟ يبدو أن حُرية التحرر منها لها لذةٌ لا يُردن بعثرتها بالحديث عنها".

***

٣١

السَّادسة صباحًا، لا تزال السماءُ تشعر بالنُّعاس كجميلةٍ على عرشٍ عائمٍ، حتَّى الغيومَ فيها تسبحُ نائمةً، تُزعجها زقزقة العصافير والطيور المحلِّقة، ومع هذا، تسمحُ لها بالتَّحليق فيها، فهم جيران لا يفترقان. أسيرُ مع رعد أسفلَ شقتي، أعطيهِ قسطه من المرح.. سعيدًا بدا يهزُّ ذيله.. وكلاب الهاسكي لها الابتسامة الأجمل.. لكنِّي بحياتي ما رأيتُ أجملَ من ابتسامة رعد. أسيرُ أوزِّع ابتساماتي على البشر، أُمارسُ نقاءً لا يعكس العفن بداخلي. نيويورك رائعة شتاءً، أُحبُّها دومًا في بداية العام. تبدو حزينةً كقلبي. وكان النَّاس يزيلونَ زينة العيد المجيد. لم أُزل الزينة في شقتي وحولها بعد. ابتعتُ شجرةً كبيرةً ذلك العام، زيَّنتُها كاملةً لوحدي.

يوزِّع عليَّ المارةُ ابتساماتهم كذلك، آخُذها جميعَها، عجبتُ لصمودي دون أصدقاء حولي أتَّكئُ عليهم، كنتُ أُفضِّل الغرباء. فلقد علَّمتني الحياة أنَّهُ لا يوجعُنا سوى الأحباب، فسلامٌ على كلِّ غريبٍ.

أُعيدُ رعد للبيت ثُمَّ أتوجَّه للمكتبة، لم أكد أصل حتَّى قَدِمَت إليَّ جوليا تُخبرني أنَّ زائرًا يبحث عنِّي. آه.. إنَّهُ هو، يأتي إليَّ بالورد. باقة صغيرة تُشبه أناقتهُ التي شعرتُني أفتقدها وأملأني بها يوم رأيته. أتى وكأنَّهُ يدري أنَّ طلبهُ عندي، على الرَّغم من أنَّني لم أتَّصل به لأخبرهُ أنِّي جلبتُ لهُ رواياتٍ كثيرةً من مصر، جلبتُ له رواياتٍ من الأدب الجزائري والفلسطيني والمصري والعراقي والكويتي، حرصتُ أن تكونَ جميعُ الأعمال من القمة، وأن تتضمن أحداثُها ليس فقط فتاةً عربيَّةً، بل عربيَّة استثنائيَّة.

سلَّمتُه الطرد بعد أن صافحني، وكانت مُصافحةً عربيَّة لم أذقها في كفِّ أحدٍ. قال:

- كل هذا لي أنا؟

يضحك، فأجبتهُ:

- لا تتحمَّس كثيراً، لأنَّك ستقومُ بتغطية مصاريف الشحن كذلك.

فزادَ من ضحكاتهِ وهو يُخرج حافظة نقوده، نهرتهُ قائلةً:

- ضِف على رسالتكَ الأخيرة، أنَّ العربيَّة هي ينبوعٌ من الكرم والعطاء، بل إنَّها معطاءةٌ خيِّرةٌ، لن تسألك يومًا عن مقابلٍ لحُبِّها وقلبها، سيُغنيها القليل منك، بسمة ربَّما، كلمة طيِّبة، أو ورد كالذي أحضرتَ لي.

أجابني ذاهلًا:

- لكنِّي حقًّا أودُّ شراء هذهِ الروايات من فترةٍ، حتَّى لو لم تكن بابًا سيصلني بك.

- ولماذا تريدُ الوصولَ إليَّ؟

- حبُّكِ يصلِبني، يجعلني مسيحًا..

الغرقُ لا يكون بحرًا فقط، بل في قلبِ عينيْهِ كذلك، لكنَّه الغرقُ الذي يجعلني لا أريد أن ينجدني أحدٌ منه، لن أطلب النجدةَ لو غرقتُ في عينيْه، سيكفيني أن أقضِّي عُمري كلَّهُ "غارقة"، ولو كانت النَّجدة أمرًا لا مفرَّ منه، لن أُمانعَ لو قام هو بإنقاذي، ومدِّي ربَّما.. بقُبلةِ حياة.

أجبتهُ:

- أنتَ تهذي، لا أعرف حتَّى ما اسمك! لربَّما تكون قاتلًا مأجورًا أو سفَّاحًا ما. أتمنى أن تعجبك الروايات. الورود جميلة جدًّا. أشكرك..

- لكنَّكِ نسيتي أن تقولي أنَّ العربيَّة قد تكون جبانةً أحيانًا ولا تستغل

الفرص..

ثُمَّ راح يلُف بحركةٍ دائريَّة مُستعرضًا نفسه. كان لا بدَّ من الضحك، فضحكت، وشعرتُ بالامتنان له وقد جعلني أتحدَّث سهوةً بالعربيَّة، ولكونهِ مصريًّا، قال:

- تعالَيْ نتناول الدُّونات من المحل المجاور!

- لا .. أتبع حمية.

- والعربيَّة كاذبةٌ جدًّا فيما يتعلَّق بالحمية، هي تأكلُ كل شيء وكأنَّ القيامة غدًا. تُخبر صديقاتها أنَّها ستبدأ الحمية الأسبوع القادم، لكنَّ الأسبوع القادم لا يأتي. والجميل أنَّها تكذب على نفسِها بمشروب "بيبسي دايت"، تشربهُ بعد أن تنهي وجبةً كاملةً من ماكدونلدز.. أرأيتِ كذبًا أكثرَ من هذا؟

لم أُجبهُ، بقيت أضحكُ بصوتٍ مرتفع، تنهرني جوليا بعينيْها، ثُمَّ تضحكُ لضحكي. أخذتُ شهيقًا مُناسبًا لأقول:

- موافقة، سأتناول دوناتٍ واحدةً فقط كي لا أفسدَ الحمية، وسأشربُ بعدها مباشرةً "بيبسي دايت".

ورحتُ أضحك مجددًا ، فقال ضاحكًا:

- سأنتظرك في التاسعة.

كان يدري بموعد انتهائي من عملي، أعجبني اقتحامه، وعجبتُ لبعثرة المراهقات تلك بداخلي.

***

٣٢

برفقتهِ كنتُ وبرفقةِ الدُّونات، الدُّونات التي صارت أربع أو ربَّما خمس قطع، لم أقُم حقًّا بالعدِّ، لكنَّها كانت لذيذةً كالجنس، أو ربَّما أجمل من الجنس بقليل. لم أحسب حسابًا لشيء، سوى لهذا العربيِّ الذي دوَّخني. تفاجأ لكوني مدخِّنة، لكنَّه سخر من سجائري الرقيقة، إذ إنِّي لا أُدخِّن سوى Dunhill Slim، أو Vouge Slim. أخبرتُه أنّي أدخّنها لأنّها رفيعة وتناسبني جدًّا، اتهمني بالغرور ضاحكًا، فلم أُصحح المعلومة.

سألتهُ:

- ما اسمك؟

فقال واثقًا:

- اختاري لي اسمًا يُناسبني!

- ألستَ فخورًا باسمك؟!

- فخورٌ بشكلٍ مبالغٍ فيه.. لكنْ يا تُرى، ما الاسم الذي يليقُ بي بعيونِ الريم؟

- أراكَ تُمجِّد بي، أنا تافهة جدًّا..

- تافهة؟!

يصمتُ قليلًا، ثُمَّ يقولُ كمن يحفظ نصًّا بديعًا:

- هي لا تُحب السناب شات.. تكره وجه البطة، فبالتالي تكره "السيلفي". لا يهمُّها من المكياج سوى البساطة. لن تُصيبك بالصُّداع من منشوراتها على الفيس بوك أو تغريداتها على تويتر بكلِّ تفصيلةٍ في حياتها، فالمبالغةُ

الأنثوية قد تكون مملَّةً أحيانًا على السوشيال ميديا. لو مرَّت قطةٌ من أمامها، لن تُحدث جلبةً في الشارع لتلفت النظر بصياحها: يا مامي. هي لا "كراش" لديها تزعجنا به، فبالتالي لن "تكرش" على أحد بتلك السخافة السطحيَّة. هي تُحب القهوة والدّونات لكنَّها لن تقولَ لنا ذلك. تُحب ابتساماتها لكنَّها لن تصوِّرها لنا دومًا، هي جميلةٌ كالروايات التي تقرأها. هي لا تُحب ثرثرة الفتيات، وإن كانت منزعجةً من أمرٍ ما وسألتها: ما بكِ؟ ستُجيبك بسلاسة. لن تقول لك: لا شيء، ثُمَّ تُصيبك لعناتها. هي هشَّة كغزل البنات، وأكثرُ تعقيدًا من بيوت النَّحل.

أعودُ لغرقي إيَّاه، بل إنِّي تلك المرَّة، لم أغرق حقًّا، كنتُ أطفو على الماء يُعانقُ جسدي الشمس، لا أفكر في أي شيءٍ سوى أنِّي لا أريد أن أخرجَ من هذا المأزق الجميل.

سألتهُ مُجددًا عن اسمه قال باسمًا:

- سمِّني ما شئتِ يا ريم، أليكس، محمد، سمير، جاك، يوحنَّا..

يصمتُ قليلًا ويقول:

- سنفور.. أي شيء أي شيء..

أضحك قليلاً، ثُمَّ أقول:

- أليس ظلمًا أن تعرف اسمي وتفاصيل حياتي، ولا أعرفُ حتَّى ما اسمك؟

- لا عزيزتي، ليس ظلمًا، الظلم هو أن تعرفي كل شيء عنِّي فتملِّيني، هو أن أخرج من سماء الاستثنائي إلى أرض العادي أو التَّقليدي، شتانَ الفرق، فلا تظلميني بسؤالك.

- هذا يعني أنَّك ستظل مجهولًا إلى الأبد..

- أتدرينَ ما الأجمل من الأبدية؟

- لا..

- السرمديَّة، كحبُّكِ السَّرمدي بداخلي.

- أخَرَجتَ لي من الرواياتِ التي تقرأها؟ تبًّا لك!

- أنا من أجمل أحلامك..

- في حياتي رجلٌ ما يا.. يا الله ما هو اسمك؟

- أدري أنَّ هنالك رجلًا في حياتك، لكنَّ قلبكِ لا رجلَ فيه، لا يزال أعزب كحالي.

- وكيف لك أن تُحب متورِّطةً مثلي؟

- لأنَّك أجمل ورطة، كما أنِّي أُحبُّ الوقوعَ فيكِ يا ورطة..

- مجنون، وأنا واقعيةٌ، لن نتقابلَ، فأقصِر الطرقَ وليكن هذا فراقًا بيني وبينك..

- لنجرب إذن أن نفترق.. I break up with you

- تنفصلُ عنِّي؟ أمجنونٌ أنت؟ على أيِّ أساسٍ يا هذا؟

يضحكُ وهو يأكلُ الدُّونات الأخير خاصَّتي، أخطفها منه وقد أخذَ قضمةً كبيرةً. أتوجَّهُ خارجًا وأنا أرتدي معطفي وأتناول باقي الدُّونات بقضمةٍ واحدةٍ. يلحقني ضاحكًا، أسمع ضحكاتهِ من خلفي، أبتسمُ ولا أُظهر له ذلك. أسمعهُ يقول:

- ياسر.. اسمي ياسر.

وكم وقعتُ في غرام هذا الاسم..

يُمسكني من ذراعي قائلًا:

- ريم .. تحرَّري، عودي ريم!

- وما أدراكَ بي قبل العودة؟ وما يهمُّك من أمر عودتي؟! أتريد الجنس؟

هاكَ الفتيات على قوارع الطريق مارسْهُ ما شئتَ معهُنَّ. طلبُك ليس عندي إن كنتَ تبحثُ عن الجنس مع عربيَّة يا مَن لا تُعجبكَ سوى العربيَّة.

تغيَّر وجهُه، انكمشَ في نفورٍ لما سَمِع، وكم وددتُ لو آخذهُ بينَ ذراعيَّ لأخبرهُ أنِّي لم أقصد. تركني دون أن ينبسَ بحرفٍ، رأيتهُ يسيرُ عنِّي، يأخذُ معهُ آخرَ ضحكةٍ أضحكها وآخر فرحةٍ ملأت فؤادي المُهشَّم. نعم، لقد هجرني تلك الليلة وتحققت أمنيتهُ الحمقاء، وبمرارةٍ تجرعتُكَ يا فراق رغم كل جوارحي. لم أهنأ بمناداتهِ باسمهِ الذي عرفتُه للتَّو!!

"ياسر"

عدتُ لمحل الدُّونات بحثًا عن عطرهِ على المقعد، شعرتُ بالفقد، أشياء كثيرة سريعة لم أفهمها.. أخذتُ المنديل تحتَ صحن الدُّونات، وكتبتُ خاطرةً الأولى، عن فراقه، ولا أدري لِمَ يا حبيبي الغريب، كتبتُنا كثنائي عربي، يتشاجرُ، ويتخاصمُ، لِمَ كتبتُكَ كأنِّي أعرفكَ معرفةً سرمديَّةً؟ وكأنِّي أشتاقُ الحب والمعارك العشقِية؟ كتبتُك ظالمًا لي.. كتبتُ لكَ نصًّا أجمل منك ومنِّي:

"وكان فرَاقُكَ..

مُكدَّسًا في قلبي..

فلم أشعر بهِ سوى سلَّةٍ

لمـُهمـلاتـكَ..

تُلقي فيهِ ما شئتَ من الوجع

والوحشة والكبرياء..

تُلقي فيهِ غضبَك،

ولا تُبالي..

وكان لزامًا أن أصمُد..

أن أكونَ شامخةً شموخَ
الهِـيـمــالايــا..
أن أكونَ صبورةً كرجالِ التِّبت..
وأُمًّا طيِّبةً كتيريزا..
لي قلبُ اليسوع،
وجمالُ الفراشات..
حتَّى ضعتُ بينَ هذا وذاك
واحترقتْ أجنحتي....
ظننتُني حوريةً في بحارك،
لكنَّني غرقتُ منكَ فيك،
وفيكَ منك،
ظننتُني طفلةً في حدائقكَ الكثيرة..
ومواطنكَ الكثيرة..
لكنَّني تعثَّرتُ منكَ لك..
لأدركَ قِصَرَ قامةَ أحلامي.
قرب أمانيك الشاهقة..
التي لم تُدركها.. طفولتي! "

***

٣٣

تخرجُ من الحمَّام كحوريةٍ من حكايا السِّندباد، تلفُّ حول نفسِها مِنشفةً بالكادِ تغُطي جسدًا من اللؤلؤِ والمَرْجان. بخطواتٍ سريعةٍ تدخُل غرفتها كي لا يلحظها أحدٌ، كي لا توبِّخها أمُّها لأنَّها أصبحَت مُحترفةً في استخدام الشمع لإزالةِ الشَّعر عن جسدِها الغجري. تُلقي بالمنشفةِ جانبًا بعد أن أغلقت الباب، من الجميلِ أن تقفَ عاريةً أحيانًا لتُطالع ما أتقنَ الخالقُ فيها. بدلالِ الأنثى، تُجفف شَعرها الطويلَ بلون العسل الذي يُعانقُ خصرًا من الماس. يؤذن المؤذن أن الله أكبر.. تدري أنَّها ستُؤجل الصلاة، إلى أن تنسى..

ونسيتُك يا الله، فنسيتَني.. أنا ابنة عبد الجواد.. ريم..

أبحثُ عن هاتفِ المنزل وقد ارتديتُ ملابسي.

أقومُ بمهاتفةِ آلاء، نتحادثُ عن ذاك الوسيم الذي اقتحمَ مدرستنا الثانوية وأتعبَ الفتيات، تقول آلاء:

- يا ويلي كلَّما مرَّ بي عجزتُ عن الكلام، أخرسني..

أُجيبها وأنا ألعبُ بخصلاتِ شَعري وقد تمددتُ على بطني:

- وماذا عمَّا يفعلهُ بي؟ أجمل وأحلى ما في المدرسة.. وِسام الشريف.

ثُمَّ رحتُ أتقلَّب على ظهري وأجزمُ أن آلاء العاشقة، تفعلُ المثل. تقول:

- لكنَّه ينظرُ إليكِ أنتِ كل حين..

- أيفعل؟

- طوال الوقت..

- مرَّت أشهر، وحقيقةً لا أدري ما أقول، لم أشعر بهذا من قبل تجاه أيٍّ

من زملائنا في المدرسة.. لا أدري.. فكرة سيئة أن أفكّر فيه أصلًا..

- غبية.. استغلي الفرصة لو حادثكِ، ولا تنسيْ أنَّنا في عامنا الأخير في الثَّانوية!

تدُقُّ أمي الباب فأقول لآلاء التي فهمتني سريعًا:

- لكنّي لم أفهم تلك المسألة..

- نسأل أ. حسن فيها غدًا.

تُطالعُني أمي، تسألني كما دومًا مَن أُحادث، للمرة الألف.. آلاء.. تبرمُ شفتيْها وتترك البابَ مفتوحًا كما أكره.

أُنهي المكالمة معها، وأعلم لاحقًا أن قِسمَت في بيتنا تزورنا كما العادة. أقفزُ من الفرحة، أحضنها، أملأُها قُبلًا، تدفعُني ضاحكةً. تجلسُ على طرف سريري، أمُدُّها بعلبة الكبريت، تأخذُها باسمةً.. تفعلُ ما تُتقنهُ لسنواتٍ. لا أمَلُّ سؤالها:

- خالتي.. احكِ لي حكايتك مع أعواد الثِّقاب!

- ما زلتِ صغيرةً، لكلِّ حديثٍ آن..

أعتبُ على شَعر رأسِها الذي تسللتْ إليهِ الشيبةُ ولم تحكِ لي بعد، لا أعرف كيف كنتُ صغيرةً في حين أنَّني كنتُ أبلغ من العمر سبعة عشر عامًا، تركتها لأشباح الماضي.. ورحتُ أسرحُ في أجمل فتيان المدرسة.. وِسام الشريف، حُب مُراهقتي الأوَّل.

إنَّ إعجابَ المراهقةِ هذا، إعصارُ ما قبلَ الحُبِّ، هو الذي يعبثُ في بيوتِ قلوبنا، ممزوجًا ببقايا طفولةٍ ساذجةٍ، وتوقٍ شديدٍ لأن نكبرَ، أن نكونَ أبطالًا لرواياتِ حيواتنا. عن لهفةٍ لسماعِ كلمةٍ من حروفٍ أربعة، ألفُ الهوى، حاءُ حياة، باءُ بسمة، كافُ كمال. من منَّا لم يرَ الحبيبَ كاملًا، متُكاملًا حتَّى فاقَ

الملائكة في السماوات السبع؟ وهذا كان وسِام الشريف...

وتحققتْ أُمنيتي في الصِّبا، وعرفَ الجمالُ وجهي، والأنوثةُ جسدي. وكأنَّني استيقظتُ من حلمٍ لأشهدَ عطايا الخالق في ملامحي..

***

٣٤

في حصةٍ ما..

تُلقي عليَّ آلاء ورقةً لأقرأها وقد باعدتْ بيننا المعلِّمة لكثرةِ ما نتحادثُ أثناء الحصَّة:

"في حصة الدين نهرب خلف مبنى المدرسة"

تشتعلُ الرهبةُ بداخلي، ما بين تمرُّد المراهقات، والخوف من ماما. أتبعُ شياطيني. تبعتُكِ يا آلاء خلفَ المدرسة، نحكي عن تامر حسني، الأسمر الذي اقتحمَ الفتيات مُكتسحًا قلوبهنَّ من العدم، تُخرِجُ لي بوسترًا له من حقيبتها. لم تُعجبني أبدًا حشائشُ السافانا في صدرِه، فضَّلتُ مهند بعينيْهِ الرزقاويْن وشَعرهِ الذهبي وبياض وجهه المُشرب بحُمرةٍ، عرفتهُ من مسلسل "نور" الشهير. أطلبُ منها أن تجلبَ لي بوسترًا أدري أنِّي لن أُعلِّقهُ على الحائط، سأحتفظُ به في قلب دفتر ذكرياتي ولن يدري بأمرهِ أحدٌ. قالت:

- سأشتري لكِ واحدًا من جارنا، سأطلبهُ لكِ خصيصًا، ذكِّريني أن أراسلهُ عبر الماسنجر!

برمتُ شفتي من أمرِ الماسنجر الذي لم تنعم بهِ عيناي. قلتُ:

- لدينا حاسوب في المنزل، لكنِّي لا أستخدمه، ولا أفقهُ فيهِ شيئًا!

- أهلكِ غرباء.. ولأغيظك سيأتي لي أبي بهاتفٍ محمول نوعهُ N70..

لم أُجبها، قالت:

- نحن صديقتان منذ أعوامٍ وأعوامٍ، لم تسمح لكِ أمُّك ولا مرةً أن تأتي لزيارتي في المنزل، أنا التي أقوم بزيارتك دومًا. أمُّكِ من المريخ.

لم أدرِ ما القول إلى أن اقتحم وِسام الشريف خلوتنا ونحن جالستان على صخرٍ كبيرٍ:

- تهربان من الحصص؟ ماذا تركتم للشباب؟

يضحكُ وقد أخرج سيجارةً يُشعلها وهو يتلفَّت يمينًا وشمالًا كي لا يلحظهُ أحدٌ. دبَّ الخوفُ في صدري لدى رؤية السيجارة. كيف فعلها؟ هل يعلم والداه؟ أيخشى الله؟ سألتُ طفولةً ليست ببعيدةٍ، لم تُجبني. نهضتُ بسرعة أتحجَّجُ بضرورة العودة إلى الفصل، أُمسِكُ يد آلاء وكأنَّها أمي، أمي المتجرِّدة من أمومتها، أمي المتجرِّدة من كل شيءٍ عدا الجنون وهرمونات المراهقة الثائرة. لم تُجبني، بل كانت تأكلهُ أكلًا بعينيْها، ولا تشبعُ أبدًا. عيناى تجولان بينَ الأرضية وآلاء التي أرجوها أن نعود ولا تسمعني. لكنَّها عيناه اللتان أحرقتا صبري، لم أستطع النَّظر، لم أستطع الحُب، قال يُخاطبني:

- ريم.. لِمَ أنتِ خائفة؟ كيف تخافين وأنا هنا؟

نظرتُ له سريعًا، لوجهٍ يشقُّ طريقَهُ لرجولةٍ مُفرطةٍ، تسألهُ آلاء:

- كم عُمرك؟

يُجيبها ناظرًا إليَّ:

- أتممتُ التاسعةَ عشرة منذ أيَّام..

تُجيبهُ المجنونة:

- برج الحَمل إذن؟

تضحك ثُمَّ تقول:

- أنا برج العذراء..

لبرهةٍ شككتُ في كلامها ساخرةً.. عذراء؟ عيناها والجرأة في صوتها كانتا أشبه بامرأةٍ فقدت عذريتها غيرَ آسفة.

سألني:

- وأنتِ يا ريم، أيَّ برجٍ أنتِ؟

اشتعلَ الخوف في صدري، وقلتُ غاضبةً:

- سأعودُ للفصل يا آلاء..

وعدتُ إلى الفصل وقد نهرتني معلمةُ الدِّين، لم أكترث لذلك، لم أكترث لأي شيء سوى الشعور بالجُرم في داخلي، وأنَّني لعينة أغضبتْ الله، ماذا لو عرفت أمي؟ ماذا لو كان إخوتي لا يزالونَ معي في المدرسة ولم ينتقلوا لأخرى ورأوني أقفُ أحادث شابًّا يُدخِّن سيجارة؟

كنتُ أدري أنَّني أغضبتُ آلاء التي حتمًا تظنني ساذجةً. بدا ذلك واضحًا لدى انضمامها إليَّ في الحصص الأخيرة. لم تنطق بحرفٍ، كانَ وجهُها الجميلُ غاضبًا عليَّ، كتبتُ لها ورقةً:

- ماذا حدث؟

أخذتْ الورقة مني تُطالعها بلا اهتمامٍ وهي تكتبُ بضجرٍ:

- لا شيء يُذكر.. لا أظنُّكِ ستهتمين!!

عدتُ منزلي يُثقلني الجُرم. أدركُ فداحة ما فعلت، أستحي من إخوتي وأبي وأمي، تسألني قِسمَت التي تُطالع مجلتها الأسبوعية:

- مَن مات؟

لا أستقبلُ مزاحَها، بل أرمي بنفسي على السرير، تسألني:

- أدقَّ القلبُ وبالحبِّ انكوى؟

أُطالعها مندهشةً، أقول:

- الحب حرام..

- بشرع وبدين مَن، عليكِ اللعنة؟

تصمتُ قليلًا وتقول:

- الحب حيااااة..

تبتسمُ وهي تحتضنُ المجلَّة كمراهقةٍ، تنهضُ من على فراشها السُّفلي لتتمدد جواري، نطالع السقفَ معًا، أراقبها بخوفٍ قبل أن تقول:

- معكِ في المدرسة؟

لا أجيب..

- إذن معكِ في المدرسة!!

تصمُت قليلًا ثُمَّ تسأل:

- وسيم؟

لا أجيب..

- إذن هو من أهلِ القمر..

تضحك بجنونٍ، تجعلني أضحك، ثُمَّ تُخرج من جيبها علبةَ الكبريت، تستنشقُ الدخانَ كمن تنتشي. أسألها عن قصةِ الكبريت، لا تُجيب. ننامُ معًا.

***

٣٥

- سأقتلكِ..!

حسام يُخاطبني وهو يكادُ يكسر ذراعَ الـ PlayStation في يدهِ، أضحكُ وأنا أضربُ "أندرتيكر" بضربةٍ قاضيةٍ من "جون سينا"، أتفنَّنُ بحركتهِ المشهورة:

You can't see me

ينتفضُ حُسام والحَكم يعِد لثلاث قُربَ "سينا" الذي يعلو "الأندرتيكر"، تتعالى ضحكاتي الشريرة.. أهزمهُ.. ثُمَّ يأتي دورُ فارس ليأخذ منهُ الذِّراع ويختار مصارعَهُ المُفضل "راي مايستيريو" الذي لا أُطلقُ عليه سوى القزم، فيغضب فارس مُلقِّبًا عزيزي "سينا" بالقرد، بظهرِ يدي أضرب عنقه من الخلف، يضحك، أضحك.. نلعب.

ثُمَّ يأتي أبي خلفنا، لا نُميِّز وجودهُ سوى من صوتهِ، يأتي ليقلِّد صوتَ الحَكم ويُضحكنا بإنجليزيةٍ عرجاءَ، ثُمَّ يُغلَب فيتحدَّث بالعربية:

- وها هو "راي مايستيريو" ينقضُّ على "جون سينا"، يقفزُ عليه متعلِّقًا به، يضربهُ في رأسه، يُعطيهِ "بوكسًا" المسكين "سينا" يدوخ، يتأرجحُ من الألم، "طاخ طييخ"، اضرب أباه يا قزم..

أصيحُ ضاحكةً، يُتابع أبي:

- أووه يا إلهي، إنَّهُ يرمي بـ"سينا"على حبال حلبة المصارعة..

يقولها أبي فأذكر مسلسل الكرتون ذاك، النمر المُقنَّع، المصارع الذي

يرتدي قناعًا على شكل نمر، أذكرُ تتر الأغنية الآن.. بصعوبةٍ!

يُتابع أبي:

- أوووف.. هل سيفعلها؟ أوووه إنَّه يفعلها القزم الخطير وسيكس..... واااان.... نااااااين..

يغلبني فارس، فأسلِّم الذراعَ ضاحكةً لحسام. ثُمَّ أفرُّ لأبي، لحضنٍ جميل، لحنانِ الملائكة في قلبه. يحملُني، ثُمَّ يدورُ بي في أرجاء الصالة، أضحكُ وقد أدركتُ أنَّهُ أميري وفارسي السرمديُّ.. وأنَّهُ سيظلُّ عشقًا بداخلي لن يموت.

تُنادينا أمي.. أن نتناول الغداء..

وعلى طاولةٍ كبيرةٍ، اجتمعنا، كنتُ قد نفضتُ عن قلبي تمامًا أوهامَ وسام الشريف، حب أهلي أنبلَ وأشرف. ثُمَّ فررتُ لمذكراتي أكتبُ إليها طهارةَ أفكاري، وأنِّي آثرتُ الله وأهلي على الحُبِّ وأنِّي سأظلُّ قديسةً في انتظارِ حُبٍّ يطرقُ الباب، لا يطرق النَّافذة، فحبُّ النَّوافذ من الممكنِ يجعلني أقفز من النَّافذة، ولا يتلقفني أحدٌ، سأرتطمُ بالأرض وقلبي. وبذكرِ الارتطام، لازمني حلمٌ غريبٌ لا يتوقف عن التكرار حتَّى ساعتنا هذه، هو أقرب لكابوسٍ لعينٍ. دومًا ما حلمتُ أنَّني أدخلُ غُرفةَ والداي، أفتحُ النَّافذة من ارتفاعٍ شاهق، أنظر إلى بشرٍ بحجم النَّمل، يتزايدُ بداخلي شعورٌ قاتلٌ باللامُبالاة وأنا أخلعُ ملابسي القطعة تلو الأخرى، أنتشي كُلَّما زادَ عُريي إلى أن أصلَ إلى الذُّروة وقد تعرَّيتُ تمامًا وأنا أقفُ على حافةِ النَّافذة، أطالعُ البشر صامتة الذينَ لحظوا جنوني، فأُلقي بنفسي وقد عشقتُ الانتحار. أحيانًا حين الارتطام أطالعُ نافذتي من الأسفل وأنا مُمدَّدة على الأرض، أحيانًا أجدُ أمي تبكي وتتوعَّد من الأعلى بضربي، وأحيانًا كثيرة أنهض وكأنِّي لم أنتحر للتَّو

وأسيرُ بين الناس عاريةً لا أُمانعُ عريي، بل إنَّني أهوى نظراتهم إليَّ إلى أن أنهض فزعة.. الأغرب أنَّني حين يحدث ذلك وأنهض فزعة، أتمنى لو أنام مجددًا لأحلم ذات الحلم، بكلِّ تفاصيله، أو أصلَ إلى نهايةٍ مُختلفةٍ.

***

٣٦

أخبرتُ روبرت برغبتي في زيارة الكنيسة، لم يبدُ متفاجئًا لطلبي، على الرَّغمِ من كونهِ على درايةٍ تامَّةٍ، بتمسُّكي بطرفِ ثوب الإسلام، الإسلام الذي أعتنقُه النِّصف، أو ربَّما الثُّلُث. سألتُه عمَّا أرتدي في مناسبةٍ كتلك، فقالَ إنَّ الكنائس تستقبلُنا كما نحن، فلا داعي لمظاهرَ زائفةٍ، فمن يذهب هناك، في الواقع يذهبُ عاريًا كما ولدتهُ أُمُّهُ. ذكَّرني برحمةِ الله، أوليسَ الله ربَّ الكنائسِ أيضًا؟ تعجَّبتُ لردِّهِ جدًّا، روب الذي لم يقرب الكنائس منذُ كانَ في الخامسةَ عشرة، روب الذي يمضي عشيةَ كل أحدٍ، بينَ ذراعيَّ، يهمسُ بخطاياه كُلِّها في أُذني، فأغفرها جميعَها بالقُبَل.

وقد كان..

اصطحبني بسيارةٍ فارهةٍ إلى أشهر كنائس نيويورك، الكنيسة الكاتدرائيَّة للقدِّيس باتريك. كان الأمرُ مهولًا جدًّا، أنا التي لم أدخُل كنيسةً قط. رحتُ أطالعُ تمثال مريم العذراء المُعلَّق، أحسُدها على عذريتها، أحكي لها أنَّني في الأمس كنتُ عذراء كذلك، وأنَّه لم يمسسني بشرٌ. أردتُ أن أُناجيها، فلم أدرِ كيفَ تكونُ المُناجاة!

شعرتُ باستياء روبرت لما وصلت إليهِ حال الكنيسة، قال:

- انظري كيف تحوَّلت الكنيسة لما يُشبهُ المتحف؟ أينَ قُدسيَّة المكان؟

وراح يُمطرني بوابلٍ من سخطهِ، ولا يستخدم من اللغة الإنجليزية سوى تلك الكلمة التي تبدأ بـ F والتي لطالما وجدتُها سببًا في خلافاتنا. لم أستطع منعهُ من السَّب، هو أدرى منِّي بتاريخ المكان وما وصلَ إليه. تركني ليشرب

سيجارة، وما إن خرج حتَّى كرهتُ توافد البشر، السُّياح منهم خاصةً، وتصويرهم للمكان وكأنَّهُ معلَم تاريخي أكثرَ من كونهِ كنيسة.

لبرهةٍ أردتُ الانفراد بهذا المكان البديع، لبرهةٍ أردتُ أن يحُلَّ عليَّ بعضٌ من سلامهِ، لبرهةٍ أردتُ أن أدَع خطيئتي تتحدَّث عنِّي، لربَّما نتوبُ معًا.

أن تعترف الفتاة بذنبٍ عظيمٍ في الإسلام لأمرٌ مهولٌ، حتَّى وإن كانَ بابُ التَّوبةِ مفتوحًا، هو مفتوحٌ لها النِّصف، أوالثُّلُث، فثمَّة خطايا لا تُغتفَر، وثمَّة أوجاعٌ لا تُنسى في هذا الوطن العربيِّ. في بلادي يرجمُونَني لو عُدت، في بلادي يُقيمون عليَّ الحد، وإن سلمتُ من الحد، لم أسلم من ألسنتهم، من لقب "عاهرة" كلَّما مررتُ بهم، لن أسلم من أصابع الاتِّهام الموجَّهة لأنوثتي، ولما سلمتُ من ادعائهم أنَّهم ملائكة مُنزَّلون، وأنَّهم لا خطايا لهم كالقدِّيسين.

لا أدري ما الذي حدث، أو كيفَ وصلتُ إلى غرفةِ الاعتراف، شعرتُ بقدمي تتولّى عنّي التفكير كذلك، تروح وتجيء بي، تُسيّرُني كيفما شاءت، وما أنا سوى جسد، جسد مُنهَك القوى والرُّوح. العجيب أنَّهُ لم يكن هناك أحدٌ ينتظرُ دورهُ ليعترفَ، وكأنَّهُ لا مُذنبة سواي. جلستُ على كُرسيِّ الاعتراف، أحاول تذكُّر ما قرأتُه في السيَّارة عن الاعتراف وكيف يتم، أحفظ النُّصوص اللازمة وكأنِّي مُقبلة على امتحان، روب كان يُطالعني ضاحكًا وأنا أقرأ، يُتمتمُ أنِّي فقدتُ عقلي بلا شك، لكنَّهُ مع هذا آزرني.

وها أنتَ يا كاهن، تُرحِّبُ بي خلفَ حجاب، تهيئ لي كُلَّ الأجواء لأحكي لكَ عمَّا سوَّلت نفسي، ولا تزال تُسَوِّل.. وجدتُني أُرددُ كمسيحيَّةٍ بامتيازٍ:

-"Forgive me, father, for I have sinned" .

- نعم أخطأتُ يا أبتِ وآنَ لي ولو كذبًا، أن أحكي لكَ عن إثمٍ حَزينٍ يُعاتبُني

-“My last confession was”

ثُمَّ صمتُّ قليلًا حين أدركتُ أنَّني لم أعترف بخطايا مُسبقًا كي أقولَ له بأنَّ آخرَ اعترافٍ لي كان منذُ كذا وكذا..

-” .. It is my first confession, and there are my sins”

***

٣٧

- هاكَ اعترافي الأوَّل يا أبتِ، وإليكَ تُحكى الخطايا..

..At the age of 17’-

- في سنِّ السابعة عشرة..

ورحتُ أروي لهُ عظيم الخطايا، وحين انتهيتُ حالَ الصمتِ بيننا، فظننتُني نسيتُ ما يتم فعلهُ لاحقًا فهرعتُ لحقيبتي أبحثُ عن هاتفي لأستعينَ بجوجل اللعين، إلى أن قال الكاهن:

- أما زلتِ على ذلك الطريق؟ شيءٌ في صوتكِ يُخبرني، تكلَّمي يا ابنتي، تكلَّمي..

- أجل..

قلتُها وقد أدركتُ أنَّ التوبة في كل الأديان أساسها بترُ الأقدام الذاهبة للإثم، لم أبتُر تلكَ الأقدام بعد، بل لبرهةٍ شعرتُ أنَّ لي أطرافًا كثيرة كأطراف الأخطبوط، بل إنِّي لو بترتُها لنَمتْ لي غيرها.

فقال بحنانٍ لمستُهُ في صوتهِ:

- لتَتمَّ التوبة.. أقيمي السلام الملائكي لمريم مرتين!

للحظةٍ جزعت، للحظةٍ باتَ جليًّا تحايُلي عليكَ يا الله، أنا التي لم تستطع التوبةَ إليكَ من باب الإسلام، فأتيتُكَ من الباب الآخر وبيدي المسيح، ومع هذا رحتُ أُرتِّلُ ما حفظتُ من الصلاة بمسيحيةٍ اكتسبتُها للتَّو:

-” Hail Mary, full of grace, the Lord is with thee; blessed art thou amongst women, and blessed is the fruit of thy womb,

Jesus. Holy Mary, Mother of God, pray for us sinners, now and at the hour of death. Amen"

والحقُّ أنِّي رددتُ عليهِ ما أحفظ بحرفيَّة، ورحتُ بوجعٍ أتَّكئ على ما أدريهِ الأكثر فيما تَلوت، كلمة "آمين"، فآمين لدعائي اللامُستجاب في رحابك يا الله. وأدريهِ ليس بمُستجاب فلم يحُلَّ عليَّ سلامهُ ولا تبريكاتهُ. ثُمَّ دعاني الكاهن للنَّدم. وجدتني في معصرةٍ ذاتيَّة، بكيتُ على نفسي، بكيتُ على ريم في العاشرة، بكيتُ على أمي فاطمة وأبي عبد الجواد وإخوتي فارس وحسام، حتَّى تولين التي لم أمسس، بكيتها بكاءً حارقًا ولم تشفني دموعي، وبكيتُ صمدًا، صديقَ قلبي.

بشفقةٍ وحبٍّ دعاني الكائن أن أهدأ، أخبرني أنَّهُ في دموعي طهارة، وأنَّ أبانا الذي في السماء يُحبُّني جدًّا، وأنَّهُ كريمٌ غفورٌ.. مهلًا أليست تلكَ أسماؤكَ يا الله؟

وكنتُ كمن حفَّظوها دون أن تفهم، أتلو عليهِ ندمي بالمسيحيَّة:

-"My God, I am sorry for my sins with all my heart. In choosing to do wrong and failing to good, I have sinned against you, whom I should love above all things. I firmly intend, with the help of your grace, to sin no more and to avoid whatever leads me to sin"

- إلهي أنتَ تعلمُ كيفَ حالي، فهل يا سيِّدي فرجٌ قريبٌ؟ إلهي سامحني خطيئتي وقد عصيتك، ولم أكن من الزاهدين، فساعدني وآزرني ألَّا أعصيك وألَّا أكونَ من الظالمين. اللهم إنِّي أدعوك، بأسمائك الحُسنى، وصفاتكَ العُلى أن تغفر لي ما تقدَّم من ذنبي وما تأخَّر.

وراحَ الكاهنُ يُردِّدُ على وجعي صلاة الغفران، أنا التي كنتُ أسمعهُا ولا أدري إن تم الغفرانُ لي أم لا، أخبرني أنُه باسم الروح المقدَّسة قد غُفرَ لي. أحببتُ سماعَ ذلك والشعور للحظة أنَّني كجنينٍ ولدتهُ أمُّه، بلا خطايا، ولا آثام، همستُ: آمين، فأجابني أنَّ الله غفر لي خطيئتي، وأن أذهب بسلام.

لم أجد بُدًّا من إكمال التوبة خارج الغرفة كما طُلبَ مني، بل فررتُ لروبرت. كان من المُتفق أن تتناول عشاءً، لكنِّي كنتُ مضطربةً كفاية لأن أغيِّر مخططات اليوم. استقبلَ روب اضطراباتي بأن لم يقربني ذلك اليوم، بل نام على الأريكة، وكأنَّه يدري أنَّهُ سبب آثامي، لم أستطع النوم، كأن بيني وبينه طريق طويل جدًّا، قمتُ ولا أعرف ما الذي عليَّ فعله، الحقيقة أنِّي أحسستُ براحةٍ نسبيَّة بعدما أفرغتُ على أذن الكاهن ما بداخلي من اضطرابٍ. هل فعلًا أنا بلا خطايا؟ المُفترضُ أنِّي الآن بلا خطيئة، وأنَّ صفحتي بيضاء سأملأها- حتمًا- بخطايا جديدةٍ، توجَّهتُ إلى الحوض وتوضَّأت وصلَّيت، يممتُ وجهي إلى قبلةٍ اخترتُها ورفعتُ يداي، هل سجدتُ كما يليق بالسجود؟ وهل ركعتُ كما يليق بالركوع؟ لا أعرف لكنِّي أنهيتُ صلاتي سريعًا وتوجَّهتُ إلى جوار روبرت، خطيئتي الكبرى! ومع هذا.. فرحتُ للملاكِ الذي ذهب إلى الله بحسنةٍ جديدةٍ في دفتري عنده..

"ريم صلَّت ركعتان"

***

٣٨

- ريم!!

بصوتٍ حاسمٍ تُناديني أمي من غُرفةٍ مجاورة، أذهبُ إليها قلِقة، أدخلُ فتُغلقَ الباب. تجلسُ على كرسيٍّ فتأمرني بالجلوس جوارها.. تتنهد، تقول:

- كيف المدرسة؟

أُجيبها بعدَ صمتٍ:

- جيِّدة..

- درجاتك باتت أفضل بفضل الدروس الخصوصية

- نعم..

- ريم ثمَّةَ أمرٌ أريدُ مناقشتكِ فيه، الآن وقد نضجتِ..

تُحيِّرني بمزيدٍ من الصمتِ قبلَ أن تقول:

- ليسَ بجديدٍ عليكِ أن تعرفي أنَّ هذا العالم الكبير هو كُتلة من الخير والشر، الآن وقد نضجتِ...

تُكررها على مسامعي مجددًا وكأنَّني بحاجةٍ للتعذيبِ أكثر لأعصابي المُراهقة.. تُتابعُ قائلةً:

- يجبُ عليكِ أن تُحافظي على نفسك وعلى سُمعتك، واعلمي أنَّ سُمعة الفتاة هي كل ما تملكُ، واعلمي أنَّ السُّمعة والشرف كليهما وجهان لُعملةٍ واحدةٍ، إن سقطَ وجهٌ، تدنَّس الآخر..

تبلعُ ريقًا، ثُمَّ تقول:

- تبلغينَ من العمرِ سبعةَ عشرَ عامًا، ستتخرجينَ من الثانويَّة قريبًا

وستصبحينَ طالبةً جامعيَّةً. أنا على يقينٍ أنَّكِ محطُّ الأنظار وتُلاحقك نفوسٌ مريضةٌ قذرةٌ، حذارِ يا ريم، حذارِ لو قمتِ بفتح المجال لأحدهم أن يمسَّ طيفك، حذارِ لو عرفتُ بذلك. الشباب الآن لا يُريدونَ سوى الجنس من الفتاة. قد يوهموها بالحبِّ والوَلَه والزواج أحيانًا، إلى أن تقعَ في المصيدة.

كانَ وقعُ كلمة "جنس" على مسامعي الأغرب على الإطلاق، لن أنسى شعوري قط وأمي تلفُظ كلمة "جنس" للمرةِ الأولى منذُ عرفتُ أمومتها.. "جنس"..

- احذري من الشباب، وأعينهم، احذري من قلوبهم المُلطَّخة بوساوسِ الشيطان والشهوة.

- مم .. ماذا أفعلُ إذن؟

- تجاهليهم، إيَّاكِ والاقتراب منهم أو أن يقتربوا منك. ستتعرضين لمضايقاتٍ إن لم تكوني بالفعل تتعرضينَ لها. سيُحاول بعضُهم الحديثَ معك والتطاول عليك، سيُحاول بعضُهم لمسَك..

- لمسِي؟

- أجل..

ثُمَّ تنهضُ لتفتحَ الباب وتتفقَّد أنَّ أحدًا لا يسمعنا، تعود لتجلس. تقول:

- لكلِّ شاب غريزة جنسية بداخله، شاءَ ذلكَ أم أبى.. وليس كل الرجال يوسف، كما ليست كل النِّساء مريم، فقد يأتي الشيطان ليكونَ شاهدًا على إثمِ اثنين اعتنقا الخلوة، فتولد الخطيئة في غمضةِ عين. لذلك أمرنا الله ورسوله بالعفَّة، والعفُّة تعني الزواج والزواج فقط. ولا أجمل من الحلال، والحب الحلال، والجنس الحلال.

أنا.. ما أزالُ أسمعهَا على استحياءٍ، تقول:

- بكارة الفتاة قبيل الزواج هي عفَّتها ودليلٌ حاسمٌ على حفاظها على نفسها وشرفها وسُمعتها. وهذا هو عهدكِ أمام الله بالحفاظ عليها إلى أن يكرمكِ الله بابن الحلال الذي يصونك ويحفظك.

راحت تبتسمُ من خجلي:

- لكلِّ فتاةٍ غير متزوجة غشاء بكارة لا يُفضُّ إلَّا بأوَّل عمليةٍ جنسيةٍ، وهي أن...

وراحت تحكي لي العمليَّة بالتَّفصيل.. انتفض لمجرد الفكرة.

تقول وهي تُمسِّد ذراعي بقوَّة:

- حافظي على نفسك جيِّدًا!

لم أُدرك ما الذي حلَّ بطفولتي آنذاك، شعرتُني أودِّعها وداعًا حارقًا بعدما سمعتُ ما سمعت. شعرتُ أنَّهُ وجبَ عليَّ أن أبني مزيدًا من الحصون حولي وحولَ جسدي وقلبي، كي لا يقربَني شياطين الإنس. ووسطَ بعثرتي سألتُها:

- أخبريني بحكاية خالتي قِسمَت وأعواد الثِّقاب!

رأيتُ ملامحَها تتبدَّل، تقول:

- هذا أمرٌ خاصٌّ بأختي فقط.. كلٌّ منَّا لهُ أموره الخاصَّة التي يتمنى لو أنَّهُ ذُبِحَ قبلها. وأنا لن أسمح لكِ بتاتًا بالوقوع في أي خطأ كان!! قِسمَت تتحمَّل نتيجة أخطائها..

تتركني أمي في حيرةٍ حين يدقُّ الباب، نبقى للحظاتٍ في صمتٍ بعدَ أن فتحت أمي بابَ الغرفة.. نسمعُ فارس يفتحُ الباب، يصيحُ من الخارج:

- آلاء يا ريم..

تمتعضُ أمي وتبرمُ شفتيْها، تقول:

- الامتحانات على الأبواب، لا وقتَ لها..

أقول كاذبةً:

- سنُذاكر معًا..

تخرجُ أمي من الغرفة، أُخبرُ آلاء بما سمعت، تضحكُ قائلةً:

- كيف لم تعرفي كيفَ هو الجنس قبل آلان؟

***

٣٩

- سنذهبُ لزيارة الدكتور سامي وحرمه اليوم..

أبي يُخاطبُ أمي بأمر الزيارة، يتبدَّل وجه أمي فتقول:

- اليوم؟ خيرًا يا عبد الجواد؟

وكانت أمي لا تُنادي أبي باسمهِ إلَّا لو احتلَّها القلقُ، نظرَ أبي لها، ثُمَّ لي ولإخوتي، فتصنَّعتُ أنَّني مشغولةٌ في الرسم، فقال بصوتٍ أخفضَ من المُعتاد:

- مايا..

أجابت أمي:

- ماذا فعلت هذه المرَّة؟ ستقتل أباها المجنونة!!

- حدَّثني الدكتور أنَّها ستتزوج من ذاكَ الفتى الضائع، لم أعهدهُ بهذا القهر أبدًا!!

- أليست ابنته الوحيدة؟ فكيفَ لا يكونُ مقهورًا ألا لعنة الله عليها، لو كانت ابنتي لقتلتها وشربتُ دماءها!!

ثُمَّ نظرت إليَّ أمي فنظرتُ بعيدًا فورًا. أذكرُ خوفي الشديد وكأنِّي المعنِية بهذا الجُرم، شعرتُني مايا.

- هيَّا ارتدي عباءتك.. خُذي ريم!

ونظر كلاهما إليَّ، صدقًا وقد مرَّت بي السنون، ما أزالُ أجهل قرار أبي بأخذي معهُما.. وقد كان..

كانَ طريقًا ليسَ بطويلٍ للذهاب لمنزل الدكتور سامي، الدكتور الموقَّر. وصلنا أخيرًا وإذا بأبي يقول:

- اللهم قدِّرني على فعلِ ما ترضى!

وكان منزلًا عتيقًا كعادته، يكشفُ إرثًا عائليًّا، شهاداتٌ مُعلَّقةٌ على الجدران، صورُ تكريمٍ، نظافةٌ مُفرطةٌ كانت ترتاح لها أمي، مَن تُعاني فوبيا النظافة، ولا أدري ولكن خُيِّلَ إليَّ أنَّني شممتُ رائحة المستشفيات في البيت!!

خرجت لنا أُم مايا، كريمة، بوجهٍ أسودَ من الحزن، تلاها خروج الدكتور ببسمةٍ كاذبةٍ لاستقبالنا. خرجا لنا وكأنَّ هناك حبيبًا مات لهما. أجل ماتت مايا منذ أحبَّتْ مَن كرهاه ولم يرضياهُ لها زوجًا. جلسَ أربعتُهم بعيدًا عنِّي يتهامسون. كنتُ أشعرُ أنَّهم جثثٌ ناطقةٌ لا أكثر ولا أقل. لم يصل سمعي ما يقولون. لكنَّ أبي أمرني بالذهاب لغرفة مايا التي لم أرها منذ فترةٍ، نظرتُ لأمي ولم أجدها سعيدةً بقراره ولكنِّي نهضتُ على أيةِ حال. مايا تكبُرُني بثمانية أعوام. فتحتُ الباب لأجدها، جميلةً كما هي، يعلو وجهَها حُزنٌ وغضبٌ. تفاجأتْ لوجودي، فقالت:

- أنتم هنا؟

فأومأتُ لها رأسي بنعم!!

أقفلتُ البابَ خلفي لأجلسَ جوارها على السرير، قالت:

- عمي عبد الجواد أيضًا؟

فقلتُ:

- نعم.. أنا وأبي وأمي..

لم تُجبني، وصدفةً نظرتُ لمعصمها لأجدَ خدوشًا وبقايا دماء كثيرة، سألتُها:

- ما الذي آذاكِ هكذا؟

لم تُجبني بدايةً، صمتٌ قليلٌ ثُمَّ قالت:

- أرتاحُ حين أؤذي نفسي، أنتشي كمدمنةٍ أو يُقال ماسوشيَّة.

تضحكُ ببلاهةٍ منعتني أن أسألها عمَّا تعنيهِ الماسوشيَّة، ليتني لا أعرفُ معناها الآن.

لحظاتٌ صامتةٌ أخرى، ثُمَّ قالت:

- في أيِّ صفٍّ أنتِ؟

- الثالث الثانوي..

فضحكتْ قليلًا، أو هكذا خُيِّلَ إليَّ.. فقالت:

- أتحبينَ أحدَهم في فصلك؟

صُعقتُ لسؤالِها، ورحتُ أحدِّقُ في وجهِها مُندهشةً لا أدري ما أقول، قالت:

- هيَّا اعترفي، لا يُمكن ألَّا يُعجبكِ أحدُهم.. لن أُخبرَ أحدًا، سرُّكِ في بئرٍ معي..

لا أدري ما سرُّ الراحة التي أحاطتني فجأةً، أو ما مصدرُها، لكنَّني أحببتُ أن أبوحَ بسرٍّ لها، أن تكونَ صديقتي ولو لجزءٍ من الثانية، أُخبرها سرِّي وتُخبرُني سرَّها، حتَّى لو منعتني عنها أمي، للحظاتٍ مرَّ حُبُّ الطفولة فؤادي، عبد الصَّمد، أجبتُها:

- وسام الشريف، أجمل شباب المدرسة..

فضحكت من قولي رغمًا عن انكسارِها، ثُمَّ اقتربتْ منِّي وقالت:

- الجميلاتُ هُن الأقل حظًّا في الحُب، ليتكِ بسيطةً، عاديةً، لا تلفتينَ النَّظر والقلب!! الجميلاتُ قبيحاتٌ بجمالهن، فلولا جمالهُنَّ لما نظر إليهن أو أحبَّهنَّ أحدٌ، هنَّ مُفلساتٌ لو دققتي النَّظر!!

أجبتُها بتحدٍّ:

- مخطئة، ليست قاعدة. الجميلاتُ لهنَّ حق الاختيار في الحب، أنا جميلة نعم، لكنِّي سأنتظرُ الحبيب أن يطرق على أهلي الباب.

وإذا بها تُمسِكُني من ذراعيَّ بغضبٍ قائلةً:

- لأنَّكِ غبيَّة.. الأمرُ ليس بتلك البساطة!!

تركتْ ذراعيَّ بعد أن أحسَّتْ بألمي، واستلقتْ على سريرها تُطالعُ السقف.. ظننتها لن تتحدَّث إلى أن قالت:

- أجرى لي والدي الأسبوع الماضي عملية الختان، يظنُّني كائنةً جنسيَّةً..

تضحكُ بقهرٍ ثُمَّ تقولُ:

- بتروا جزءًا من عضوي خلقه الله بي باسم الدِّين.. يظنُّونني عشقتَه جنسيًّا أيضًا.. أتعلمين كم أنا غاضبةٌ من الله؟

تصمُت ثُمَّ تهمسُ:

- أين هو منِّي؟

صحتُ بها:

-أسيجعلك الحب تكفرينَ به؟ ملعونٌ هذا الحب إذن!!

- أتعلمينَ يا ريم؟ لستِ بعاشقةٍ ولم يعرف قلبكِ يومًا الحب، لذلك لن يفيد الجدالُ ولكن انزعي عنكِ التَّقوى!

وجدتُها أقسى ممَّا أعرف عنها.. وشفقتُ لحالها وحال الحبِّ في قلبها. لكنَّ ظلَّ أمرها يؤرقُني، فخرجتُ أنضمُّ إليهم حين شعرتُ بثقلي عندها.

اقتربتْ منَّا أمُّها توزِّع عصيرَ البرتقال، يبدو على وجهها الشقاء، وشقاء الأمِّ لا يُشبهُ أيَّ شقاء. لم يمضِ كثيرًا على وجودنا قبل أن يعلنَ أبي الرحيل.

كنَّا في سيارةِ أبي عائدينَ للدَّار.. قال أبي موجِّهًا حديثه لأمي:

- البنت خرجت عن طوع أهلها وأعلنتْ العصيان، وستتزوج بعاصم

رغمًا عن أبيها وأمِّها. شاب لا مُستقبل له، عِربيد، فاشل، استحوذَ على قلبها وأعماه، فأصبحتْ عمياء لا تُبصرُ سواه. عمياء باسم الحب الأحمق.

شعرتُ بوعكةٍ في قلبي، وتذكَّرتُ سرِّي الذي عندها، فتمنَّيتُ لو لم أقل شيئًا، لو أنِّي لم أذهب معهُم من الأساس..

تابعَ والدي حديثه:

- ستتزوج منه وأقسم والدها ألَّا يُعيلها أو يحضُر زفافها، أقسمَ ألَّا يدخلَ لها بيتًا أو يحمل لها ابنًا.

أجابتهُ أمي:

- حقُّه!! ولكن لِمَ لم يكسر عُنقها؟

فأجابَ أبي:

- لأنَّها تحرقهُ ببنوَّتها.. أليسَ أبًا؟

ثُمَّ بيدهِ يضربُ مقود السيارة قائلًا:

- أسفي عليك يا دكتور سامي، اللهم احفظنا من عقوق الأبناء.. مُصيبة.. الوضع مُصيبة!!

لم أشعر بأطرافي من وقعِ ما قاله. تمنَّيتُ أن أنام فلا أسمعُ شيئًا، لكنَّ النَّومَ أبى أن يكونَ بي رحيمًا.

وصلنا بيتنا، وإذا بي أملأُ حوضَ الاستحمامِ بالماء الدافئ، لم أنظرُ لانعكاس جسدي العاري آنذاك. استلقيتُ على ظهري أطالع السقف والماء يكادُ يخفي رأسي كذلك فلا أتنفَّس. أفكرُ في ما قال أبي، وما دعَت أمي، وما قالتهُ مايا، وقلته لها.

طالَ وجودي في الحمام حينَ انتفضتُ فجأةً لصوت أمي يُناديني من الخارج:

- ريم!!! ستلبسُكِ الشياطين..

دعي ريم في شقائها الآن. نهضتُ فزعةً أحاول تذكُّر دعاء دخول الخلاء، لم تسعفني ذاكرتي، رحتُ أعصرُ دماغي، أغمضتُ عيني في خوفٍ كي لا أفتحها فأجدَ خُرافات الطفولة التي ظلَّت تُلاحقني.. مسخٌ بقدم إنسانٍ وقدم عِنزة. أو كائن طوله أربعة أمتار يطالعني. وقفتُ بعيدًا عن المرآة كي لا أشهدَ انعكاس امرأةٍ عجوز قبيحة تتربَّصُ بي.

- " اللهمَّ إنَّا نعوذُ بكَ من الخُبثِ والخبائث، وغفرانك".

***

٤٠

أخبرني.. أخبرني كيفَ يكونُ الغياب؟ علِّي صاحبتُ الحزنَ قبلَ أن يُصاحبني، كي أخبرهُ أنَّ كائنَ الحُب المهول قد أذلَّنا.. فيرحمني..

أخبرني.. كيفَ تكونُ دقائق ساعاتي؟ كي أُهيِّئ قلبي لهذا الرحيل العظيم، سأجيدُ فنَّ الكذب، وفنَّ النِّسيان.. وفنَّ الآلام المُهين..

وهاكَ أنت تجولُ في خاطري، تُحيي فيَّ ما ماتَ من الوجع، وقد استغنيتُ عنك ومنك، فمن تكون أنت لتؤتني من لدُنك وجعًا؟ ألا تدري أنِّي الآن أجمل؟ وأنِّي قبلكَ كنتُ شبحًا منِّي..؟!

كانَ صعبًا، كانَ صعبًا جدًّا ألَّا أشعر بأي شيءٍ سوى الفقد، وكأنِّي بحاجةٍ لهذا الجَلدِ أيضًا. والحقُّ أنَّ هذا الحب لم يمُر مرور الكرام على قلبي وجسدي، فلقد أحبَّهُ قلبي، وخجلَ منهُ جسدي الذي لم يعُد لي، جسدي الذي لم أعُد أذكر ما طعمُ حُرمته.

ودفعني هذا التخبُّط، هذا الضياع أن أضعَ نفسي في مقارناتٍ مع بائعات الهوى، أنا كذلك أبيع الهوى، لكنِّي لا أتقاضى لذلكَ مالًا، لم أضع سعرًا لي، كنتُ مجانيَّة. لا يوجد فرقٌ شاسعٌ لو وضعتَ لنفسكَ ثمنًا، أو لو تركت نفسك مجانيًّا، الغالي لا ثمنَ له، الغالي لا يُسعَّر. أتجد ثمنًا للنَّجمة في السماء؟!

ليتني نجمة يا ياسر، ليتني نجمتُك.

أعود إليكَ يا روب، تنتظرني باسمًا قبل أن تذهبَ لعملك، أرمي لكَ نظرةً تُدركُ أين تذهب سهامُها.. تقتربُ مني، أقول لك:

- أخبرني.. كيفَ أنـ....

كانت تلك شفاهُ تُقاطعني.

تركتني الملائكة..

فأينَ كتابيا؟

وعن يميني، وعن شِمالي..

أنتَ حِسابيا..

***

"مَن يعرفُ كيفَ يكون
محبوبًا بين النَّاس
يسعى ويُحاولُ نشرَ السَّعادة
مَن يسعى للوصول
لقلوبِ جميع النَّاس
هو مَن يُعطي
الطفلَ الإفــادة
تخيَّل أنَّ الكون،
لا طعمَ له أو لون
أو أنَّ التلفزيون
من غير سبيس تون
هذا محال،
صديقي تعال
لنشاهد أفلامًا وبرامجَ للأطفال
تعال.. صديقي تعال
لحظاتٌ لا تُنسى مع كلِّ الأبطال
لا تنسى أن تبقى
مع سبيس تون
لا تنسى أن تبقى
مع سبيس تون"

٤١

رحتُ أقُصُّ على خالتي قِسمَت ما جرى مع مايا، تسمعني صامتةً، تحرقُ الكثيرَ من أعواد الثقاب، تقول أخيرًا:

- جيناتُها فاسدةٌ، مايا هذهِ..

لم أفهم حرفًا فقلتُ:

- جيناتُها؟ لا.. هي بعيدةٌ كل البعد عن الله وعمياءُ بالحبِّ لو عادتْ لله لطابَ أمرُها..

- الشيخة ريم تتحدَّث؟ قلتي لي إنَّ أهلها حاولوا إبعادها عنه..

- أجل..

- وكلَّما نجحوا في ذلك وحاولت هي أن تفي بوعدها، خانتهم..

- أجل..

- على الرَّغم من كونها من أسرةٍ فاضلةٍ، أي لا عُقَد..

- أجل.

- إذن جيناتها فاسدة. قرأتُ كتابًا نفسيًّا يقول إنَّ تكرارنا للخطأ أحيانًا لا يكون نابعًا من أذى نفسي تعرضنا له فأمسينا بعُقدٍ على أثرها قد تكون السبب وراء هذا الخطأ. دعيني أضربُ لكِ مثالًا.

سمعتُها باهتمامٍ، تقول:

- العاهرة مثلًا.. امتهانُها للعُهر ليس بالضرورة أن يكون لحاجةٍ ماليةٍ، أو بسبب حادث اغتصابٍ تعرَّضت له في صغرها فباعت جسدَها في الكبر. قد تكون مثقفةً ومن أسرةٍ كريمةٍ، قد تكون عالمةً بالله في عُلاه ودينه، قد تكون

طيبةً خُلقًا، لكن في تكرارها للعُهر أو الخطأ دون سببٍ منطقي ملموسٍ، هو دليلٌ على فساد جيناتها..

تبتسم ثُمَّ تقول:

- هكذا خلقها الله.. فلا تلوميها!

شعرتُ بالغيظ والدَّهشة ولم أجد ردًّا لذلك الجنون الذي لم أستسغ. فذهبتُ لغرفةِ المعيشة أُطالع التِّلفاز، معشوقتي MBC2

بهدوءٍ أُشاهد فيلمًا لـ"جيم كاري"، القناع، أضحكُ فتدمعُ عيناى لحركاتهِ الخرقاء. كان يرقصُ بجنونٍ في محاولةٍ منه بأن تُعجب بهِ "كاميرون دياز" الشقراء الفاتنة، يقفزُ هُنا وهُناك، يُثير أصواتًا مُضحكةً، أضحك أكثر لنكاتهِ القذرة التي بتُّ أفهمها دونَ جهد ثُمَّ فجأةً يقوم البطلُ بتقبيل البطلة بعُنفٍ، يأتي أبي فيصيحُ بي بحدَّة:

- هذه القناة ستدمرُّ هذا البيت، والله والله.. لو لم تُمسَح اليوم، لأزوجنَّك غدًا وأخلصَ منك..

أطالعهُ ولا أدري مَن هذا؟ أأبي أم وحشٌ كاسرٌ؟ يجتمع على صوتهِ كلُّ مَن في البيت، يتابعُ بذات الحدَّة:

- امسحي القناة أو أطردك من البيت لأوَّل كلبٍ يتزوَّجك!

يصيح فارس:

- افعلها يا أبي وسأذهب معها حيثما ذهبتْ.

مذهولةً، كنتُ.. أشهدُ أوَّل توبيخٍ قاسٍ من أبي لي، أوَّل مشادة بينهُ وبين فارس، أوَّل مُساندةٍ فعليةٍ من فارس، فارس الذي شعرتهُ ظهري وسندي. بكيتُ من صدمتي حتَّى أُغشي عليَّ.

حملوني لغرفتي، أذكر اشتعالَ أبي بكاءً، لم تبكِ أمي. فارس خرج من

البيت حانقًا، وحسام مغلوبٌ على صمته، أمَّا قِسمَت فكانت مع الكبريت. نظرتُ لأبي وقد أفقتُ، يحملُ يدي في قلبِ يديْه، يطلبُ غفراني، يُخبرني أنَّهُ لم يقصد.. أبكي، يبكي.

- لم أقصد، أنا أبٌ وأخشى عليكِ يا ابنتي، نحنُ في زمنٍ مُهينٍ، أخشى عثراتكِ وعثرات إخوتك. هيَّا انهضي وقولي إنَّكِ بخير..

- أنا بخير حبيبي.

- اطلبي منِّي ما شئت، لكِ ما تتمنِّين اليوم..

- لا داعي حبيبي..

- أرجوكِ اطلبي أي شيءٍ الآن!

- أأستطيع الذهاب لآلاء في بيتها اليوم؟

- تم.. انهضي واغسلي وجهك وأوصلكِ لباب بيتها..

لا أدري إن كنتُ سعيدة لذلك أم لا على الرَّغمِ من كونها أمنيةً أزليةً، لكنِّي شعرتُ بتمزُّقٍ في فؤادي، فأبي دون غيره من البشر، لا أستطيع تحمُّل أن يغضب مني ويُهينَ عمري. فقدتُ شيئًا ذاك اليوم، علمتُ بأنِّي لن أستردَّهُ أبدًا.. نعم لم أستردَّه.

عَلِمَت أمي بخبرِ ذهابي لآلاء فامتعضت وقامت بالرفض فورًا، لولا إصرار أبي وإنهاؤه للنقاش، بينما اكتفتْ قِسمَت بأن تغمز لي. وفي طريق خروجي صادفني فارس الذي أخذني للمرةِ الأولى منذ عمرٍ بعيدٍ بين أحضانه ودخل إلى البيت. لم يضحك لنكتة أبي محاولةً لإرضائه. بدا مُستاءً، فقلتُ لأبي ونحنُ في طريقنا لآلاء:

- حين نعود، سأُصلح بينكما..

فابتسمَ لي وهو يُطالعُ الطريقَ أمامه..

وصلت لآلاء التي ظلَّت لا تُصدِّق وجودي في بيتها على الرَّغمِ من اتصالي بها مُسبقًا وإخبارها بذلك بنفسي. سعيدةً بدت بوجودي. تناولت الغداء عندها. عرفتُ أهلها الطيبين، ثُمَّ أخيرًا قررتْ أن تُدخلَني لعالم الماسنجر، عجبتُ لها، تعرفُ كل شيء عن أي شيء مُقارنةً بي، قالت وهي تنتظرُ دخولها لحسابها الخاص على الماسنجر:

- الآن أُنسيكي ما حدث لكِ اليوم..

رأيتُها تُدخل حسابها البريدي، وتضع كلمة السِّر:

alaa007&reem

أجدُ شخصيْن بلا ملامح لهما ولا يدين، شخصٌ باللون الأزرق وآخرَ بالأخضر.. أسفلهما حلقة لا تكُفُّ عن الدوران إلى أن تختلفَ الصفحة وأرى أخرى. أعلى اليسار اسم الحساب:

Broken Heart

الذي حقًّا لا أدري لِمَ كُسِر أو كيف! وبجانب الاسم صورة لفتاةٍ جميلةٍ جدًّا بدت كعارضة أزياء أو ما شابه. تدخل لخانة الدَّردشات وتحادثُ على ما يبدو شخصًا يُدعى:

Black Nightmare

تضحك وهي تقول وسطَ دهشتي:

- هذا وسام الشريف..

لم أصدِّقها وأنا أدخلُ برأسي في الشاشة، تتعالى ضحكاتها وهي تطلبُ مني الحديث معهُ وقد أخبرتهُ بوجودي عندها. لبرهةٍ قام إلهُ الحبِّ بصبغ العالم باللون الوردي. نسيتُ أين أنا وأنا أنظرُ للوحة المفاتيح أنظر لترتيب الحروف المبعثر، أكتب "كيف أنت؟" في سنة، تضحك آلاء وتتولَّى الكتابةَ

عنِّي.

شعرتُ بهرمون الحب، وصخب اللحظات الأولى فيه، لم أُفكِّر بأبي ولا بأمي، لم أُفكر بفارس الذي دافع عنِّي، لم أفكِّر باللهِ من عَلٍ. وعاشَ فيَّ الفرح إلى أن طلب أن يُحادثني هاتفيًّا. وإذا بالمجنونة آلاء تُعطيهِ رقم هاتفها، لحظات وإذا بهاتفها يرنُّ مع طبولِ قلبي.

راحت تمدُّني بالهاتف الذي لم أقربهُ، راحت تتأففُ منِّي وهي تُجيب بمنتهى السلاسة تقول وسط ضحكاتها:

- والله إنَّها هنا، لكنَّها تستحي..

تنظر إليَّ ثُمَّ تقول:

- كلميه دقيقتين... ألقي السلام!

أخذتُ منها الهاتف، فشلتُ في محاربة يدي وجسدي، واستسلمتُ لقلبي.

نهضتُ ووقفتُ قربَ زجاج النَّافذة وقد اختبأتُ خلف الستائر:

- يا لجحودك، لا تريدين محادثتي؟

- لم أقصد..

- ألهذه درجة تخجلين؟ لم أرَ بخجلك في حياتي..

صوته على الهاتف، كانَ الأجمل.

- لا أحادث الأولاد..

- ولهذا أحبُّكِ..

- ....

- المزيد من الخجل (يضحك)

- أحبُّك.. أحبُّك.. أحبُّك..

- ....

- (يضحك)

أعطيت لآلاء الهاتف، حادثتهُ للحظاتٍ، ثُمَّ سحبتني من ذراعي لنجلس. سألتني عمَّا جرى، أجبتها بما جرى، لكنِّي حقًّا لم أفهم ما جرى.

***

٤٢

"ماذا ترتدينَ الآن؟"

ولم أكُن لأعلم أنَّ هذا السؤال برائحة الذئاب وأنَّه لا يأتي بحُسن نيَّةٍ أو حُسنِ قلب.. سؤالٌ لئيمٌ من رجس الشياطين، إنَّهُ الفخ الذي تقعُ فيه الزهور إلى أن تتحوَّل الزهرة إلى زهرةِ بشوكةٍ. لكنِّي لم أفهم ذلك حين مرَّت بي الأيام وابتاعَ لي أبي هاتفًا محمولًا.. سألني وسام عمَّا أرتدي متأخرًا، وقعُ السؤال لم يحرِّك في نفسي الحب، ومع هذا أجبتهُ:

- "بيجامة"

- لونها؟

- زهري.

- مُغرٍ للغاية..

فابتسمتُ في خجلٍ، قال:

- وأسفل "البيجامة"؟

شعرتُ بالحبِّ بداخلي يتأرجح بقلقٍ، نهضتُ عن السرير صامتةً، لم تكن قِسمَت عندنا، مما أتاحَ لي السهر كما أشاء. وحين ناداني حينَ لم أُجب، قلت:

- ولِمَ تريد أن تعرف؟

- أريدُ أن أشعر بكِ وكأنَّكِ أمامي، وكأنَّكِ معي وبقربي الآن، لا تحرميني من ذلك. يكفي أنَّنا لم نخرج معًا قط.

وراحَ صوته يأخذ منعطفَ الهَمس حين قال:

- صِفي لي ما ترتدين أسفل "بيجامتك"..

لحظاتٌ مُربكةٌ تمضي، قبلَ أن أقول:

- كما ترتدي الفتيات أسفلَ ملابسهنَّ ،ولونهُ أسود.

بذات الهمس يُجيب:

- وما الذي ترتديه الفتيات أسفلَ ملابسهنَّ؟

- ....

- هيَّا ريم..!!

- حمَّالة الصَّدر من الأعلى مثلًا...

وإذا بأنفاسهِ تعلو، وكأنَّما أصابتهُ رعشةٌ في جسده بأكمله على أثرها ينتفضُ، سألتهُ:

- أأنتَ بخير؟

قال:

- هل تعلمين لو كنتِ عندي الآن ماذا كنتُ سأفعل بك؟

بسذاجةٍ أُجيب دونَ تفكير:

- ماذا؟

- لمزَّقتُ عنكِ ما ترتدين وقمتُ بالهجوم عليك وتقطيعكِ قُبلًا..

عدتُ أتمدَّد على سريري بقلقٍ، حينَ شعرتُ أنَّني أحادثُ شخصًا آخر غير وسام. لم أدرِ ما يجري، أَشبهُ بدُميةٍ موثوقةٍ أطرافُها بخيوطٍ يلعبُ بها الحب كنتُ أنا. تُسيِّرني يمينًا وشمالًا ولا أنبسُ ببنتِ شفة. حتَّى بصيرتي أغمضتْ عينيها، بصيرةٌ فقدتْ بصرها، وباركتُ لها ذلك. لم يكن لي الخيار.. أو أنَّه كان لي حق الاختيار وأعرضتُ عنهُ وأعرضَ عنِّي؟

- ريم تصوَّري الآن وأرسلي لي صورتك!

- لا يا مجنون..

- هيَّا تصوري لأجلي.. ألا تُحبينني؟

- بلى أفعل..

- إذن تصوَّري الآن كما أنتِ وأرسلي لي الصورة.. كم أودُّ أن أراكِ، اشتقتُ إليكِ..

- لكنَّني محجَّبة ولا يجوز أن تراني بلا حجابٍ، سأرتديه وأُرسلُ لك..

- تمزحين أليسَ كذلك؟

- لا..

- ريم أنا حبيبك!! وأنتِ مُلكي أنا.. وأنا مُلككِ، وغدًا نتزوج وأرى كل شيء.. (يضحك)

أضحكُ بقلقٍ، تنتهي المكالمة، أقفُ أمام المرآة وقد أسدلتُ شعري الحريري، أضحك لها، وبكبسة زرٍّ أتصوَّر، وبرسالةٍ أُرسلُ له الصورة. لحظات بقيتُ قرب الهاتف أطالعهُ، أنتظر أن أعرف رأيهُ بي وبحق. لوهلةٍ لم أشعر بأي إدراكٍ حولي، سوى بغرور الأنثى فقط وهو يُخبرني كم أبدو ساحرةً وجميلةً وجذابةً، كم أنَّ الحجاب يظلمني ويظلم جمالي. رحتُ أضحكُ بسُكرٍ لكلامهِ المعسول، كلامه الذي شعرتهُ يملأُ ظمأ أعوامٍ بداخلي، وجدتني أعشق كل ما قيل وأضحكُ والهوى عاليًا.

بفرحٍ في اليوم التَّالي أُخبرُ آلاء بأمر الصورة، تتعجَّب لي وتُبارك لي جنوني. فلنقُل أنَّني شعرتُ بأمرٍ عظيم تودُّ أنوثتي استقباله، لكنَّ أمرًا آخر لا يقلُّ عظمةً شعرتهُ يُهدَر في داخلي كعِقدٍ جميل قُطِع فانفرطَ منِّي بسرعةٍ.

يسألني والدي عن صلاة العصر، أُجيبهُ صلَّيت ولم أُصلِّ. تسألُ أمي متى ذلك؟ لا أُجيبها. يدعوني حسام لمعركة مصارعة، ألعب معهُ على عجلٍ، أخسرُ، ولا يهمني، لا يفرح لخسارتي، بل تُزعجهُ لا مُبالاتي باللعب. ولدفتر

مذكراتي أفرُّ قليلًا، أجدُ أنِّي لم أكتب منذُ زمنٍ، أُقلِّب الصفحات بضجرٍ، أكتبُ ملاحظةً مفادها أنِّي أُحبُّ الحب، ثُمَّ أُلقي بالمفكِّرة جانبًا. يأتي الليل فأُسخرهُ بأكمله لوسام الذي يطلب منِّي قُبلة أولى على الهاتف، أُعطيهِ إيَّاها بحب، يأخذها منِّي فيزيد الهَمس وتزداد رعشةَ جسدهِ التي لم أفهمها. يطلب صورةً أخرى بلبسٍ يكشفُ عن جسدي أكثر، أذعرُ للطلب قليلًا، ثُمَّ لا أتأخَّر في إرضاء عينيْه.. كما لا أتأخَّر في إرضاء أنوثتي.

***

٤٣

يراني في المدرسة، يبسمُ لي، أبسم لهُ ولا أرى سواهُ.. يقتربُ منِّي، يمدُّ يدَهُ ليصافحني، أضطرب، يضحك أكثر، ثُمَّ يأخذ يدي عنوةً لتعانقَ يده، ويرحل، لأدرك أنَّهُ ترك ورقةً صغيرةً في كفِّ يدي. أفتحها لأجدهُ يطلب مني بخطٍّ جميلٍ أن نتقابل عند سور المدرسة الخلفيِّ في حصة الدِّين. يزداد اضطرابي، لكنِّي أبدًا لا أُفكِّر.. فأذهبُ إليهِ بكلِّ قلبي.

- اشتقتكِ..

يقول لي، وفي فمهِ السيجارة.

- متى تتوقفُ عن تدخين السجائر؟

- حين تتوقفين عن الخجل (يُمسكُ يدي، فلا أفرح لذلك)

أُطالع الأرضية بقلقٍ، أبتسم ولا أشعُرني أبتسم، يزدادُ ضغطًا على يدي بيدهِ، أشعرُ.. لا لم أشعر بشيء إلى أن التهمَ شفتيَّ سريعًا.

نظرتُ إليه مُندهشةً، لا أُدرك ما قام به في شفتي للتَّو، شفتي التي لم تعُد عذراء، فُضَّتْ بكارتُها تمامًا، أخذَ بكارتها في شفتيهِ وتركَ لشفتي بقايا من طعم السجائر. لم أُذهل، لم أنتشِ، لم تُصبني دهشةَ القُبل كما خُيِّل إليَّ من قبل، حين كنتُ أنتظرها بكل شوقٍ من ألِفَها إلى يائها. ولا أدري.. كيفَ شعرتُ أنَّ ظلِّي في العاشرة يقفُ يطالعني، بذاك الجسد المُتعب والطفولة المُستهلكة، يُطالع تلك القُبلة التي بدتْ ميِّتة، شهوانيَّة، حيوانيَّة في الخفاء. سحبتُ يدي من يده. لم أنطق، لم أصرخ به، كانَ الصراخ داخليًّا، يملأُ جدران الرُّوح التي لا صدى لها، صراخٌ أبكم، لا يُسمن ولا يُغني.. حينها اختفى ظلِّي

الذي في العاشرة، ظلِّي الذي سيبقى غاضبًا منِّي بحجمِ الأبدية!

عدتُ البيت، لأهلِ البيت..

أُطالعهم في قلقٍ، ماذا تُراها ستكون حال الدُّنيا، لو أنَّنا نقرأ خواطر وأفكارَ بعضنا حين نشتعل بالصمت؟ بينهم كنتُ كالمجرمة، كذلك المثل الشهير "تقتُل القتيل".. لكنِّي لم أدرِ من القتيل الذي سرتُ في جنازته!

- ماما أريد تغيير رقم هاتفي..

- لماذا؟

- هنالك أشخاصٌ مزعجون يتصلون بي ويُضايقونني..

- لِمَ لم تُعطي الهاتف لأبيكِ أو لفارس؟

- لن يُجدي ذلك نفعًا.. هلَّا ابتعتي لي رقمًا جديدًا؟

- يصير خير..

وصار، صارَ لي رقمٌ جديدٌ، ومنعتُ وسام عنِّي وعن جسدي، وتصنَّعتُ أمام الجميع أنَّ لي شفاهًا عذراء. عجِبَتْ لأمري آلاء، ونعتتني بالمُتخلِّفة. لم أُبالِ لتخلُّفي إلى أن عرفت أنَّ وسام قد افترى على قلبي كذبًا، وأنَّهُ أخبرَ المدرسة أنَّني أقوم بمقابلتهِ يوميًّا عند سور المدرسة، لنتبادل القُبل واللمسات، وأنَّهُ قامَ بمشاركة صوري مع جميع شباب المدرسة، فتمنَّيتُ لو مُتُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا.

أخبرتُ آلاء باكية، راحت تبكي معي لقهري وهي تأخذني بين ذراعيْها وتلوم نَفسها أنَّها السبب. وجدتها تتوعَّد له وتحلف أن تأخذ لي حقِّي، أخبرتها أنِّي أتمنى لو تفعل كما حدث منذ سنوات، حين قامت بركلِ الفتى بين رجليْه لأنَّه ضربَ أخي. راحت تضحكُ وهي تمسحُ دموعي تُطمئنني، لكنَّني لم أكن سوى فتاةٍ في رحم المُصيبة، ولم أستطع أن أطلب من الله أن

يؤجرني في مصيبتي.

أمي تُحاول فهمَ ما يجري لي، ولا أُصارحها، فتتوعَّد لي بأن لو اكتشفتْ أمرًا أُخفيهِ عنها لكانت آخرتي. يسألني أبي، فأرمي نفسي في قلبهِ باكيةً. ربَّما لو كانت قِسمَت موجودة في الجوار لأخبرتها، لكنَّها أطالت الغياب، لربَّما أخبرتها فتذهب إلى المدرسة بأعواد كبريتها وتشعل في قلوبهم الرعب جميعًا.

وطلَّ من الغيبِ يومٌ جديدٌ، سطَّرتُه الملائكة لله، فيكتُب جلَّ شأنُه ما يريد، فإذا بالكون أجمع أمرهُ بينَ الكاف والنُّون.

تستقبلني آلاء ضاحكة، بدا وجهُها الجميل، أسعد من قبل، تسألني:

- مَن حبيبة آلاء؟

- أنا.

- مَن روح آلاء؟

- أنا.

مَن ستدفع لآلاء مليون دولار لما فعلتْ؟

- بالطَّبع لستُ أنا.

تقول بثقةٍ:

- احزري من سيُرفَد من المدرسة اليوم؟

- مَن؟!

- وسام الشريف.

أشهقُ قائلةً:

- كيف؟

- حلفتُ بالله أن أُعيدَ لكِ حقكِ وألَّا يُبكيكِ أحدٌ إلَّا وأبكيتُه دمًا..

لم أُصدِّق إلّا حينما اختفى وسام فعليًّا من المدرسة، كفصِّ الملح الذي ذاب. لا أذكر أيَّ شيءٍ آنذاك سوى عشقي الشديد لآلاء، التي عاهدتُ الله يومها أن أحفظها بقلبي وألَّا أُفرِّطَ بقلبها أبدًا. فاعتنقتُ فيها الأم والأخت والصديقة، وإذا بها الكون الجميل الذي يحويني.

سألتها عمَّا فعلتْ، فأخبرتني أنَّها قامت بإبلاغ الإدارة أنَّهُ يقوم بالتدخين في المدرسة، ولسوء حظِّه، وجدوا بحوزتهِ سيجارة حشيش. شعرتُ بالاشمئزاز والكُره الشديد له، وعجبتُ للحبِّ الذي أغواني. لكنِّي حتمًا.. حتمًا.. حملتُ لآلاء في قلبي امتنانَ الدَّهر وعرفانه، وأحببتُها حُبًّا خالصًا، ووضعتُها في قلبي موضعَ المُبشرينَ بحُبي.

***

٤٤

أُمسكُ صورةً لي ولهم يومَ كُنَّا صغارًا الآن، أنا في الخامسة، يصغُرني فارس بعام، وقربـُه يقفُ "حثام" ذو العاميْن. كُنَّا نقفُ وخلفنا السماء من على برج القاهرة. تُشاكسنا الشمس وقد كان ذلك جليًّا على وجوهنا المُنكمشة، ومع ذلك ننظرُ للكاميرا بين يديْ أبي، نضحكُ ببلاهةٍ نحوها، نوثِّقُ ذكرياتٍ دون أن ندري فعليًّا أن تلك الصور البكماء.. ستشهدُ علينا يومًا، على تلك الأشباح التي أمسيناها. فستانٌ أبيض كنتُ أرتدي، "منفوش" يتطايرُ مع شَعري المُتطاير، جوارب بيضاء لها أطرافٌ شفافةٌ من السَّاتان، حذاء أسود منقوشٌ في منتصفهِ فرَاشَة، وعلى يميني أخواي، يرتديان نفس الطقم باختلافِ اللون فقط، ولا أدري أين تكمُن الحكمةُ في أن ترفعَ أمي بنطاليْهما إلى صدريْهما؟!!! وكيف كان ذلك يُعتبر راقيًا أنيقًا؟ أضحك الآن لذلك المنظر، وتسليمهما بالأمر دون أن يدريا أنَّهُ حين يكبُران، سيلومان أمي ويتمنيان لو يحرقان الصور.

ظللتُ عالقةً بالماضي، عالقةً بخطيئتي، وزادني ياسر وجعًا، وأصبحتُ أهربُ من حبِّ روبرت، أقضي معظم وقتي خارجًا، حتَّى أنِّي غفوتُ على أحد المقاعد في حديقة Central Park. أعودُ متأخرةً كي لا أجدهُ مُستيقظًا إذ ينامُ باكرًا كالصُّوص، وفي الصباح أتعمَّدُ أن أستيقظَ قبله وأفرَّ إلى الخارج، وفي بضع مرَّاتٍ، لم أنم جواره، آثرتُ الأريكة قربَ التلفاز وجهاز الـ DVD الذي ابتعتهُ خصيصًا لحلقات مواسم مسلسل Friends. شعرَ بي روبرت، لكنَّه لم يقل شيئًا. بالصُّدفة وأنا أنظف الشقة وجدتُ صفحةً لمشهدٍ

محذوفٍ كتبهُ في روايته. وكأنَّهُ يكتبُ عنِّي:

"كسولةٌ، هي، مُمددةٌ على ظهرها، ورأسُها متدلٍّ على حافَّة السَّرير، تُمسكُ هاتفها، تبثُّ في وصلاتهِ ضحكاتها الغجريَّة، وبيدها الأخرى، تحملُ السيجارة، يا ليتني السيجارة.

أُخبرُها دومًا ألَّا تتمدَّد هكذا أمامي، تضحكُ أكثر، تُخبِرُني أنَّها تثقُ بي تمامًا.. ويلكِ.. أنا لا أثقُ بي تمامًا، لا تثقي بثباتي، وادِّعائي لا مُبالاتي.. قالت لي مرَّةً:

- تجعلُني أشكُّ بميولكَ الجنسيَّة، أشاذٌّ أنت؟!

مزحةٌ حمقاء من فتاةٍ أسَرَت عوالمي، وفصولي الأربع، وعواصمِ قلبي، حتَّى تلك التي أجهلها.

أنهَت مكالمتها، وتمدَّدت على بطنها، لربَّما تحالفَت مع الشيطانِ ثالثنا وأحلَّت خلوتنا، لم تكُن هذهِ أبدًا مُفرداتي.. شيطان.. خلوة.. أخذتها منها.. من شرقيَّتها اللعينة.. قالت:

- متى نذاكرُ؟ متى نبدأ في أبحاثِ التَّخرج يا سام؟

تنهَّدتُ مجددًا ونهضتُ عن مقعدي قلتُ لها وأنا آخذُ سيجارتها أُلقيها من النَّافذة:

- هيَّا نبدأ!

لا تكترثْ لما أقول، تهربُ منِّي للتِّلفاز.

- ظننتكِ قلتِ مذاكرةً وأبحاثًا؟!

تُجيبني وهي تُدير جهاز الـ DVD، قائلةً:

- لم أشاهد حلقتيْ Friends بعد!

فعلمتُ أنَّ النَّكدَ قد حان.

لم أفعل شيئًا طوال مشاهدتها للحلقتيْن، سوى مراقبتِها. مراقبة ذاكَ الحنين على وجهها، تلكَ الضحكات الكاذبة، ذلكَ الشرود، ذلك التَّوحد في ألمِ أعوامٍ وأعوامٍ من الذكرى"

- منذ أربعة عشر عامًا، لم أفهم نكاتَهم القذرة في المسلسل، وكلَّما سألتُ ماما، قالت لم أفهم ما يقولون، على الرَّغمِ من تحوُّل وجهها لطماطم كبيرة لشدِّ ما تضحك. أمَّا الآن فألتقطُها وهي طائرة!

تبلعُ ريقًا وتقول:

- المُفضل عندها، روس، لم يكُ آنذاك المفضَّل عندي في عاشرتي، أحببتُ جوي جدًّا، كم هو غبي!! والآن، إن سألتني مَن المُفضل عندي، لقلتُ روس، تمامًا كأمي..

ثُمَّ تنقطعُ أنفاسُها، بنوبةِ بكاءٍ عارمةٍ أدري عواصفَها مُسبقًا!!

أخذتُها بينَ ذراعيَّ، لا أدري ما يُقال، فهي أكثر ما رأتْ عيناي تأنيبًا لنفسِها، صاحت:

- أنا العاهرة..."

قرأتُ المشهد ثُمَّ ضحكتُ عاليًا، روب يستعيرني في روايته الجديدة، روب يقول ما لا يقوله لي، روب يجدُ نفسَه في عمري في كتاباته، روب يحبُّني في كلماته. كوَّمت الورقة أكثر، وأحرقتُها وأنا أُدخِّن السيجارة. عاد يطلبني بعينيْهِ، بصوتهِ، بهمْسه، بأنفاسهِ الهادئة، أرفضهُ.. أرفضهُ جدًّا، أُقرر الرحيل. أرحل.

وبحقِّ المسيح الذي أحببناهُ معًا.. تركتُ له رسالة:

" عزيزي روبرت..

آنَ لي أن أفعل كما فعلتَ مع عصافيرك.. عصفورتك ستطيرُ الآن خارج

قفصك الجميل.. تمنَّ لي تحليقًا سعيدًا.. بالمناسبة، لقد استلزمني الأمرُ أكثر من ثلاثين ثانية لتركك..

مع حبِّي

ريم"

***

٤٥

بوجهٍ شاحبٍ تعودُ إلينا قِسمَت، ويكأنَّ زادَ على عمرها ألف عام. أسألها ما بها، لا تُجيب. بل تحرقُ فضولي مع أعواد الثِّقاب. ولم يمضِ الكثير إلَّا وتفاجئنا بقدومِ جدَّتي بوجهٍ قَلقٍ هي الأخرى. يخونُها جسدُها فلا تستطيع الوقوف، تُصابُ أمي بالذُّعر، يصمتُ أبي صمتَهُ القَلِق. لا نفهم ما يجري.

تبكي جدَّتي ابنتها العانس، من يركُلها الحبُّ من جنَّاته. وكلَّما اقترب منها رجلٌ، فرَّ من أعواد الثِّقاب. أقفُ عند كلمة "عانس" مطوَّلًا، أكادُ أُجزِمُ أن من اخترع اللقب هو رجلٌ ضعيفٌ، رجلٌ ناقِصٌ منقوصٌ. كذاك الخنيث الذي اخترع لقب "مُطلَّقة"، جميعها ألفاظٌ تُرجَم بها المرأةُ في مجتمعٍ لا يرحم، في مجتمعٍ يعشقُ تصدير أحكام الإعدام، والنميمة جهرًا، يأكلونَ لحمكَ حيًّا، يدسُّونَ بعضًا منكَ في وجباتهم، فتبقى في بطونهم إلى أن يقضوكَ كالحاجة!

أقتربُ من دمع قِسمَت أسألهُ عن وجعٍ قديمٍ، تنظرُ إليَّ بعد صمتٍ، تبتسمُ بوجهٍ ليس لها، تقول:

- كم أصبحتِ جميلةً يا ريم.. ماذا ستفعلين بالرجال حين تَكبرين؟

أذكرُ قُبلة وسام لي، فلا أسعدُ لسؤالها كثيرًا، أسألها:

- ما قصَّة الكبريت؟

تُشعلُ عودًا وكأنِّي ذكَّرتُها، ثُمَّ تقول لي:

- حين نكون في منزل الجدَّة أُخبركِ..

أكادُ لا أصدِّق، فأقول ضاحكةً:

- هيَّا بنا لمنزلِ الجدَّة الآن!..

- تُشبهينَ وجعي يا ريم..

لم أدرِ عن أي وجعٍ تتحدَّث، لكنِّي وافقتُها الرأي صمتًا. وفررتُ لكتاب ذكرياتي أخبرهُ أنَّ الحب ليس بالضرورةِ يجعلنا أجمل، بل إنَّه أحيانًا يجعلنا قبيحينَ كفاية لنلعن العشق والعاشقين، حينَ نصبح مسوخًا من أنفُسنا لا أكثر ولا أقل، حين تُصبح خيباتنا هي لسان حالنا. والخيبة في الحب لا تُشبهُ أي خيبةٍ، لأنَّها تدفعُنا دفعًا لتلك المرحلة الرَّماديَّة، لا أنتَ بميتٍ ولا أنتَ بحي، كجسدٍ هالكٍ بين السماء والأرض، لا أنتَ بآخذٍ لأي شيءٍ من حولك سوى الوجع، وفن الإيلام الذَّاتي، حينَ تجلدُ عمركَ بالماضي والذكرى، فيُنفى كل ما هو آتِ.

نظرتُ لقِسمَت وأنا أكتبُ، لوجهها الذي أجزمتُ أنَّهُ شبحٌ منها، قلتُ لها:

- لقد قبَّلني وسام..

تُجيبُ بهدوءٍ:

- وأين المشكلة؟

لم أتفاجأ للامُبالاتها، هي أخرى مناشدة بالحرية والعشق، قلتُ لها:

- الملعون أخبرَ المدرسة بأكملها وطغى في كذبهِ وافترى، ولولا أن ساعدتني آلاء ورُفتَ من المدرسة، لطالني من شرِّه أكثر ما طالني..

- ألم تنتقم لكِ آلاء؟

- أجل؟

- إذن تعلَّمي أن تنسي المريرَ من التجربة، بل من أي تجربة، وأن تسألي نفسكِ سؤالًا: ما الذي تعلمتُهُ من هذهِ التجربة؟

- لا شيء.

- لا شيء يا مفترية؟

- لن أعيد التجربة حتمًا وسأحرص في اختياراتي مستقبلًا.

- فقط؟

- فقط.

- وماذا عن التقبيل؟

- ماذا عنه؟

- ألم تتعلمي كيفَ هو التقبيل؟ (تضحك)

فأضحكُ معهَا، خالتي قِسمَت، الخالة ورطة.

راحت تُنادي بصوتٍ عالٍ:

- فارس، يا فارس!

يأتي فارس مُستجيبًا لندائها، تقول:

- خذْ هذهِ النقودَ واذهبْ لعم ناجي وابتعْ لنا البذرَ بأنواعهِ والفول السوداني والمثلجات..

- وما المناسبة؟

ترفعُ قِسمَت حاجبًا قبل أن تقول:

- اذهب يا *** دون أسئلة!

نضحك كلانا من بذاءتها، يأخذ فارس النقود منها وهو ولا يزال يترنَّح ضاحكًا من سبِّها إيَّاه.

***

٤٦

كنتُ في أحدِ الأيَّام أقلِّب التِّلفاز بضجرٍ، أتثاءبُ بمللٍ. أقفُ عند قناتي المفضلة قليلًا، يبدأُ الضجر بالانسحاب مودِّعًا إيَّاي، يمرُّ أبي، أُقلب القناة فورًا كي لا يغضب، وإذا بفارس يناديني من غُرفتهِ. بدا قلقًا، وكأنَّ أمرًا يُزعجه:

- احلفي ألَّا يخرجَ هذا السرُّ أبدًا!!

- والله لن يخرج، والله سرُّك في بئر..

يُغلقُ البابَ من خلفي، ينظرُ إليَّ مُتعبًا، يقول:

- كنتُ أستخدم جهاز الحاسوب في الصالة، وأردتُ أن أجلبَ شيئًا من هذهِ الغرفة حين..

يُخفض صوتَهُ أكثر:

- حين وجدت حسام يفعلها..

- يفعل ماذا؟

- ريم لا أحتاج غباءكِ الآن..

- صدقًا، لا أدري عمَّا تقصد.. يفعل ماذا؟

يقول بغضبٍ:

- يا الله!! وأنا لن أستطيع أن أقول ما الذي وجدتهُ يفعله صراحةً..

- اكتبْ على هذهِ الورقة!

يأخذُ الورقة بحزنٍ ثُمَّ يكتبُ لي بخطِّهِ السيئ.. أنظرُ لما كتب، ثُمَّ إليهِ، ثُمَّ إلى الورقة. عجبتُ لما كُتب، أنا التي ظنَّت أنَّ الأعضاء التناسلية خُلقـَت

لدخول الحمَّام لفترة طويلة من الزمن، ثُمَّ أعرفُ بعدها متأخرًا أنَّها بوابتنا للجنس واللذة. وها أنتَ يا فارس تُخبرني عن العادة السريَّة؟ وما دخلي أنا؟

ضربتُ على صدري، قلتُ له:

- أين هو الآن؟

- وبَّختهُ وأمرتُه بالاستحمام..

- وماذا سنفعل؟

- لا أدري، إنَّه لا يزال طفلًا صغيرًا..

فقلتُ بمرارةٍ شعرتُ بها في قلبي:

-"حُثام"!

جميعُنا لا نزالُ أطفالًا صغارًا على المصائب، وليتنا بَقينا. يخرجُ حسام من الحمَّام بوجهٍ أسود، هو يدري أنَّ فارس قامَ بإخباري، وأنَّنا لن نُخبر رابعًا، رحتُ أبكي، رآني أبكي، فنظرَ بعيدًا كي لا يبكي.

خرجتُ لكتاب ذكرياتي أشكوهُ المسوخَ التي أمسيناها، لكنَّهُ ظلَّ صامتًا جامدًا.. لم أستطع أن أُحدِّث الله أشكوهُ أمري. فلم أقرب منهُ صلاةً لكي يأتي إليَّ هَرولة.

فررتُ لغرفتي.. نظرتُ لقِسمَت:

- أرجوكِ توسَّطي لأمي أن أذاكر للامتحانات في بيت الجدَّة برفقتك.. وأن نبيتَ عندها..

تجيبُ وهي تطالعُ المجلَّة وبقربها فنجانُ قهوتها:

- تعلمين أمَّك عنيدة ولن توافق أن تبيتي هناك..

- أرجوكِ يا خالة.. أرجوكِ!

أخيرًا تنظرُ إليَّ، إلى أمرٍ كبيرٍ يُتعبُني، تقول:

- ما بك؟

- لا شيء.

- أرجوكِ أخبريها..!

- انتظري هنا!

تنهضُ بجسدها النحيل، تُمسكُ ظهرها كالعجوز، تتأوهُ ملامحُ وجهها ألمًا فتنكمش، ثُمَّ تعود طبيعتها فتنفرج.

أسمعُ حديثهما من خلف الباب، همسٌ خفيفٌ، ثُمَّ تتعالى الأصوات في غضبٍ، كلٌّ منهما يفرض نفسه في إدارة الحوار. . تكسبُ أمي.

تعود قِسمَت تجرُّ أذيال الهزيمة، تقول:

- لا مبيت بمفردك كما العادة، سمحت لنا بالذهاب والعودة غدًا صباحًا..

- يا الله كم تقهرني حين ترفضُ هكذا كل الأشياء بلا مبرر. تخيَّلي، لم توافق قط على أي رحلةٍ مدرسيَّةٍ تعدُّها المدرسة منذُ عرفتُ معنى مدرسة. لطالما كنَّا نتغيَّب عن الرحلات المدرسيَّة ونذهبَ في اليوم الذي يليهِ لنستمع لِما فعلهُ الطلابُ في الرحلة، وكيف استمتعوا دوننا.

أتأففُ بضجرٍ، فتقول الخالة:

- أمُّك لم تكن هكذا، ولن تُصدِّقي ما الذي فعلتهُ في مراهقتها مقارنةً بك..

أنظرُ إليها بدهشةٍ:

- ما الذي فعلتْه في مراهقتها؟

تُجيب وهي تُقبِّل وجهَ القهوةِ برشفةٍ:

- حين نذهب للجدَّة في الصباح الباكر..

تضحكُ وهي تغيظني، أشتاقُ لآلاء، فأهرعَ لهاتفي أُحادثها..

***

٤٧

في شقةٍ أصغر، وجدتني، لم تكن بعيدة جدًّا عن المكتبة. عشر دقائق بسيارة الأجرة، ثلاثون دقيقة مشيًا على الأقدام، لكنَّني كنت أحملُ همَّ رعد، سيبقى بالساعات بمفرده، فجلبتُ له قطةً أسميتُها "كاي". وكان عليَّ أن أبحثَ عن شريكةٍ في السكن أتقاسمُ معها الإيجار. لم يكن ذلك صعبًا بعد أوَّل إعلانٍ في جريدةٍ ساعدتني في إرسالها جوليا اعتمادًا على علاقاتها بالجرائد والمجلَّات.

"رايتشل".. أحببتُ اسمها المُطابق لشخصية رايتشل في مسلسل الأصدقاء. كرهَت رايتشل سجائري، كانت تشمئزُّ منها، كلَّما أشعلتُ سيجارةً راحت ترشُّ الأرجاء بمعطِّر الهواء..

تسألني:

- لِمَ تُدخنين على أيةِ حال؟

حقًّا.. لِمَ أُدخِّن أنا؟ تبًّا لهذا التبغ المُدمِّر، لكن..

السيجارة لها وقعٌ خاص في قلبي، السيجارة تفهمني، تُعطيني قلبها دون مقابلٍ، تحرقُ نفسَها من أجلي- ورئتيَّ معها- تُفكر معي، تُجيب تساؤلاتي، تُهدِّئني أحيانًا، هي طبيبي النَّفسي، أو لنقلْ، أطبائي النَّفسيين الأقزام في قلبِ معطفي أو حقيبتي. السيجارة هي صديقتي التي لا تملُّ منِّي، ولا تكلُّ من تقلُّباتي، من ثوراتي، وحتَّى في ذلك الأسبوع البئيس من كل شهر، تصبر معي وتؤازرني. لم أشرح ذلك لرايتشل، أشعلتُ سيجارة أخرى.

والحقُّ أنِّي لم أتوقف عن إشعال السجائر منذ تركتُ روب، ومنذ هجرني ياسر. حاول روبرت بشتى الطرق إرجاعي، توسَّل إليَّ، ثارَ عليَّ، اتهمني بالغدر، أنا لم أغدر به، كلانا غدرَ بي. حتَّى أنِّي قبيلَ رحيلي كتبتُ له شيكًا بنصفِ ما أملك ولو لم يكن بكثيرٍ، وحتَّى وإن لم يحتجه، شيءٌ ألزمني بضرورة فعل ذلك، ربَّما لأقنعهُ ولأوهم نفسي أنِّي غالية، وأنِّي مسيطرة، وأنَّ المال لم يعنني، وأنِّي في النهاية أعدتُ له ما قام بإنفاقهِ عليَّ ويزيد، وأنِّي أنا من وضعتْ ثمنًا لتلك الليالي بطعم الجنس.. ومن وضعتْ بقشيشًا علاوةً على ذلك!!

لم يفهم ذلك روب، ولن يفهم. الرجل قد يفهم أي شيء في الوجود، إلَّا أن تهجرهُ امرأة، يتحوَّل لطفلٍ ضاعت منهُ دميته، طفلٍ كبيرٍ لن يغنيهِ إصبع الإبهام حين يضعه في فمه، هو فقط يريد "الماما" بكل ما فيها، بصبرها، بحبِّها، باحتوائها، بقلبها الأكبر عُمرًا من قلبه، وعقلها الأصغر حجمًا من عقله، يريدها بكاملِ أنوثتها، بقمصان نومها الحريريَّة، بدلالها على الأسرَّة، بحرصها وخوفها وحماقتها.. ومع هذا، يريدها كُلَّها دون أن يسقط عنهُ حق القوامة، وسيظل الرجل قوَّامًا، هو والقوامة كهاتيْن.

لكنِّي لستُ فتاةً طيِّبة يا روبرت، أنا قاب قوسين أو أدنى دون ذلك.

لم يعد عندي ما أخسره، ماتت العذريَّة ورحل عنِّي الأهل..

***

٤٨

وفي المكتبة، أرُصُّ الكتب بانتظامٍ، كذاك الألم في رفوف قلبي. تُخبرني جوليا أن أفعلَ أي شيءٍ للمرح في العطلة الأسبوعية، أجيبها أنِّي سأفعل، ولا أنوِي الفعل.

انتهى يومٌ بدا كغيره من الأيَّام، لكنَّه لم يكن كغيرِه حين ظهر ياسر أمامي.

- قالت لي جوليا أن أقوم بشيءٍ للمرح اليوم، ما رأيك لو قبلتَ دعوتي للتَّزلج على الجليد؟

- من هي جوليا؟

- رئيسة عملي.

- لا أستطيع التَّزلج على الجليد..

- إذن تعالْ جرِّب الأمرَ لتسقطَ أرضًا وأضحك بدوري لسقوطك!

يمنع نفسهُ جاهدًا من الضحك، ولا يقدر، فيشتمني، فأضحك.

وكنتُ برفقتك، على جليد نيويورك، أعجب لتزلُّجك بصعوبةٍ، ففي جليد قلبي أجدكَ تتزلَّج ببراعة. كان يقف في منتصف الساحة، كقطٍّ مسكين، أضحكُ أكثر وأنا أُحلِّق حولهُ كالفراشة. إلى أن وقفتُ في آخر الحلبة لأتزلج باتِّجاهه فأُسقطهُ، والحقُّ أنِّي من سقطَ على مؤخرته. راح يضحك حتَّى احمرَّ وجهه وهو يلتقطُ لي صورًا سريعةً بهاتفه، أراد تخليدي في هاتفه، ولم يدرِ أنَّهُ خالدٌ مُخلَّدٌ في فؤادي. ومع هذا كنتُ أدركُ جيِّدًا كم قسوت عليه في مقابلتنا الأخيرة وكم بدا خذلاني له واضحًا على وجهه حتَّى لو حاول إخفاءه.

- أتحبينَ المثلَّجات؟

يسألني مُعانقًا يدي، أُحبُّ يدكَ أوَّلًا قبل المثلَّجات. أجيبهُ:

- هي عشقي..

وعلى أرجوحةٍ، أكملنا باقي السهرة، قلتُ له:

- لم أفعلْ هذا لسنواتٍ، ذكَّرتني بصديق طفولتي..

- وهل أخبركِ صديق طفولتك أنَّكِ بدينةٌ وهو يقوم بدفعك؟

يضحك، أضحك.

- ياسر..

أصمتُ قليلًا فأقول:

- أنا حقًّا آسفة لما بدرَ منِّي، لكنَّكَ غضبتَ فهجرتني، فكيفَ تهجرني والقلب لكَ يأتي مُهاجرًا؟ أتردُّ قلبي وهو في هجرة؟

لم يُجبني، أجابتني شفتاه التي منهما شعرتُها قُبلتي الأولى..

- هذا جنونٌ كبيرٌ، لا أعرفُ حتَّى من أنت، ولا كم عُمرك.. أدري فقط أنكَ قاهري..

- شكليَّات..

يقولها وهو يلتهمُ آخر قطعةٍ في بيسكويت المثلَّجات، أقول:

- أتدري لو أنَّنا بطلان ما في روايةٍ، وسردَ الرَّاوي ما حدث بيننا للتَّو، لاتهمه القراء بالسطحية والجنون؟

- إذن هم قراء حمقى لا يفهمون..

- لا يفهمون ماذا تحديدًا؟

لم يُجبني، سحبني من يدي وراح يُراقصني، قال:

- نظرًا لعدم وجود موسيقى، تخيَّلي الموسيقى الأقرب لكِ ونحن نتراقص الآن!

- معرفتي ضئيلةٌ بالموسيقى.

- بائعة كتب غبيَّة، تحرمينَ نفسك من لذة الموسيقى..

- يانِّي ربَّما؟

- الآن تتحدَّثين.. أي مقطوعة؟

- Prelude and Nostalgia

- كئيبة، لكن أبهرني اختيارك، من ساهمَ في جعل اختيارك راقيًا؟ هيَّا أغمضي عينيْك وراقصيني على ألحانها!

أضحك، يبتسم.. يراقصني.

***

٤٩

كنتُ في بيت الجدَّة حين أخرجت لي قِسمَت صندوقًا كبيرًا من أعلى خزانتها الخشبية، نفثت عنهُ الترابَ باسمةً، مسحت يديها بحُبٍّ من نوعٍ آخر لم أفهمه، تنهدت.. بشهيقٍ من الأمس، وزفيرٍ لما اختفى وولَّى.. وضعت العلبة على السرير. أخرجت نظَّارة من دُرجٍ مُجاور، لم أدرِ قبل تلك اللحظة أنَّها ترتدي واحدةً، أسألها:

- نظارة؟

أجابتني بحسمٍ:

- نظري ضعيفٌ للغاية ولكنِّي لا أُحب أن يعتادني النَّاس بها، حتَّى إذا خلعتُها، ظنَّني النَّاس أخلعُ وجهًا وأستبدلهُ بآخر!!

استغربتها كما دومًا، شيءٌ فيَّ أحبَّ قِسمَت ، شيءٌ غريزي دفعني لها دفعًا، لا أدري ما هو، على الرَّغمِ من قشعريرة جسدي التي لا تنتهي كُلّما أشعلَتْ كبريتًا. أحببتُها دونَ أن أُصرِّح لها بذلكَ جهرةً، خشيتُ أن يفقدَ الحُبُّ معناه حين أخبرها بذلك، دومًا ما وجدتُني أؤمن أنَّ الحبَّ في بعض الحالات أجملُه صمتًا، إذ أخشى عليه من تلوُّث الواقع وتلكَ الضوضائية المُسمَّاة "العَلَن"، أحيانًا أجدُني أُبارك عُتمةَ الحبِّ، حينَ يُخفيهِ سِتار القلب. وعلى النَّقيض حبِّي لآلاء كانَ صارخًا، مُبالغًا فيه، حرفُ اسمها A بالأسود لم يُفارق يدي ودفاتري، حتَّى حائط غُرفتي لم يسلم منها، أحببتُها وكان الجنون مذهبي. أذكرُ في مرةٍ اتهمتني أمي بالشذوذ، لشدِّ ما أُحبُّها، ضحكتُ لاتهامها، وقلتُ في نفسي إنَّني لو كنتُ رجلًا لتزوجتُها.

أخرجت لي قِسمَت ألبومَ صورٍ كبيرًا وقتها، وضعته على رجليْها، تنال تبريكات أعواد الثِّقاب، نظرت إليَّ ثم قالت:

- هذهِ الصور في الثمانينيات، انظري إليَّ كيف كنتُ زهرةً، هذا عادل حبيبي، عادل لم يكُن عادلًا يومًا في حبِّي..

العجيب، أنَّ سردها للقصَّة كان هادئًا جدًّا، ذكَّرتني بحكايا سبيس تون، بتلكَ الانسيابيَّة والبهجة، لم أجد في صوتها أو وجهها ما يشي بالوجع، الحكاية فقط، هي كُل الوجع. تقول:

- لم يكُن عادلًا يومًا في حبِّي، وحلَّلتُ لهُ الظلمَ عليَّ، بقصفِ قلبي بوابلٍ من جبروتهِ، وحرق ما بروحي من فرح، لم يكُن عادلًا، حرَّمَ عليَّ الجميلَ من الحُب، كانَ حبُّه كالمطر، مطرٌ من سماءِ الحُزن، ولم أكُن سوى جثَّةٍ لا حولَ لها ولا قوَّة، جثَّة تُعطي ولا تستقبل، بل إنِّي كنتُ مُبرمجةً ذاتيًّا لاستقبالِ ما يُحطِّمني منه، ومع هذا أحببتهُ حُبًّا صاروخيًّا، سرمديًّا، عبثيًّا، وكأنَّني خُلقتُ على فطرةِ حُبِّه، وكأنَّني لم أعرفُ قبلَ حبِّه شيئًا، ولا بعدهُ.

تبلعُ ريقًا وهي تطالع صورةً في عشريناتها، بقَصَّة شَعرٍ قصيرةٍ، كم بدتْ تُشبهُ شادية في ملكوتِ عُمرها، وفي صورٍ أخرى بدتْ بدلالٍ دلال عبد العزيز، وأحيانًا بشقاوة الجميلة بوسي، أنظر لوجهِ اللحظة، لم أجد بقايا لما هو في الصور، وكأنَّها امرأة أخرى، مُهانة بخطايا الحُب. يا إلهي، كم تُذكِّرنا الصور القديمة بخيباتنا، وكأنَّنا لم نكنُ أولئكَ في الصور، حتمًا لسنا نحن.

تقول:

- انظري إليه..!!

أُمسكُ بالصورة، اتذكرُ أنَّني شاهدتها منذُ سنواتٍ حين وصلتُ القاهرة. لم أقُل لها أنِّي شاهدتها مُسبقًا، فعين العاشرة، ليست كعين السابعةَ عشرة.

انتفضَ قلبي ليدهِ المعانقة لخصرها، لذلكَ الحُب الجميل في عينيْها، بينما يقفُ هو يُطالع الكاميرا كطاووسٍ في موسم التَّزاوج.

وجدتني أسأل:

- إلى أي مدى هو سوء حظِّك في الحب؟

- ممممممم .. هل سمعت بصخرة "الكيراجبولتن"؟

- لا..

- صخرة "الكيراجبولتن" هي من أشهر صخور النِّرويج إذ تقع هذهِ الصَّخرة التي تُسمَّى بالصخرة المُعلَّقة كذلك بين جبليْن من سلسلة جبال "كيراج"، وهي كاسمها.. صخرة مُعلقة حرفيًّا على بُعد آلاف الأقدام ويذهب إليها السُّيَّاح من حول العالم لتجربة لذة الوقوف عليها وهي مُعلَّقة في السماء..

- لم أفهم.. ما علاقة سوء حظِّك بالصَّخرة؟

- لو ذهبتُ إلى النِّرويج وأتى دوري بالوقوف عليها.. لسقطتْ بي هذه الصخرة.

أنفجر ضحكًا.. تتابعُ قائلةً:

- أليس جميلًا حبيبي عادل؟

لم أُجبها وأنا أُطالع باقي الصور بدهشةٍ، نوادٍ ليلية مُشاكسة، وأُقسمُ أنِّي شاهدتُ كؤوس النَّبيذ تُداعب الطاولات، تجلس خالتي قِسمَت وحبيبها على طاولةٍ كبيرةٍ، وأمامهما، مهلًا.. أمي!! ومَن هذا الغريب معها؟

تضحكُ قِسمَت من وجهي وعيني الحائرة، لم أدرِ ما أقول، تسحبُ منِّي الصورة.

أبلعُ ما رأيت، لكنَّهُ بقي بحلقي عالقًا كالغُصَّة.. أسألها:

- مَن هذا مع أمي؟

تضحكُ عاليًا، ثُمَّ تقول:

- بالطبع لم تحكِ لكِ القدِّيسةُ فاطمة عن ماضيها..

لم أكن قويةً كفايةً، لأعاندها وأعيدَ طلبي، تشعرُ بقلقي، تقول:

- يا صغيرتي.. ألم تسألي نفسك ما سر قسوتها عليك؟ هي لا تريد نسخةً ثانيةً منها، لا تريد الماضي أن يتكرر أمامها. أمُّك لم تتعلم من الماضي على عكس ما تظن، هي خجلةٌ منه، لا تعترفُ به، وهذا لا يجوز في عُرف التعلُّم من الخطأ. هي تكاد تنفيه، وعلى الجهة الأخرى تسعى لتجنيدك ظنًّا منها أنَّها تقوم بما هو في صالحك!!

أسألها بصوتٍ يكادُ يُسمع:

- ومَن هذا الذي يُرافقها بالصورة؟

- حبُّها الأوَّل.. أو فلنقُل جنونها الأوَّل والأخير.. عليّ!

- وما الذي كانا يفعلانه كعاشقيْن؟

تبتسم قِسمَت وهي تلعبُ بخصلات شَعري قائلةً:

- ما يفعلهُ أي عاشقيْن.. أُخبركِ بكلِّ هذا لكي لا تقسي على نفسك بما حلَّ بك مع وسام. تعلَّمي من أخطائك لكن لا تخجلي منها أبدًا!

سألتُها محاولةً الهروب من ماضي أمي:

- متى نعود أدراجنا؟

- أقُمتِ بالمذاكرة لهذا اليوم؟

- لا، لا مزاجَ لي، مع أنِّي قمتُ بجلبِ كُتبي معي..

- لا يا روح خالتك، ذاكري وأنهي دروسك هذا الأسبوع!

- لِمَ إن شاء الله؟

- ألم تطلبي أن تبيتي هنا لتذاكري للامتحانات؟ حصل يا قمري..

- احلفي بالله!!

- والله..

- كيف؟!

- بالاتِّفاقِ مع أبيكِ الذي لا أُحب..

أقفزُ لأحضنها وأملأها قُبلًا، تقول:

- سيدق الباب بعد عشر دقائق، أو ربَّما أقل..

- خير؟

- يا طير، اصبري على رأسك اللعنة..

أنتظر لعشر دقائق أو أقل، يدقُّ أحدهم الباب بالفعل، لربَّما هي أمي قادمة لتأكلنا، افتحُ الباب لأجدها آلاء ضاحكةً بحقيبة ملابسها للمبيت معي. :)

***

٥٠

وكنتُ أنا، بقُربي جميلتي آلاء في إحدى المحاضرات الجامعيَّة، وقد مضينا نحنُ، قبلَ أن تمضي بنا الأيَّام.. أتممتُ العشرينَ من العمر..

تقولُ آلاء لي:

- كم أكرهُ هذهِ المادَّة!!

أُطالعُ نصفَ وجهها بحُبٍّ، لبياضها المُشرب بالحُمرة، لأنفها المميز بفتحةِ الثمانية، عينانِ تُشبهان عينيْ أصالة نصري كثيرًا، حاجبان رفيعان، كُلَّما أخبرتُها أن تَكُفَّ عن ترفيعهما وأن تنعمَ بحاجبيْن كثيفيْن، لم تسمعني، ومع ذلك أحببتهما برُفعهما، إلى شفاهٍ كالفراوِلة، وجسمٍ مُمتلئ لكن مُتناسق بشكلٍ فظ، لكنَّ غرورها أحبَّ أن يتساقط الرِّجال على أعتابها، لم تُصرِّح بذلك، لم يقرأها أحدٌ سواي.

أُجيبها:

- لا عليك، آتي إليك أو تأتينَ إليَّ ونذاكرها معًا.

- ما زلتُ إلى الآن لا أُصدِّق أنَّكِ تأتينَ إلى منزلي.

- السيِّدة آلاء والسيِّدة ريم، هلَّا تؤجلان الحديث لبعد المُحاضرة؟

كانت تلك الدكتورة فريدة، تنهرُنا للمرَّة المائة، نضحكُ خفيةً، تُمسكُ آلاء كتابي، تكتبُ أعلاهُ بالجاف:

- رامي حبيبي قادمٌ لأخذي من الجامعة اليوم..

أمتعضُ للخبر، ولكنِّي لا أقولُ شيئًا.. فما الذي يُقال لعاشقةٍ عمياء؟!

تنتهي المُحاضرات، ويأتي رامي بسيارته، ووسامةٍ لم أرتح لها يومًا، يُلقي

على كِلتيْنا السلام. أُجيبهُ بحذر، وكالعادة، يعرض عليَّ أن يوصلني لأقرب محطة مترو، كعادتي أرفض.. كما أرفض علامات القُبَل التي يترُكها على عُنقِ آلاء كُلَّما تقابلا.. كما أرفضُ لقاءاتهما التي لا تليقُ بالحبِّ. أكتمُ في نفسي رفضي، وأُلقي السلام عليهما راحلةً.

وفي البيت..

يفتحُ أبي لي الباب، يُحييني، أُقبِّلُ يدَهُ امتنانًا لأبوَّتهِ. يأتي فارس ويضربني بيده خلفَ عُنقي ضاحكًا، أركضُ وراءه، يسبقني، أصيح:

- يا تعيس!

ثُمَّ أضحك.. عادَ لتوِّهِ من الجامعة كذلك، أصبحَ رجلًا في عامهِ الجامعيِّ الأوَّل. وسيمٌ يُشبهُ أبي، طويلٌ أسمرَ اللون، رموشُ عينيْ أخي أجملَ من رموشِ عينيَّ بالماسكارا، أضحكُ لسخريةِ الأقدار. وأمام التِّلفاز، يجلسُ حُسام الذي لم يعُد يُشبه "حُثام"، يظهرُ شاربه قليلًا.. تنهرهُ أمي بأن يقفل التِّلفاز وينتبه لدروس الثَّانوية. ينظرُ إليها بضجرٍ، فلنقُل، إنَّ حُسامًا كان الأكثر كسلًا بيننا، وبذكرِ الكسل، فإنَّ أبي لقَّبَهُ بالدُّب الكسلان، ربما لبضعة الكيلو جرامات التي اكتسبها، أو لحبِّهِ الشديد للنوم والطعام.. لكنِّي أجدُ حسامًا الأطيبَ بيننا.

تُناديني أمي من المطبخ أن أساعدها في غَرفِ الطعام في الصحون ونقلهِ إلى المائدة. تلومني للمرَّة الألف بعد المائة أنَّني أكثرَ منها طولًا ولا أُجيد الطبخ، تتوعَّد بأنِّي سأُطلَّق من ثاني أسبوع، ثُمَّ لاحقًا ونحنُ نأكل تُرغمني أن أُنهي صحني كُلّهُ كي يدعو لي.

حبُّها السهل المُمتنع..

رحتُ أتمدَّدُ على رجليْها بعدَ الغداء، لم أفعل ذلك منذ زمنٍ.. كانت تضعُ

دهنًا ما على وجهها، تنتهي، ثُمَّ تنظر إليَّ، تمسحُ بيديْها على رأسي، أجدني أقول لها:

- أتشعرينَ بحائط الحبِّ بيننا يا ماما؟

تستقبلُ سؤالي بصمتٍ تشوبهُ الدَّهشة، تقول بعنفٍ:

- ماذا تقصدين؟ وأنتِ حبُّكِ كلُّهُ من نصيب آلاء.. آلاء التي لا أرتاح لها من ألفِها إلى يائها، سُبحان من يرمي بالحبِّ والكُرهِ في قلوبِ عباده!

ترمي برأسي على الأريكة وقد نهضتْ تَتعلَّلُ بتحضيرِ الشاي.. تعرضُ عليَّ أن تعُدَّ لي واحدًا، أرفضُ بهدوءٍ وأنا أُطالعُ السقف. أشعرُ بنعاسٍ يرغمني على النهوض لغرفتي. أنظر لأبي في طريق ذهابي، أجدهُ مهمومًا مع مصائب الجريدة في حضورِ القهوة التي تسألهُ أن يحتسيها قبل أن تسمعَ الأخبار.

أُحضِّر السَّرير لأنام، وألمح سجادة الصلاة التي لا أقربها..

لم أكد أذهبُ في النَّوم إلَّا واتصلت بي آلاء تخبرني أنَّها قادمةٌ عندي، نالني من صوتها كُل القلق، تأتي ترميني بذُعرها، تطلب مني أن أحادث أخاها مصطفى حين يتصل لأخبرهُ أنَّنا أنهينا المحاضرات وتوجَّهنا لمنزلي وأنَّها لم تسمع الهاتف لأنَّها في الحمَّام تستحم عندي كما تفعلُ أحيانًا، كان الكذبُ من أجلها واجبًا لا تشوبهُ شائبة، حتَّى وإن كانت تعلم أنَّني وأخاها الأكبر لا نتفق، بل إنِّي لا أُطيقه بتاتًا، فعيناه شهوانيتان مثل عينيْ رامي حبيبها. يتصل أخوها، أجيب، أُتلو عليه ما حفظتُ من الـكَذِب، يسمع تراتيلي، لا يطمئن، لكنَّني حادَّة وواثقة كفاية بأن يفعل. تنتهي المكالمة، يُنيرُ وجه آلاء، فتملأني قُبلًا. تأتي تتمدد جواري على السرير، تُقبِّل يدي امتنانًا، لكنِّي أمنعها. أبكي لكنَّها لا تراني، أو ربّما تراني لكنَّها تنكرُ دموعي الباكية من أجلها. أنظر لعُنقها، آثار قُبَل جديدة. أجدُني أسألها:

- ما الذي حصل؟

تنظرُ إليَّ بعين الدهشةِ، فأنا لم أسألها يومًا عمَّا حصل، كان جسدُها مَن يحكي لي بأساطير الجنس والسرير، جسدُها الذي يشي أنَّه استوى من شفتيْ رجلٍ، ومن يديْهِ اللتيْن تعصرانها كعناقيد العنب فيصنعَ منها خمرًا لا يحتسيهِ أحدٌ إلَّاه.. تقول:

- ذهبتُ لمنزله.

تبتسم وهي تُطالع السقف:

- لا أدري ما حصل، كُنَّا نستبق، يسبقُني دومًا، وأنا في فرطِ الدهشة، والحيرة. أفعل ما يطلبُ مني بحبٍّ، وكأنِّي منوَّمة عشقيًّا. هذهِ المرَّة، لم يكتفِ برفع ملابسي، هذهِ المرَّة جرَّدني منها.. هذهِ المرَّة رأيتهُ عاريًا، لكنَّني لم أره. منعتُ عينيَّ عنهُ، غضضتُ البصر، لكنَّهُ ظلَّ بي، يتسلقني ولا يصلُ إلى القمة.. فيثور أكثر، ومن تحتهِ أنا أُطالعهُ.. لكنَّني ما أزالُ عذراء.. لكن..

تصمتُ قليلاً ثُمَّ تقول:

- فعل بجسدي كُلَّ شيءٍ، إلَّا العذريَّة..

لا أدري إن كرهتُ سؤالي لها، أو أنَّني كرهتُ أُذنيَّ وحاسَّة السمع معًا، وكرهتُ الصور واللقطات السريعة التي كوَّنها عقلي للمشهد بامتيازٍ، لقطات بلونٍ باهتٍ، كشاشة سينما كبيرة أجلسُ أُطالعُ ما يُروى فيها وحدي.

تقول "إلَّا العذريَّة"، وكلانا يعلم أنَّها فقدتها منذ زمنٍ، حتَّى لو لم تُفَض البكارة.. حتَّى لو لم تتشرَّب الملاءات قطراتِ دمائها.

تُغمضُ عينيْها في تَوسُّلٍ، ترتجفُ شفتاها بكلامٍ لا يُقال، لكنَّهُ الحُب الذي أثقلها. الحبُّ يُثقلنا جميعًا، يُحمِّلنا ما لا طاقةَ لنا به، إنَّ كائنَ الحب المهول هذا، يأتي إلينا، يتسلَّق ظهورنا فيَصِل إلى الكتف وقد أحرقَ وراءهُ قلبًا ربَّما

وروحًا، يرمي بثقلهِ هناك، ويظلُّ قابعًا كسوءِ الحظِّ والطَّالع. نسيرُ في الأرض يقسمُ ظهورنا، نسيرُ عرجى لكنَّنا لسنا بعرجى، الفرحُ فينا من باتَ أعرجَ، يمشي كشيخٍ عجوزٍ بحثًا عن قبر يؤويهِ.

أُجزمُ أنَّها نامت، لتحلم به.. وينام البعض ليتعثَّر بحبيبهِ في حُلم.. ربَّما يُهديها وردة عوضًا عن كدمةٍ يتركها على جسدها إثرَ مُنازلاتهِ السريريَّة. رحتُ أنظرُ إليها، لعينيْنِ مغمضتيْن، تتنفَّس ببطء، ترمي عليَّ بعضًا من عطرهِ الذي ظلَّ عالقًا بها.. أستشنقُه منها، فيملأ رئتيَّ بالخطيئة. أتقلَّبُ للناحية الأخرى من السرير، أتكوَّرُ كالجنين، أبكي، أنام.

***

٥١

وحدثَ أن غزوتُ عالم الفيس بوك، لم يكُن مسموحًا لي بتسجيلهِ باسمي، لم يكن مسموحًا بوضع أي صورةٍ لي. كنتُ شخصًا وهميًّا آخر في عالمٍ وهمي. لكنَّ قلبي لم يكُن وهميًّا يومَ أحبَّ مازن. بل كانَ حقيقيًّا كفاية لأشعرَ به ينبضُ نَبضهُ الأوَّل. والجدير بالذِّكر أنَّهُ لم يطلب مني صورًا، لم يسألني عن طولي أو عرضي، لم يسألني ما إذا كان لي صدرٌ كبيرٌ أو صغير. والأغرب أنَّهُ لم يطلب مني اللقاء. وجدتُني لا أُصدِّقهُ.. حتَّى إنَّني ظننتهُ كائنًا وهميًّا لا أُصدِّقُ أنَّهُ موجود إلَّا حينما نتحادث. وعلى غِراري أنا، فإن صورهُ الوسيمة ملأت ساحات الفيس بوك. وجدتُني أستشيطُ غضبًا من تعليقات الفتيات الماجنات عندهُ، لكنَّه دومًا يعرف مفاتِحَ القلب، فيملأني حُبًّا.

وراحَ دفتر ذكرياتي الصغير يكتُبني ويكتب الحُب، يزرعُ سطورًا جميلة كبلقيسٍ على عرشها. لكنَّ أمي فاطمة شعرت بقلب ابنتها العاشق في الملكوت، وراحت بقلب الأم تبحثُ خلفي عمَّن هيَّمني. لم تجد من سؤالي نفعًا، فراحت تخوِّنني وتقرأ ذكرياتي عن الحب.. لربَّما ضربت صدرها أن ابنتها عرفت كائن الحب وتكتبُ عنه.

وبَّختني.. ولولا أنَّني كنتُ أكتبُ عن مازن بصيغة الغائب، لجلدتني ببطشها. سألتني للمرَّة الألف:

- أهُناك مَن تُحبِّين؟

- لا..

- إذن لمن رسائل الحب في دفاترك؟

- خيال..
- وهل أنتِ مجنونة؟
- ربَّما..
- والله والله..
وكانت أمي لا تحلفُ تباعًا إلَّا وبعدها وعيدٌ شديدٌ.. تقول:
- والله والله.. لو عرفت أنَّكِ في أي علاقة لا أدري عنها، لأدفنكِ هنا. أكيد الست آلاء هي من تملأ رأسكِ بتفاهات الحب.
لم أُجبها. بل كل ما حدث هو حالة جمود أكُنُّها لها، جدارٌ عظيمٌ راحت تبنيهِ بداخلي، والأغرب أنَّني من جلبَ لها الطوب الأحمر والأسمنت، لتبنيهِ بداخلي، الواحد تلو الآخر. نصف ساعة تمضي أو أقل، وإذا بآلاء تتَّصل بي تُخبرني أنَّ أمي اتصلت بها لتسألها ما إذا كان الحب قد طرقَ بابي بالفعل أم لا، وأنَّها أمَّنتها ألَّا تُخبرني باتِّصالها بها. لم أنتظر لأستمع لرد آلاء، فأنا أعلم أن لا فتاةً ستحفظني قدرها. طلبتُ منها أن أحادثها لاحقًا وكانَ آخر ما قالتهُ لي.. ترجوني ألَّا أخبرَ أمي أنَّني أعلم باتِّصالها بآلاء.
ذهبتُ لأمي:
- لا داعي لإحراجي أمام صديقتي وسؤالها عن أخلاقي، هي ليست مشكلتي أنَّك غير واثقة بتربيتكِ لي.
ظلَّت أمي تطالعني ذاهلةً، تُحاول أن تستوعب أنَّ آلاء حقًّا لم تكُن جديرةً بالثِّقة.. ثُمَّ راح صوتها يعلو في غضبٍ. قالت إنَّها ستظل غير راضيةٍ عن عَلاقتي بآلاء ليوم الدِّين، فأجبتها أنَّني سأظل أُحبُّها ليوم الدِّين.
نهرتني آلاء حينَ عرفتْ بالخبر، وقالت إنَّها لن تستطيع القدوم إلى منزلي مجددًا، أجبتُها وأنا أقضم جزرة بلا اهتمامٍ:

- عادي، سآتي أنا عِندكِ..

وفررتُ لحساب الفيس بوك أُغلقهُ حتَّى إن سألتني أمي عنه أُجيبها أنِّي ألغيتُهُ تمامًا.. وأنشأتُ حسابًا سرِّيًّا باسم ..

Remas Remo

لو كانَ للهلاكِ فاتحة.. لكنتُ أنا فاتحةَ الهلاك..

***

٥٢

لم أسلم– ولوقتٍ طويلٍ- من ركلاتِ روبرت على بابي وقد أسكرهُ الخمر، لم يتوقَّف عن المطالبة بي، بجسدي، بكُلِّي. وكلَّما فعل رُحت أبكي بلا توقُّف، تطلبُ مني رايتشل للمرَّة الألف أن تقوم باستدعاء الشرطة، أنهاها عن ذلك بشدَّة وأتمنى فقط أن يعودَ أدراجه.

كان بائسًا بما يكفي ليطلبَ مني أن أعودَ فقط ليُنهي روايته ثُمَّ أتركَهُ مرَّة أخرى، يقول لي إنَّ هذه مسائل لا يفهمها سوى الرُّواة وأنَّهُ وجبَ عليَّ ألَّا أكون عائقًا بينهُ وبين إبداعاته. ثُمَّ يعود يصرخ كالمجنون متوعِّدًا بأنِّي لو لم أعُد لسرقَ منِّي رعد! أنتفض للفكرة ومع هذا أفتح الباب بتحدٍّ لأجدَ روب باكيًا، فأقول:

- تريد رعد؟ خُذه!!

يرتفع بكاؤه:

- بل أُريدُكِ أنت!! ليتني لم آخذكِ للكنيسة..

ثُمَّ يرمي بنفسهِ عند ركبتي، يحضنني فأبكي.

- اتركني يا روبرت!

- أنا أحبُّكِ يا صغيرتي ولأجلك أحبُّ مصر.. عودي إلى روبرت!

وبقينا على ذلك الحال إلى أن قام أحد الجيران باستدعاء الشرطة، اقتربَ منَّا شرطيَّان على حذرٍ:

- أأنتِ بخير سيِّدتي؟

- أجل، صديقي فقط مُتعب، وأسرفَ في الشرب!

- علمنا من الجيران أنَّهُ يقوم بتهديدك يوميًّا..

وبينما كان روبرت غارقًا ببكائه، قلتُ:

- هو مجرَّد طفلٍ كبيرٍ.

فقال الشرطي الآخر:

- بإمكانكِ اللجوء إلى القانون بألَّا يقترب منك بأمرٍ من المحكمة..

فأجبتُ سريعًا:

- لا لا.. أي محكمة؟ اصطحباهُ إلى منزله، أكُنْ شاكرةً لكما.

لكنَّ روب قام برفض ذلك رفضًا كليًّا وآثرَ السير مترنِّحًا لبيته..

أحقًّا كانت تلكَ دقائقي الأخيرة معك يا روب؟!

***

٥٣

ياسر.. لم يطلب يومًا جسدي، ظللتُ أبحثُ في عينيْهِ عن شهوةٍ، عن نزوةٍ.. عن نشوةٍ.. لم أجد إلَّا حُبًّا عظيمًا لا أدري من أين جاءَ به. لم يُرد من جسدي إلَّا قلبي، لم يُرد منه إلَّا ابتسامةً على شفتي يكون هو سببًا فيها.. أي والله لم يُرد سوى ذلك، وكأنَّه يحفظ جسدي بالنِّيابةِ عنِّي، يحفظ حُرمته وهيبته، يحفظ ذكرى ما ضاع منه وبقي منه. ولم أجدهُ يعرفني لغايةٍ، لا والله.. بل في غاياتهِ إسعادي، وكأنِّي طفلتهُ التي يملأ جيوبَها بالحلوى، يبتاعُ لها دُمى باربي، يذهبُ بها إلى الأرجوحة، يفاجئها كلَّ حين بالدُّونات وغزل البنات. وكانَ في عطرهِ مَحيا، لهُ عِطران يتفنن في تعذيبي بهما، عِطران سيظنُّهما الغريب رائحة عطر واحدة لشدِّ ما يشبهان بعضهما جدًّا، لكنَّني أستطيعُ دومًا التفريق بينهما فلا يخونني التشابه، يضحك دومًا حين أفعل، يُخبرني ألّا أحدَ يستطيع ذلك سواي. يُقال إنَّنا حين نعشق، فإنَّنا نكتسبُ طباعًا جديدة مِن مَن نُحب، نتبنَّى آراءهم فجأةً وننطق بها مع الآخرين دونَ أن ندري وكأنَّها لنا، نتعلَّق بأشيائهم، متعلَّقاتهم، فتصبح الضحكة هي ذاتها، حتَّى طريقة الحديث، هي نسخةً جميلةً منهم، إلى أن تصبح الروح واحدة، بل حتَّى الجسد، يصبح واحدًا. أنا التي ظنَّت أنَّ الجسد لا يكون واحدًا إلَّا أوقات اللذة. وبذكر اللذة سألتهُ ذات يوم:

- كلمني عن ياسر والجنس..!

- كلميني عن ريم والجنس..!

رحتُ أبكي حين قام بقلب الأدوار، وكانت تلك المرة الأولى التي أبكي فيها

أمامه. ضمَّني إلى صدرهِ مطوَّلًا، لكنَّه لم يعتذر عمَّا قال، فعلمتُ أنَّني في تلك المرحلة التي وجبَ فيها أن أُخبره بألفِ البداية وياء النهاية. كانت أمي تقول لي منذ سنوات، إنَّهُ لو كان للفتاة ماضٍ ما وستر الله عليها ، فإنَّه من الجرم أن تحكي لخطيبها أو زوجها أي شيء.. حتَّى لو أخبرها أن لا غبارَ عليها مهما فعلت في الماضي.

ترددتُ للحظاتٍ، حتَّى وإن كانَ جليًّا ما هو حال أي فتاةٍ عربيةٍ تعيش بمفردها مع رجل في الولايات، بيدَ أنِّي ترددتُ أن أحكي.. ومع هذا حكيتُ له من الطفولةِ عبثًا، سبيس تون والمراجيح وحبيبي صَمَد، إلى بهجة السوبر ماريو وذراعيْ البلايستايشن، لأصدقائي الخياليين.. كابوس الرياضيات ومسائل القسمة التعيسة.. لحجابٍ لم أفهمه غطَّى طفولتي. وقصصتُ عليهِ القَصص، قصصًا لفارس الذي اشتقت حتَّى لتسلُّطهِ عليَّ، وحثام الذي أبحث عن "ثينهُ وزايهِ" بين الخلق فلا أجد شبيهًا لها، وتولين التي لم أمسس وأرَ، ومع هذا اشتقتُ لتلك الغمازات الأربع في ظهر يديْها الصغيرتيْن، إلى أبٍ عظيم يُسمى عبد الجوَّاد، لا يمرُّ بخاطري إلَّا والجريدة معهُ، وأمٍّ اسمها فاطمة، يتوقُ عمري وقلبي لتقبيلِ يديْها، أتخيَّلها دومًا بحبَّات عرقٍ تتساقط من وجهها جرَّاء وقوفها بالساعات في المطبخ تطبخ "الملوخية"، تشهق لها، لتكون شهيَّة. وفي وسط الحديث أخبرهُ أنِّي أصبحتُ الآن طبَّاخة ماهرة فلا يفهم ما عَلاقة ذلك بما قلتُ. أضحكُ وأنا أتذكَّر رهان أمي بأن زوجي سيطلِّقني من ثاني أسبوع لفشلي في المطبخ. وحكيتُ له عن خيباتي مع الحب والصلاة. ثُمَّ أخبرتُهُ عن قِسمَت التي ما أزال أتواصل معها بين الحين والآخر عبر البريد الإلكتروني.. ثُمَّ حكيتُ له عن ريم والجنس!!

إنَّ هذا الجنس خارج حدود الله لم يُضفْ جديدًا، لبرهةٍ رحتُ أذكر كتابي

عنده، إلى كم ألف وصلت علامات الـ x في كتابي يا تُرى؟ للحظاتٍ فكرتُ فيَّ حينَ أُلاقي حسابي. كان ياسر يُصغي إليَّ لا يستمع، فالإصغاء أشدُّ عُمقًا من الاستماع، فمن يُصغي قد يخشع ويتأثَّر لما يُقال، أمَّا الاستماع، فقد تسمع الأذن الكلام، وترميهِ للأذن الأخرى، فتركل الأذن الأخرى ما تلقفتهُ من الأولى خارجًا. كان يُصغي، يأخذ كلامي كلَّهُ بداخله وكأنَّهُ يملأهُ بي. لوهلةٍ بدا لا يشعر بأي شيءٍ إلَّاي. وما إن انتهيت.. حتَّى قبَّلَ يدي وانصرف.

أحقًّا استيقظت فيكَ الشرقيَّة؟ أحقًّا انضممت لقائمة خيباتي؟ أحقًّا تركتني؟!

***

٥٤

يُقال إنَّ الفطرة تُخلَق معنا، لكنَّ أفعالنا لاحقًا هي من تُقرِّر مصيرها، فإمَّا أن تكبُر الطيبة في ثنايا فطرتنا، أو أن تُصاب هذهِ الفطرة بفيروس يسمَّى "الإنسانيَّة". أحيانًا كنتُ أشكُّ في جيناتي.

- " تعالي نُفوِّت المحاضرة القادمة، رامي دعاني للغداء، كم أودُّ لو تعطينه فرصة"

ملاحظة تكتُبُها آلاء لي كعادتها في كتابي أثناء المُحاضرة.. بيدَ أنَّني أكرههُ رامي هذا، لكنَّني وافقت من أجلها.. وقد كان..

مطعم صغير بجوار الجامعة، وها هو ذا السيِّد رامي يطلُّ. يرمي بمفاتيح سيارتهِ على الطاولة. يبتسم لي أوَّلًا قبلَ آلاء، تُحييني رجولتهُ الطاغية.. تنتفضُ كينونتي.

- أخيرًا توافقين على اللقاء..

يقولها ودخان سجائرهِ يملأُ فمه. أبتسم بقلق. وكان رامي في أوائل ثلاثينياته، رجلٌ تملأُ يديْهِ العروقُ الظاهرة، أسمرَ اللون دقيقَ اللحية، فمٌ صغيرٌ، أنفٌ حادٌّ. لكنَّه بدا قصيرًا مقارنةً بآلاء النخلة. ضحكتُ سرًّا لذلك فبطبعي أكرهُ أن يكونَ الرجل أقصرَ منِّي، ورحتُ صمتًا أتخيَّل طول مازن جواري، وأبسمُ في خجلٍ للفكرة.

قاطعَ أفكاري قائلًا:

- لِمَ أنتِ صامتة؟

- لستُ كثيرةَ الكلام..

تضحكُ آلاء من قولي، تقول:

- حتمًا ليسَ معي، فمعي تتحدَّث ويكأنَّ القيامة غدًا..

تُمسِكُ يدي بحبٍّ فأتغاضى عن إحراجها إيَّاي. لم أكُن مرتاحةً بالمرَّة، شعرتُ بنفسي أجلسُ معهُم جسدًا لا روحًا، كانت الروحُ تشقى في عالمٍ آخر، باركتُ لها الشقاء، فالشقاء أفضل من أن تجلسَ إلى جواري مُضطرةً.

راحَ يسألني عن حبيبي، بالطبع يا آلاء يجب أن تُخبريه. كانت إجاباتي محدودةً، وكأنِّي أقيسُها بالمسطرة، لا تزيدُ على الحد، ولا تقلُّ عن الطبيعي- جدًّا-.

راحَ يسخرُ من حُبِّي العُذري ويتحدَّث في حضرتي عن القُبَل.. يقول:

- كيفَ لم تتقابلا إلى الآن؟ وما يُدريكي لعلَّه يُحادث غيركِ ويُقابلهنَّ! لا أعترفُ مطلقًا بحبِّ الإنترنت هذا..

عجيبٌ أن تكونَ مقاييسُ الحبِّ عنده لا تزيدُ على الجسد، لم أشأ الحديثَ عن ذلك لحفظي لقلب آلاء التي هيَّمها. وإذا بمازن يتَّصل، فرحتُ أنتفضُ، أنا التي لم أُخبرهُ عن اللقاء اللعين مع رامي. نهضتُ عن الطاولة بقلقٍ، وكنتُ أدري أنَّهُ فورَ نهوضي سيحتلُّ رامي جسدي من الخلف بعينيْه.

- أين أنت؟

- في مطعمٍ مجاورٍ للجامعة مع آلاء.

- وماذا ترتدي جميلتي اليوم؟

- كعادتي تنُّورة وقميصًا أعلاها.

- في أي مطعم؟

- "كوك دورز".. هل ستأتي أم ماذا؟

أضحكُ في قلقٍ في حين انضمام آلاء ورامي لي، يقول مازن:

- سأحادثكِ خلال لحظاتٍ.

شعرتُ بغُصَّةٍ في قلبي، لم يحدُث أن كذبتُ على مازن مُطلقًا. شعرتْ بي آلاء وراحت تسألُ عن خطبي. سمعَ حديثي معها رامي فقال:

- ولِمَ يسألك أصلًا؟ من المفترض أن يثق بك.

لم أُعِر تصريحهُ بالًا وأخبرتُهما أنِّي راحلة، لم ترض أي سيارة أجرة أن تأخذني لجدَّتي وقِسمَت في الورَّاق إذ كان من المفترض أن أذهب لأنَّه نهاية الأسبوع. ووسطَ توسُّلات آلاء بأن يوصلني رامي، وافقتُ مُضطرةً.

وظلَّت روحي غائبةً عن جسدي القابع في المقاعد الخلفية لسيارة رامي. كرهتُ عينيْهِ اللتين لم تتوقَّفا عن ملاحقتي من المرآة الأمامية. وظلَّ مازن يتَّصل بي كالمجنون. أُجيبهُ أنِّي في "التاكسي" في طريقي للبيت، فينهرني كاذبةً ويُنهي المكالمة.

بدا يومًا أسود، فراحت آلاء تُهدِّئ من روعي وترجوني ألَّا أقلق. لم أسأل أينَ الوجهة إلَّا حينما قالت آلاء إنَّهُ بيتها القديم، الخبيثة عندها نسخةٌ من المفتاح لا يعلم والداها عنه شيئًا. علمتُ أنَّهُ البيت المحرَّم، حيثُ يطبع رامي آثارَ شفاههِ عليها دومًا. وكنَّا ثلاثتنا في البيت، وإذا برامي يطلب من آلاء أن تلحقهُ في إحدى الغرف. لم تكترث لوجودي آلاء ولحقتهُ كالمنوَّمة مغناطيسيًّا.

كرهتُ نفسي، وخرجت من البيت قليلًا لأشمَّ الهواء وقد أخذتُ المفتاح، رُحت أتَّصل بمازن، لم يُجبني، فرحتُ أبكي أمام المارَّة.

أينَ أنتِ يا قِسمَت؟ أين أنتِ يا أمي؟ وكيف الحال يا الله؟ ما أخبار دفتري عندك؟

مضت ساعةٌ ربَّما أو أقل وأنا في الخارج، أمي تظن أنَّني في حصة الدرس الخصوصي. عدتُ لأسمع آلاء تصرخ، اللعين يضربُها، أمسكُ مقبضَ الباب، اللعين لا يضربها، اللعين يُعاشرها معاشرة الأزواج.

لم ينتبها إليَّ..

أقفلتُ الباب أتحسَّسُ الطريقَ أمامي. أُمسكُ هاتفي لأجدَ رسالة من آلاء تسألني لِمَ رحلت دون أن أخبرها. لم تعلم أنِّي خرجتُ وعُدت..

عُدتُ لمنزلي وأنا لا أرى سوى آلاء ورامي يتعاركان على السرير، تُحاصرني أمي بشكوكِها أكثر فأصطنعُ شجارًا معهُا كي يثور البيت وأنام مُثقلةً بالويل. أسمعُ دعاءَ أمي من الغرفةِ المجاورة بأن يبليني الله بابنةٍ عاصيةٍ، تريدُ حفظي من الخطايا ومع هذا تدعُو عليَّ. هي أخطأت، وقسمت أخطأت، وآلاء تُخطئ، ومع هذا لا تُريدني أمي أن أنالَ نصيبي من الخطايا! لم تكن الخطيئةُ آنذاك عندي سوى حقٍّ وواجبٍ على الكل.. أردتُ أن أجرِّب حظِّي كذلك!

أتَّصل بمازن لا يُجيبني بل دعاني بالكاذبة في رسالته. رآني برفقة رامي وآلاء إلى أن اختفى أثرنا. أذهبُ في اليوم الذي يليهِ للجامعة, أستقبلُ آلاء بعينٍ لا تُشبه عينَ الأمس.. تشعرُ بي فلا تقولُ شيئًا.. تتركني لقهريَّة التفكير.

***

٥٥

وعلى الرَّغم من الذَّنب الذي أثقلها، ظلَّت آلاء تملأني بحُبها، لم أجد لحنانها حدًّا، فباتَ حبِّي لها من المسلَّمات، بل وكأنَّهُ فطرةٌ خُلقتُ عليها. راحت تؤازرني وقد نبذني مازن، تعدُني بأنَّهُ سيعود وأنَّها ستُصلح بيننا، فيطمئن قلبي وأحبُّها أكثر.

ولن أنسى ما حييت، ذلك اليوم الذي رُحنا نلتقطُ فيه صورًا لنا بهاتفِها، حين أعطتني الهاتف لأنقل الصور لهاتفي فأجد "فيديو" كاملًا لها مع رامي. جزعتُ للوهلة الأولى وأقفلت "الفيديو"، وقد لمحتهما عاريَيْن. ثُمَّ اختبأتُ في أحد الأركان لأشاهدهُ كاملًا، لم يدفعني لفعل ذلك سوى فضولي الشيطانيِّ. عشر دقائق أو أكثر، فيلم جنسي لأعز صديقاتي وإخوتي. كانت تضحكُ بمجونٍ، تُمارس الجنس كأنَّهُ عادة، تقوم بحركاتٍ ما ظننتُها تُوجد أبدًا.. تُطالعُ الكاميرا ضاحكةً، لا تخجلُ من شيءٍ، ولأجلها خجلتُ أنا ثُمَّ بكيتُ.

- شاهدتُ الفيديو مع رامي يا آلاء، ألا تخافين الله؟ ألا تخافين أن يشاهدهُ أحدٌ من أهلك أو أن يبتزَّكِ به رامي؟

تخطفُ الهاتفَ من يدي بقسوةٍ، وتقول:

- لا شأن لك.

تصمت قليلًا، وتقول:

- أنا جائعةٌ، ماذا سنأكل اليوم؟ أشتهي "البيتزا" ما رأيك يا ريم؟

- أنا كذلك.

يصمتُ كلانا.

ولاحقًا تُمسك هاتفي وتذهبُ بعيدًا ثُمَّ تعودُ قائلةً:

- حبيبك مازن ينوي الصلح، هاتفيه اليوم سيُجيبك!

أنتفضُ من الفرحة وأملؤها قُبلًا، أقول:

- اليوم أنا ذاهبةٌ لبيت جدَّتي وقِسمَت ستكون هناك، فرصة ممتازة لأن أحادثَهُ بعيدًا عن ضجيج أمي..

تبتسمُ، فأبتسم.

وصلتُ لبيت الجدَّة ولا أدري كيفَ وصلتُ، لكنَّني شعرتُ باشتياقٍ لقِسمَت لكي تُطمئنني، إلَّا أنِّي لم أجدها، لا هي ولا الجدَّة. اتصلتُ بها فقالت إنَّها في زيارةٍ لإحدى الصديقات برفقة الجدَّة وإنَّهما ستأتيان مساءً.. فازدادت تعاستي.

وإذا بمازن يتصل:

- لم تُخبريني أنَّكِ جميلة لهذا الحد يا ريم، لكنَّكِ الجميلة الكاذبة.. جميلٌ ما ترتدين!

أُصبتُ بشللٍ لحظي. لم أدرِ أأُدافعُ عن نفسي أم أخبرهُ أنِّي الأسعد بما قال؟ وجدتني أسألهُ:

- أين أنت؟

- أسفلَ البيت، تعالي نحو النَّافذة!

طرتُ إليها، وقبل أن أفتحَ النَّافذة ذكرتُ أنِّي مكشوفةُ الرأس، فارتديتُ عباءة الصلاة الخاصَّة بجدَّتي وذهبتُ إلى النَّافذة. وجدتهُ فامتلأ قلبي بالفرح. هو أطول مني بلا شك. قلتُ:

- أُقسمُ لكَ أنَّها المرَّة الأولى التي لا أُخبركَ فيها بالحقيقة.

- تقصدين.. المرَّة الأولى التي تكذبين فيها. قتلتني يا ريم! هل أنتِ بمفردك؟

- أجل.. لم أقصد..

- أدري، لكنَّكِ كذبتِ.. ألا تدرين أنِّي أغارُ عليك من النسمة.. حبيبتي الكاذبة.

رحتُ أبكي كطفلةٍ في الخامسة، أبكي بحرقةٍ شديدةٍ وأنا أرجوهُ أن يُسامحني خطيئتي. وأخفيتُ نفسي خلف النَّافذة حتَّى لا يراني. راح يُهدِّئ من روعي. هدأتُ، دخلتُ إلى الشرفةِ مجددًا، لم أجدهُ. سألتُه:

- أين أنت؟

- رحلت.. يا كاذبة.

رُحتُ أبكي بقهرٍ، فقال ضاحكًا:

- افتحي لي الباب!

صمتُّ قليلًا غيرَ مُدركةٍ لما يقول، فقال:

- افتحي الباب بسرعةٍ قبل أن يلحظني الجيرانُ.

حلَّقتُ نحو الباب دون تفكيرٍ. فتحتهُ له. دخلَ سريعًا. ظلَّ كاللصوص يُطالعني، لم نتحدَّث. بقينا والدهشة صامتيْن. بدا أكبرَ سنًّا من الصور. بدوتُ الأجمل في عينيْه. داهمني بقُبلةٍ أُدركُ الآن أنَّها فرنسيَّة. وكانت شفتاى كحبَّةِ التين في فمهِ، يلتهمُها ولا يشبع. وحين انتهى منِّي قُبلًا، قال:

- لِمَ ترتجفين؟

- أحقًّا أنتَ هنا؟

يجيبُني ضاحكًا:

- أجل يا حمقاء.. يا كاذبة.

أحلفُ له أنَّها المرَّة الأولى وأنَّها لن تتكرر، فيحضنني بقسوةٍ.. قسوةٍ على أثرها أشعرُ بأسفلهِ يُعانقُ الطفولةَ أسفلي. أنتفضُ، فأبتعد. وأقول:

- أتناولتَ الغداء؟ أتريدُ أن تأكل؟

لم يُجبني وهو يزيل عنِّي الحجاب، فأشعر أنَّني لم أرتدهِ قط، وبيديهِ راح ينثرُ شَعري الطويل، يهمسُ بكلماتٍ لم تصلني. أشعرُ بالخجل المهول، فأدفن رأسي في أحضانه. لحظة تمر، أو ربَّما شعرتُ أنَّها الجزء الأقل في الثانية وإذا بي معهُ عارية.. في السرير.. ذات السرير الذي نمتُ عليهِ ذاتَ عاشرة.

فلنقُل أنَّني كنتُ معهُ في نزالٍ على السرير، لا أدري ما الذي يجري حقًّا، لكنَّني حتمًا شعرتُ بهِ ينازلُ أخرى ليست أنا، لم أكن أنا المُمدَّدة أسفَلهُ، بل إنِّي كنتُ على الكرسيِّ أُطالعنا معًا على السرير، فلنقُل أنَّني كنتُ معهُ في ساحة حرب، كان يُصارعُ جسدي الذي لا ينطق، جسدي الذي لم يكُن مِلكًا لي آنذاك. شعرتُ أنه معتادٌ على تلك الأنواع من النِّزالات، كنتُ شجرةً عاليةً وكان مُتسلقًا ماهرًا يعرف أينَ مكمن ثماري، وكان يقطف ما نَضُج قبل أن تمتدَّ إليه يد الحصاد، وامتلأت السماء بالغيم الكثيف، كنتُ تائهةً في أرضي، وكان خبيرًا بي، وجاءَ ذلك الألم المهول، ما أزال أذكرُ صوتَ بكائي، مُتعبة كنتُ، الألم قاسٍ حقًّا، وكان تفكيري في كذبةٍ ما أتلوها على أمي- حين ترى العلامات التي خلَّفتها شفاهه- أكبرَ من تفكيري في الألم نفسه، فكرت بردِّ فعل آلاء حين تدري أنَّني فعلتُ مثلها.

وحينَ انتهى منِّي، تمدَّدَ جواري يلهثُ، يُخبرني كم يُحبُّني، يُخبرُني أنَّه يعشق الشامات الكثيرة على جسدي، يُخبرني أنَّنا سنتزوجُ وأنَّهُ لن يسمح بأن يأخذني رجلٌ منه. بجهدٍ وتعبٍ رحتُ أحضنُه بصمتٍ، كنتُ أرجوهُ أن يُطمئنني قليلًا، لكنَّهُ نهضَ في عُجالةٍ مُتعلِّلًا أنَّهُ من الأفضل أن يرحلَ

باكرًا، فرحلَ قبل حتَّى أن أسترُ نفسي. نهضتُ عاريةً صوبَ المرآة، أُطالعها بعينٍ ليست عذراء كذلك. وبصمتٍ رحتُ أرتدي ملابسي، ثُمَّ عباءة الصلاة، ورحتُ أُطالعُ السرير الذي عليهِ عفَّتي. ها هي ذي عفَّتي يا أمي على السرير. لم أبكِ. بل إنِّي لم أشعُر بشيءٍ. غسلتُ الملاءة. ثُمَّ قررتُ أن أُصلِّي. لم أدرِ أيَّ صلاةٍ صلَّيت أو ما الوقت آنذاك، لكنَّني صليتُ بلا وضوءٍ فلم أشعُر أنَّ ثمَّةَ مياهًا ستُطهرني.

بكيتُ كما لم أبكِ من قبل، ورحتُ أسأل نفسي، أأثقلَ أمي وآلاء وقسمت الذنب كما أثقلني؟

***

٥٦

وكنتُ كالمخمورة، لكنِّي واعيةٌ كفاية لأدركَ أنَّني لم أعُد عذراء، وأنَّني أعاني فقدًا لن يملأهُ أي فرح. شعورٌ مهولٌ بالضياع، بالغرقِ في غياهب الوجع. كنتُ أبكي داخليًّا، أشعر بالدموع بداخلي تغزوني كالسواطير.. ومع هذا، تعدَّدت مقابلاتي معهُ، وفي كلِّ مرَّةٍ أُقابلهُ أشعرُ بأنِّي فقدتُ عذريتي للتَّو، وفي كلِّ مرَّةٍ ينسلخُ منِّي طيفي ليجلسَ على الكرسيِّ يُطالعُني وإيَّاه ونحنُ نُمارس "الجنس".

أذكرُ يومَ أخبرتُ آلاء بما جرى، يومَ شهقتْ من الصدمة، ولم تُصدِّقني، لكنَّها فعلتْ حين بكيتُ. وأخذتني بين ذراعيْها، تريدُ طمأنتي لكنَّها لا تدري ما يُقال، إلى أن قالت:

- آهٍ يا ريم.. جعلتُكِ مثلي..

وإذا بها تبكي، نهرتُها لما قالت، أخبرتُها أنَّني أحبُّها كما هي، وأنَّه لشرفٌ عظيمٌ أن أكونَ مثلها، صاحتْ بي:

- لكِ الشرفُ أن تُصبحي كفتاةٍ بلا شرف؟

وكانَ بُكاءٌ أقربُ إلى النُّواح، وأذكرُ أنَّني نمتُ في سريرها لشدِّ ما بكيت. نهضتُ لأجدها لا تزال غارقةً في دموعِها، قالت:

- هل يكونُ الحبُّ حبًّا حينَ يدفعنا للخطيَّة؟

لم أُجبها، لكنَّ صمتي دعاها للبوح:

- حينَ أسألهُ متى نتزوج، يقول لي إنَّهُ غير جاهزٍ لذلك مُطلقًا، وحينَ يسألني جسدي.. أُعطيه.

آلمني تصريحُها، لكنِّي لم أُعقِّب، فكلانا يدري أنَّه لن يتزوجَها، كلانا يدري أنَّ جسدها لا ثمنَ له.

وفي البيت عندي يسألون، لا أجيبُ، بل تُجيبهم عدائيةٌ لا أدري من أينَ جاءت. وأمي تُتابع غاراتِ أمومتها حولي، تملؤني بشكٍّ أساسهُ يقينُ خوفها، أبي أصبحَ حزينًا مع الجريدة، وأخواي لم يعودا يدعوانني لمباريات الـ PlayStation.

أصبحَ البيتُ باردًا، تسألني أمي عن العلاماتِ على عُنقي، أقولُ لها أي كذبة. تصمتُ غيرَ مصدِّقةٍ إيَّاي، تأخذ مني هاتفي تُفتش فيه، أشعرُ أنَّني أمقُتها حينَ تفعل ذلك. نتعارك، نشتعل، ونخمُد حينَ تزيد الأذية. ونالني من دعائها عليَّ ما نالني. وفي كلِّ مرة تدعو على ابنتي أن تكونَ عاصيةً، تدعو عليها أن تضربني بالنِّعال، أن تفضحني.

شعرتُ بآلامٍ مريرةٍ في صدري، بكيتُ أنا ولم تهتم هي. والدي من جاء إليَّ يُقبِّل يدي، يُخبرني أنَّها خائفةٌ عليَّ. لم أستطع النظر في عينيْهِ. لم أستطع أن أرمي بنفسي حقًّا في أحضانهِ الطيِّبة. وجدتني أبني حاجزًا بيني وبينه. وهو لا يدري بنواياي..

وفي مرَّةٍ دقَّ فارس بابَ غرفتي، طلب منِّي أن أعودَ كما كنت. كتمتُ الدمع ولم أبكِ.. رَبَتَ على كتفي، وهمَّ بالنهوض وإذا بعلبة السجائر تسقطُ من جيبه. لم أدرِ أنَّهُ يُدخِّن، بل لم يدرِ أحدٌ في البيت. أخذتُ العلبة وأعطيتهُ إيَّاها دون تعليق، بل إنِّي ابتسمتُ إليهِ أُطمئنُه أنِّي لن أُخبرَ أحدًا. يا الله كيفَ وصلنا لهذا؟ فارس هو الآخر يشقُّ طريقهُ للخطايا لكنَّهُ في النهاية "رجل"، تحميهِ رجولتهُ ويكون جنسهُ شفيعًا له. لبرهةٍ اشتقتُ لطفولتي، اشتقتُ لسن العاشرة، وسبيس تون. لبرهةٍ أدركتُ كم خذلتُ سالي وريمي،

وكم خذلتُ أبطال الديجيتال والبوكيمونات، وكم خذلتُ صَمَد. وكلما زاد خذلاني لهم، زادت الخطيئة حتَّى ظننتُها وشمًا لا يزول..

ودارت الأيام، وألقى بي عالمُ الإنترنت إلى "روبرت"، صديقي الأمريكي..

***

٥٧

الحُبُّ ليسَ عدلًا، لكنَّهُ الظُّلمَ الذي أحببناه! توقظني رايتشل لأذهب للعمل، أفتحُ عينيَّ، أُدركُ أن هذا كلَّهُ لم يكن بحلمٍ، فأعود لأغمضَ عينيَّ بألمٍ ما مسَّني مثله. مَن أنا لأطلبَ الحب أن يؤويني؟ مَن أنا؟ لم يعد هناكَ ما يشفي، فقط أنا بمرضٍ لعينٍ لا أدري متى هو براحلٍ عنِّي.

لم أجد نفسي أعاني فقدًا لياسر فقط، بل إنَّ فقدهُ رمى بي أكثر في غياهب الأمس، فوجدتُني أفكِّر بهم جميعًا في عيد الأضحى الذي لا أجد معالمَ له في الولايات، أحنُّ لإخوتي يومَ كُنَّا صِغارًا.. ذاتَ عيد.. حينَ يمتلئُ بيتنا برائحةِ كعكٍ تعُدُّهُ أمي، تنثرُ فوقَه سُكَّر طفولتنا، وشيئًا من عبقِ حُبِّها. أحنُّ لملابس العيد الجديدة، "العيديَّة" في قلبِ جيبي المليء بالحلوى، وتلكَ الألعاب النَّارية الصغيرة.. ويلكَ يا عيد.. تُذكِّرني بنفسكَ حينَ كنتَ أجمل.

إنَّ الألم يُثقل بالجسد، يُحاصر الروح من كلِّ حدبٍ وصوب، يُقيد أطرافك بأغلال الذكرى والندم، تجدُ نفسكَ لوهلةٍ على قيد الحياة، وفي داخلك، أنتَ ميِّت منذ زمنٍ، لكنَّ أحدًا لم يحضر جنازتك سواك، أحدًا لم يبككَ إلَّاك. وكم من شيءٍ فينا ظنناهُ زال، لكنَّه لا يزال! اختفى حبيبي. اختفيتُ، كُنتَ الحاضر الوحيد.. في غيابك!! أشعرُ برعدٍ يعتلي سريري، يُشاكسني ويدعوني للنُّهوض، لا أستجيبُ، يجلسُ مطأطئ الرأس. أمسك الهاتف، لا رسالة، لا مكالمة لا شيء. أنهضُ أخيرًا بعد ساعاتٍ، أنظرُ لانعكاسي في المرآة، أبكي، أصبحتُ أُشبِهُك، وكأنِّي أكُنك.

لم أعرفهُ لمدَّةٍ طويلةٍ، لكنَّه أتى كالمُسافر من بعيدٍ ليحملني من آفةِ

الوجع، لينتشلَ قلبي المعذَّب هذا، أتى ليمدَّني بطفولةٍ تخلت عنِّي فنسيتُها. أتى ومعهُ الحب، وعلى عكس مَن عرفت، وما عرفت، أمدَّني بكلِّ شيءٍ دون أن يأخذ مقابلًا. كيف هذا؟ وقد علَّمونا وقت كنا صغارًا أن ندرس لننجح، أن "نسمع الكلام" ليحبُّونا، وحتَّى الله باتَ في معادلاتهم، فعلَّمونا أن نصلي كي لا ندخل النَّار. فكيفَ يأتي حبُّكَ خالصًا؟ كيف تُعطيني ولا تكون من السائلين؟ ومع هذا يُصيبني رحيلُك، يزيدُ على عمري أوجاعًا، أنا ابنة الوجع وأمُّ الفقد.

لم أعد أحكي للصغار القصص، خارت قوى الشهرزاد، فشهريار لم يعد يسمع، شهريار استغنى وكانَ الأغنى، ليتركني بقلبٍ فقيرٍ. تسألني جوليا ما بي لا أجيب.

أتدري ما بي؟ أنتَ بي. لكنَّها الخيبة، الخيبةُ قاتلةٌ، هي السمُّ الذي لا يقتلنا، لأن الخيبةَ من شأنِها تعذيبُك، مِن شأنِها دفنُك، تجريدُك من كل شيء، فلا تُبالِ لضعفك، ولا تُبالِ من موتك.

هأنذا، أرتدُّ عن حُبِّكَ.. وأضعُ بالقربِ شمعةً.. أدعُها تحترقُ لكليْنا، كعشقٍ أحببناهُ يومًا، فأرديناهُ قتيلًا.. هأنذا، أُجربُ الإلحادَ بك، والكفرَ بك والاستغناء عنك، والاكتفاء منك أُجرِّبُني من دونك.. فأجدني ما أزالُ عاشقةً.. عاشقة كم هي "أنت"! قلتَ لي يومًا، تعاليْ نرتشف حُلمًا من شفاه الحب.. كم خشيتُك، كم خشيتُ اعتناقَ الحبِّ في عينيْك. كم خشيتُ مذاهبَ العشقِ في شفتيْك. حُبُّكَ لم يكن سوى قبرٍ لذاكرتي وأشواقي. خذلان وخيبة يُعانقان الأيام، يسردان حكاية، لوجهٍ ما عدتُ أميزهُ، من بينِ عثرات الحياة، والدموع التي لا تنتهي.

***

٥٨

فوجئتُ بآلاء تزورني في منزلي، أمرٌ لم تفعلهُ منذُ آخرَ خلافٍ لها مع أمي. خلعت النظارة الشمسية وإذا بهالةٍ بنفسجيةٍ حولَ عينها. صُعقت، سألتها عمَّا حصل فأخبرتني أنَّ أخاها رآها في سيارة رامي وأنَّها فرَّت إليَّ حين قام بلكمِها وضربِها بحزامهِ الجلديِّ في أماكنَ مُتفرِّقةٍ من جسدها، بكيْتُ غضبًا وأنا أجزُّ على أسناني. اتصلتُ به أنهره، استقبلَ اتِّصالي فرحًا وإن لم يُظهر ذلك مباشرةً. رحتُ أستغل ذلك في تخفيف الأمور بينهُ وبينها، بالكذبِ عليهِ وإخباره أنَّه مجرَّد صديق وأنَّهُ يوصلنا أحيانًا، وأنَّهُ لن يحدث ذلك مجددًا لو يزعجهُ الأمر.. قال:

- إنَّها شرفي!!

أعدتُ على مسامع آلاء تصريحهُ الأخير حينَ أنهيتُ المكالمة، راحت تضحكُ عاليًا، ذلك الضحك الشبيه بالبكاء وهي تضربُ كفًّا على كفٍّ، تقول: قال لكِ إنَّني شرفهُ؟ أتدرينَ أنَّه يُضاجع فتياتٍ بعدد شَعر رأسه؟ حتَّى أنَّ فتاتًا نقلت إليه مرضًا جنسيًّا وراحَ يبكي كالجرْو لولا ستر الله.

وتابعتْ حديثهَا قائلةً، ولن أنسى بحياتي هدوءها وهي تقول:

- لِمَ شرفُ الرجل مُقترنٌ بامرأةٍ؟ لِمَ شرفُهُ مقترنٌ بأختٍ أو أمٍّ أو زوجةٍ؟ لِمَ شرفُ الرجال مقترنٌ بما بين رجليْنا نحنُ النِّساء وليسَ بما بين رجليهم؟!

كيفَ تراهُ سيكونُ العالم لو حافظ الجنسان على شرفهم واكتفى كُلُّ جنسٍ بما بينَ رجليه؟ رحتُ أسألُ نفسي وأنا لا أدري حقًّا إن كُنَّا على صواب أم أنَّنا نُريد أن نتعلَّق بقشَّةٍ نُعلِّق عليها ضياعنا وحظَّنا العاثر؟!

وجدتني أسألها ضاحكةً:

- ماذا لو كان للرجل عذريَّة؟ أو غشاء بكارة؟ أو أيُّ دليلٍ على عفَّتهِ؟ يا فضيحتاه في ليلة الدخلة، حين تدري المرأة أن زوجها ليسَ بكرًا! كيف ستراها ستكون الفضيحة على نخب الرجل؟ كيف سينظر إليهِ المجتمع والناس؟ هل سيُقام عليه أيُّ حدٍّ ممَّا يُقام على المرأة؟ هل سيُطلق عليه "عاهر" ويُنفى من المجتمع؟ يا ربَّاه.. لِمَ لا يُلِّوث الرجل حينَ يزني؟ كيف لهُ استغلال القوامة حين الخطأ كذلك؟

وكلما سألتُ سؤالًا، ضحكت آلاء حتَّى احمرَّ وجهُها.. ثُمَّ تأتي تتمددُ جواري، نُطالع السقفَ معًا، نتمنَّى لو أنَّنا لم نكبُر.

لم تُخبرني آلاء قط برغبتها بشكلٍ مُباشرٍ، أن أُلهي عنها أخاها، شيءٌ في وجهها أخبرني، شيءٌ في عينيْها دفعني لذلك، ربَّما الراحة المُفرطة حين أحادثه لأدفعَ عنها الأذى. أرادتني أن أُبعدهُ عنها، أن أُنسيهِ شرفهُ قليلًا. لم تُبدِ أي ردِّ فعلٍ حين أخبرتُها أنِّي سأقابلُهُ. لم تسألني عن مازن أو ما إذا كنتُ سأخبرهُ أم لا؟ لم تسألني عن طبيعة اللقاء الذي تدري أنَّهُ لن يكونَ عُذريًّا! بل راحت تختارُ لي الملابس وتُزيِّنني بالمكياج. أخبرتني أنَّني جميلة، وأنَّها لو كانت بنصف جمالي، لاحتلَّت العالم.

الجميلات هُنَّ قوَّة لا يُستهان بها، هُنَّ قوَّة بازوكيَّة شيطانيَّة.. المرأة هي الجِنس والجمال والدلال، لكنَّهنَّ دومًا الأقلُ حظًّا في الحب. على رأسهنَّ تأتي الأميرة ديانا، القوَّة الإنجليزيَّة الكاسحة، من أذابت جميع القلوب، إلَّا قلبَ من تُحب. ومع هذا لم يعترف بها الكيانُ الإنجليزي أبدًا، إلَّا أنَّهُ رآها التَّهديد الأعظم، فاغتيلت. والعملاقة مارلين مونرو وعائلة كينيدي، ابتسامة غجريَّة واحدة، قد توصلها للعرش أو الهلاك، ومع هذا ماتت مُنتحرةً، وفي رواياتٍ

أخرى، مقتولة. ولِمَ نأتِ بقصص الغرب، وعندنا السندريلا، سُعاد حسني؟ السندريلا هي خيرُ مثال على الجمال والوجع في آنٍ، السندريلا التي ما إن شرعتْ في كتابة مذكراتها لتفضحَ كياناتٍ سياسيةً بعينها، حتَّى ألقى بها خوفُ الرجال من الطابق العلوي.. كم يبدو الرجال ضعفاء قُربَ الجميلات، يبدونَ كالجِراء أحيانًا، عبيد الجسد والجمال. لا يدرون أنَّ الجميلة ما هي في الواقع إلَّا طفلة صغيرة، يُرضيها قليلٌ من الحبِّ كالحلوى.

شعرتُ بقوَّتي وأنا برفقة أخيها مصطفى. كان سعيدًا للغاية برفقتي.. يطالعني بعينيْن إباحيتين، لم أجد فيهما ما يُطمئنُني، لكنَّني بالنِّعالِ دُست على قلبي لأجل أخته. وراحَ يتحسَّس جسدي، بعينيْهِ أوَّلًا قبلَ يديه. أهداني قلادةً رقيقةً من الذهب. ألبسني إيَّاها في سيارتهِ بعد أن نالَ مني ما نال. لربَّما هي ثمن تلك الليلة. اتفقتُ معهُ أن يُخبر آلاء أن القلادة منها وليست منه، في حال سألت أمي. أمي التي رفعت حاجبًا غيرَ مُصدِّقةٍ أن آلاء قد تُهديني ذهبًا. بلا اهتمامٍ قلتُ لها:

- إن كنتِ غير مُصدِّقةٍ، فاسأليها!

فقالت معاذَ الله أن تُحادثها..

***

٥٩

لم يكن صعبًا على مازن أن يشُمَّ رائحة رجال آخرين يضعون القليل من آثارهم على قلبي وجسدي في آنٍ. راحَ هو الآخر يعبثُ في هاتفي. جُننت، رأيتُ الشياطين تقفزُ أمامي. خطفتُ من يديْهِ الهاتف. دعوتهُ بالنَّذل. لطمني على وجهي، فبكيتُ، ثُمَّ ضمَّني لذراعيْه.

- لو حدَّثتي غيري، أموت..

لم يدرِ أنِّي متُّ منذ اقتحمني، منذُ تحوَّلت اليرقة لفراشة بأمرٍ من الشياطين وليسَ بأمرٍ من الله. لم يدرِ أنَّني أموتُ وأحيا في كلِّ لقاءٍ سامٍّ وكأنَّني في قيامة. راحَ يتَّصلُ بي ليلًا ليُصالحني. أجبتهُ بعد محاولاتٍ عدَّةٍ. وراحَ قلبي يُحبُّهُ من جديدٍ إلى أن دخلت أمي في سرعة البرق غرفتي لتخطفَ الهاتف بعد أن أنهيتُ المكالمة سريعًا. وشاءت السماوات من فوقي أن يُعاودَ مازن الاتِّصال فتجيبهُ أمي، فيُنهي المكالمة فورَ سماعهِ صوتَها.

راحتْ تسألني عنه.. أجبتُها أنِّي لا أدري، فلم يكُن رقمُه مسجَّلًا بأي اسم. ولسوء حظِّي التَّعيس آنذاك، اتَّصل بي مصطفى أخو آلاء كذلك، قامت أمي بالضغط على الزِّر الأخضر دون أن تنبس بحرفٍ. فناداني باسمي، بل ناداني بـ"ريري"، بصوتٍ لا يخلو من الجنس.

صاحتْ بهِ أمي وانهالتْ علينا بالسُّباب. دعوتُها وأنا أُقبِّل قدميْها ألَّا تُخبر أبي وإخوتي وفي المقابل أن تُعاقبني ما تشاء. لكن لعناتها راحت تعلو في سماء الغضب. فاستيقظ أهل البيت وعلموا جميعًا أنَّني أُحادثُ الرجال. ولن أنسى ما حييت، والله والله لن أنسى ما حييت، حين ضربَ أبي رأسَهُ

بكفِّ يده، حين طالعني فارس وحسام في ذهولٍ مُهينٍ، حين راحت أمي تبكي وهي تضربُ صدرَها، وهي تولولُ أن ابنتها انحرفتْ..

هرعتُ إلى الصالون وخطفتُ عباءةَ الصلاة الخاصَّة بأمي، وفررتُ للشارع. لم أبكِ، لم تذرف عيني دمعةً واحدةً. رحتُ أركضُ في مدينة نصر كالمجانين. وكادت أن تدهمني السيارات وتفتكَ بي، لكنِّي في هيستيريا اللحظة، أفكر بوجوههم جميعًا، بأوجاعهم المولودة حديثًا على يدي.

آلاء هي أوَّل من فكرتُ فيها ملاذًا. أتاني صوتُها مذعورًا وقد أخبرها أخوها بما صار. حادثتُها من أحد البقاليات، ولم يكن صعبًا أن أُقنع صاحب البقالة أن المكالمة مجانًا. رآني جميلةً كفايةً ليفعل لي ما أشاء.

علِمَتْ آلاء بمكاني وأرسلت لي حبيبها رامي ليأخذني إليها. رفضتُ رفضًا قاطعًا الذهاب إليها، حينَ علمتُ بسلبية أخيها تجاه إنقاذي. كما أنَّني لم أشأ أن يعثُر عليَّ والداي. لبرهةٍ شعرتُ بقلبي لقيطًا في هذهِ الدنيا، لبرهةٍ أحببتُ الموتَ وفكرتُ في الشروع فيه.

أتاني رامي بأمرٍ من آلاء، بعدَ أن اتفقا أن أبيتَ عنده في شقَّتهِ الخاصَّة التي يؤجرها في المهندسين، شارع جامعة الدول. رحتُ أضحكُ بهيستيريَّة حينَ عرفتُ وجهتنا. شعرتُني عاهرةً بامتياز.

وصلنا. وجدتهُ يُعاملني بلُطفٍ وشفقةٍ. أحضرَ لي بيجامةً نسائيةً لا أدري من أينَ جاء بها. حتمًا ليست لآلاء. ثُمَّ طلب مني الاستحمام في حين وصول طلبية الطعام. صامتةً كنتُ طوال الوقت. أتلقى الأوامر بانسيابيَّة واعتياديَّة مُفرطة. واستحممتُ بالفعل، وضعتُ الشامبو على رأسي ثُمَّ البلسم، وانتظرتُ لدقائق قبل غسل البلسم. ثُمَّ جففتُ شعري بجهاز "السشوار"، وارتديتُ البيجامة، وخرجتُ له. وعلى طاولةٍ جلسنا إليها، تناولنا البيتزا.

أخبرني مرارًا أنِّي جميلة، وأنِّي مُختلفة تمامًا بلا حجاب.

- أرجوك لا تقترب مني اليوم!

- وماذا لو فعلت؟

- اعتبرني أختًا لك!

- لو كانت أُختي بثلثِ جمالك لاغتصبتها.

- آلاء تُحبك.

- وأنا أحبكِ أنتِ منذُ وقعت عيناي عليك.

- اخرس يا حقير!

ينهضُ غاضبًا مُحاولًا إمساكي، أغرزُ أظافري في رقبته، أفرُّ إلى الحمَّام، وأُقفل الباب.

- أتصدقينَ حقًّا أنَّكِ شريفة مكة؟ أنتِ وصديقتك في العُهر سواء. أنتِ وهي عاهرتان، لكنَّكما لا تأخذانَ المال، بل تبيعانِ الحبَّ مجانًا، وهذا يضمنُ لي أنَّكما لن تجلبا لي مرضًا جنسيًّا.

يضحكُ بفجورٍ، ثُمَّ يقول:

- أخو آلاء لم ينقذكِ لأنَّكِ عاهرة، وحبيبُ القلب باعك "وبخخخخ" اختفى لأنَّك عاهرة، مَن لك ِسواي يا عاهرة؟ نامي في الحمَّام، هو مثواكِ. وبالمناسبة، أدري أنَّكِ مدام، مدام كصديقتك تمامًا!

يبصُقُ بصوتٍ عالٍ. ويختفي صوتُه.. بعد أن توعَّد بأنِّي سأندم أشد النَّدم!

انتظرتُهُ أن ينام، وعمَّ السكونُ البيت. تركَ لي مالًا عند مدخل أرضية الحمَّام. لم أقرب منه. هُناك فقط بكيتُ، حينَ شعرتُ أنِّي لا أسوى مِثقالَ ذرَّةٍ من لا شيء، حينَ شعرتُ كم أنِّي حمقاء.

عانقتِ الشوارعُ فجرَ السماء وأنا أجوب شارع جامعة الدُّول، في حضرةِ

عشرات السيارات التي تراصت حولي كلَّ حين، تعرضُ عليَّ المال مُقابلَ ليلةٍ حمراء. المُدهش أنَّني تلذَّذتُ بالاستماع لجميع العروض والمُفاوضة باهتمامٍ، ثُمَّ الانتشاء بشهوة الرفض وقول "لا".

***

٦٠

لا أدري كيفَ اتصلتُ بقِسمَت، وصلت إليَّ وآوتني عندها. حاولتُ أن أنام، نام الجسدُ ولم تغفل الروح. ساعة ربَّما أو أقل وإذا بصوتِ الباب يُغلَق بقوَّة. أمي مع فارس قادميْن لأخذي. ووسطَ توسُّلات جدَّتي وقِسمَت بإبقائي عندهما للصباح، رفضتْ أمي ذلك رفضًا قاطعًا وهي تسألني من أينِ لي هذه البيجامة الغريبة، ليأتيها ردُّ قِسمَت الحاسم أنَّها من عندها. راحت أمي تكذب على قِسمَت كذلك، تُخبرها أنَّني تشاجرتُ مع أبي شجارًا قويًّا فتركتُ البيت.

وكنتُ في سيارة الأجرة، مُنزوية عند النَّافذة، وكانَ آخر ما نطقتُ بهِ همسًا هَمستُ بهِ في أُذن قِسمَت ألَّا تنساني وأن تأتي إليَّ في أقرب وقت.

أمي تجلسُ قرب السائق تلك المرَّة، كانَ فارس يجلسُ قرب النَّافذة من الجانب الآخر كذلك، المساحةُ بيننا بسيطة، لكنَّها في الواقع كانت كبيرةً كفاية، وكأنَّ بيننا البحر والبر يا فارس. نظرتُ إلى وجههِ الجميل، إلى طيفهِ يومَ كان صغيرًا يلعبُ معي، وإذا بهِ يقولُ باكيًا:

- لم أشأ يومًا.. أن تكوني هكذا!!

ثُمَّ يديرُ وجههُ عنِّي.. أتدري يا فارس أنَّكَ قتلتني؟ أنتَ لم تشأ أن أكونَ هكذا، أنا لم أشأ أن أكون هكذا، ولكن أن أكونَ ماذا يا فارس قُل لي؟ لم يُجبنا كِلانا.

وصلتُ البيت لأجدَ أبي ينهالُ بعصاةٍ على جسدي، يضربني بكُلِّ قواه. لم أصرخ، لم أبكِ، لم أُصدر أنينًا واحدًا من الوجع والعصا تُكسَر على جسدي.

وحسام في مخاضِ الصدمة والانكسار والبكاء يُطالع الموقف، يستمع لفضائح الأخت الكبرى، لبرهةٍ اشتقتُ زايَهُ وسينُه العوجاء، لبرهةٍ أردت أن أرمي بروحي في أحضانهِ وسطَ صراخ أبي:

- سوَّدتي وجهي خزاكِ الله!! تُرسلينَ صورك للشباب وتحادثينهم في الجنس؟ كم واحدًا منهم اعتلاكِ يا قذرة؟

لم أُجبهُ وقد علمتُ أنَّهم فتَّشوا هاتفي ليعلموا ما خَفي، وإنَّ ما خَفيَ لعظيمًا. أبي يضربني أمامهم ولا يهتز لأحدهم طرف. يُطالعونَ فقط الأرض من تحتي التي لا تنشقُّ وتبلعني، إلى أن قالت أمي:

- حتَّى حبيب آلاء لم يسلم منكِ يا فاجرة! وتتكلمينَ عن الإخلاص؟

نظرتُ لوجهها أسألهُ، لم تنتظرني لأسأل:

- آلاء اتصلت بي وأخبرتني كُلَّ شيء.

- تكذبين!

- أكذب؟!

تُمسِكُ هاتفَها، تتصل بآلاء وقد وضعت الهاتف على خاصيَّة مُكبِّر الصوت، تقول:

- ها يا آلاء.. ألستِ أنتِ من أخبرني أنَّها حاولت إغواء خطيبك؟ وأرسلت لهُ صورها عارية؟

- أجل خالتي أنا..

ثلاث كلمات صغيرة، من شفاهِ من أُحب، من شفاه مَن لها أمرُ قلبي من قبل ومن بعد، ثلاث كلمات تنسابُ هادئةً من بين أحبالها الصوتيَّة الرقيقة. صحتُ بقوةٍ، ثُرتُ ولا أدري من أينَ أتتني تلك القوة وكل هذا الغضب، خطفت الهاتف من بين يدي أمي، كنتُ أهذي بكلماتٍ لم أفهمها، قبلَ أن

أسقطَ أرضًا مغشيًّا عليَّ.

نهضتُ بعدها لا أدري بعدَ كم من الوقت، وجدتني في مكاني لم أتحرك، والجميعُ نيام. ذهبتُ غرفتي. وجدتها مقلوبةً على رأس أبيها. وكتب ذكرياتي مُقطعة، عدا المفكرة في عاشرتي. شعرتُ بلهيبِ البكاء، بكيتُ وكأنِّي أدفعُ روحي لتحطيم أضلُعي والسفر خارج هذهِ الأرض، لكنِّي حتمًا لم أشعر أنَّني جاهزة لهُ في عُلاه، بيننا ثأرٌ قديمٌ، ومعارك، ومجازر، وكلانا يعلم بذلك صمتًا، تاركًا للطرف الآخر حرية التَّصرف، لكنَّني بقيتُ عالقةً بين الكاف والنُّون، فآثرتُ أن أموتَ حيَّة، أن أُصبحَ مسخًا من نفسي. نمتُ لشدِّ ما آلمني جسدي، لشدِّ ما بكيت لغدرك يا زمن، لغدرك يا آلاء، لغدركم بي.

وحينَ الظهيرة أيقظتني أمي:

- أنتِ.. اليوم تُنظفين البيت كاملًا وتتعلمين الطبخ. هنيئًا لكِ بعيشة الخادمات من الآنَ فصاعدًا، أنت لا تستحقين عيشةً هنيةً مثل إخوتك، رددت تربيتنا فيك بكلِّ وقاحةٍ، أنتِ وقحةٌ جدًّا.

طالعت السقف في ذهولٍ، وكأنِّي لا أدري أينَ أنا. لبرهةٍ نسيت واشتقتُ الآء، فرُحتُ في بكاءٍ طويلٍ. جزعتُ وأنا أُطالع آثار الضرب على جسدي. أُطالع اللون البنفسجي الداكن الذي ملأ فخذيَّ وذراعيَّ وظهري، أُطالعُ كفَّ يد والدي على خدِّي، وتلكَ العلامات الزرقاء الطفيفةَ حولَ عيني. أبكي أكثر، وسرعانَ ما أنهمِكُ في أعمال المنزل.. حتَّى أنِّي حين طبخت، لم يقترب أحدٌ ممَّا صنَعَتهُ يداي. لم يُحدِّثني أحدٌ، انسلخوا جميعًا مني. لم يسألني أحدهم عن حالي، أو ما إذا كنتُ تناولتُ الطعام أم لا، هذا غير كلماتِ التوبيخ والتأنيب التي تُحاوطني من كل اتجاه أخطو إليه. ظلَّت وجوهُهم مُسودَّة، ولاحقًا علمتُ ألَّا جامعة، ولا خروج من المنزل بتاتًا. رحتُ أُقبِّل

الأقدام والأيادي. أُطلب الغفران. لم يسمعني أحدٌ، بل لم يرنِ أحد. وزادت الدُّنيا سوادًا حينَ منعتني أمي عن قِسمَت. سألتها كيف تمنعينني عنها؟ كيف تمنعينني عنها وقد اشتقتُها واشتقتُ كبريتها؟ فعلمتُ لاحقًا أن آلاء تكفَّلت بإفشاء جميع الأسرار، وأخبرتها أن خالتي تتواطأ معي في كل شيء أحيانًا. الغريب أنَّها لم تُخبرهم بأمر العذريَّة. هل كانَ ذلكَ باقي المروءةَ فيها؟ أم أنَّها لم تُرد هدم باقي بيتي لأن بيتها من الزجاج كذلك؟.. لم أفهم، وأحرقني عدم فهمي. أحرقني أن أستيقظَ يوميًّا فتتجسد مأساتي أمامي بلا كللٍ، أحرقني أن يتبرأ مني أهلي، أن يروني مُجرمة. ولم أدرِ إن كان حقًّا في هجرهم إصلاحٌ، وهل يُصلَح الموءود بالموت؟.. أحرقني الهجر والصمت، حتَّى أنَّني وصلتُ لمرحلةٍ كنتُ أهذي فيها مع نفسي.. فتظن أمي أنَّ في يدي هاتفًا أخونها معهُ.. تتَّسع عيناها فجأةً.. وحين تتأكد أنِّي لا أُحادث سوى نفسي، تُديرُ وجهها بعيدًا. مرَّت أشهر.. مرَّت كسنين عجاف.. خسرتُ عشرة كيلو جرامات.. فجأةً تنبَّهتُ لهذا وأمي تهمسُ لإخوتي: "أصبحَت كالهيكل العظمي".. لكن أسفها عليَّ لم يزد، أو فلنقُل أنَّ أسفها عليَّ نُسيَ تمامًا حين علمنا أن والدي مُصابٌ بداء السُّكري! وإذا بكُلِّ قديمٍ وجديدٍ يُفتح.. وتعلو الأصوات والغضب. أتى فارس إليَّ يُخبرُني أنَّه وحسام يكرهانني وأنَّهما يتمنَّيان لو لم أُولد. بكيتُ حتَّى ما استطعتُ أن أبكي مجددًا.. بكيتُ حتَّى ضَعُفَ نظري تمامًا.

شهورٌ أُخرى تمرُّ.. وإذا بي ابنةُ العشرين.. لكنَّني لم أكُن ابنة العشرينَ ربيعًا.. بل ابنةً للخريف. وحَمَلَت أمي، جنين ربما يكون بنتًا تعوضهم عني، سيرونني فيها كما يُحبون وليس كما تُحب، رأيتهم خلف باب غرفتي سعداء بالخبر بدوني، لكنَّ في ظهرِ كُلٍّ منهم، لمحتُ خنجري المدسوس في المنتصف.

لا يزال يؤلمهم، لكنَّهم اعتادوه، لكنَّهم تناسوه، ومع هذا لم يقبلوني، لم يفتحوا لي أيًّا من الأبواب المُغلقة.

فآنَ لي أن أفتحَ بابًا.. كانَ هذا آخرَ ما فكرتُ فيه، وأنا أُغلقُ بابَ البيت.. راحلةً.

***

٦١

قُربَ الفرن، أقفُ في انتظار الكعكة. تتسلَّلُ خلفي رايتشل، تُخبرُني أنَّني دومًا الأفضل في صنع الكعك. أبتسم وأنا أبحث عن الولّاعة لأشعلَ السيجارة. لا أجدها، فتمدَّني رايتشل بُعلبةِ كبريت. تخرقُ ذاكرتي قِسمَت.

أذكرُ آخرَ لقاءٍ بيننا. وقتها فقط، لم تُشعل عودًا واحدًا، ربَّما لأنَّها كانت تدري بأنَّهُ اللقاء الأخير، أو ربَّما لأن قلبيْنا يشتعلان كفايةً عندها فلا تُغني الثِّقابُ عن شيء.

جلست قربي، تُطالع وجهي المُصْفر.. لم تبدُ آسفةً عليَّ، لم تملأني بالشفقة، كانت كما اعتدتُها، بل وكأنَّنا انتهينا للتَّو من مشاهدة فيلمٍ معًا.. لكنِّي أذكرُ أنَّها قالت ما لن أنساه.. سألتني:

- أتذكرينَ الصَّخرة المُعلَّقة في النِّرويج؟

- أجل.

- أتخلى عن حظِّي العاثر لتتربَّعي أنتِ مكاني..

ضحكتُ حتَّى دمعت عيناي، حتَّى أنَّ أمي دخلت علينا فجأةً لترى ما السبب، وسرعان ما خرجت حين صمتنا..

- في أقرب وقتٍ.. انتقمي يا ريم.. انتقمي لأجلك ولأجلي. لا تكتمي القهرَ أبدًا بداخلك، ولا تموتي بين هذهِ الجدران.

ثُمَّ أمدَّتني بهاتفها قائلةً:

- أثمَّةَ مَن تُريدين الحديث معهُ؟ هيَّا في الخفاء..

في لحظةٍ واحدةٍ، بكيتُ بكاءً مُرًّا، أخبرتُها ألَّا أحد يستحقُّ أن أحادثه.

ثُمَّ وجدتها تطلب مني وبقوَّة أن أنتقم من آلاء بأن أجعلها تتصلُ بذويها وتُخبرهم أنَّ ابنتهم ضائعةٌ كذلك.. وكأنَّها مكالمةٌ من مجهولٍ. لم أوافق، فلم يكن للشر في قلبي مكانٌ.

- لستُ عذراءَ يا قِسمَت..

- أين المشكلة؟ هذا الجسدُ من حق صاحبه، الناس يجعلون أنفسَهم ظلالًا لله، حبيبتي؛ لا سلطان لأحدهم عليك إلَّا عقلك، حتى أمك وأبوك وكلهم، وتعرفين أيضًا، الله غفورٌ ستَّار لكنَّ العباد جبابرةٌ، فلا تُخبري أحدًا.

ذُهلتُ من بساطتها حين علِمَتْ بمُصيبتي، مِن ردِّها التِّلقائي الذي لا يتناسبُ كردِّ فعلٍ لما قلت. حضنتُها وكأنِّي بصدد إدخالها لروحي. مرَّرتْ يدها على رأسي، قبَّلت يدي بعينيْنِ تبكيان.. ثُمَّ راحت تدعو لي الله، وأنا لا أدري حقًّا إن كانت السماءُ نافذةً كفاية لتصلَ إليهِ دعواتها.

ورحلت قِسمَت، دون أن أودِّعها حقَّ وداع، دون أن أودِّع أعواد ثقابها. ملأني الفقد ولم ترحمني أمي حين قالت:

- من الآن فصاعدًا خالتك لن تدخل البيت. أنا أُمٌّ ومن حقي الحفاظ عليكم من كل شر، حتَّى لو كان الشر أختي. وما دامت أختي لم تصُن الأمانة، يُحرم عليها الاقتراب من أولادي. وأنتِ في مرحلةٍ عمريَّةٍ خطرةٍ، ستسقُطينَ في المغريات وقد عرفتي ما هو جنس الإنترنت والهاتف.. ملعونٌ هو اليوم الذي وِلدتي فيه. كنتُ أعتقد أنَّني أحسنتُ تربيتك، وحتَّى مرض قِسمَت النَّفسي، ظننتُهُ كافيًا لينبِّهك أن امرأةً مثلها لا يجوز الاقتراب منها جدًّا. لكنَّكِ غبيةٌ، صادقتها لأنَّها تشاركك الميول والشذوذ. أحقًّا تريدين معرفة قصة أعواد الثِّقاب؟ الحمقاء أحبَّت جارًا كانَ لنا، وسيمًا متعجرفًا، لم نرتحْ له، لا أبي ولا أمي، ومع هذا حاولنا أن نقترب منه إسعادًا لها. خطبها

لأشهر، والغيبة ذهبت برفقتهِ لبيت أهلهِ المسافرين آنذاك. وطبعًا لأنَّك أصبحتِ الآن قطة بمخالب، لن أستحي وأنا أخبركِ أنَّهُ مارس معها الجنس وأفقدها أعزَّ ما تملك. وحين علمنا بالأمر، ذهب أبي وعمّي لمقرِّ عمله وجرَّاهُ ضربًا لبيتنا برفقة المأذون لنُجبر اللئيم قسرًا أن يتزوَّجها. وفي ليلةٍ كالحداد، تزوَّجها، ليطلِّقها في نفس الثَّانية ثلاثًا، وهو يُشعل سيجارةً بعود ثقابٍ رماهُ لاحقًا في وجهها بعدَ أن أطفأهُ.. وخرج من البيت ولم نرهُ بعدها أبدًا. ومنذ ذلك الحين وقِسمَت ملعونةٌ بأعواد الثقاب، أخبرنا طبيبُها النَّفسي أنْ نتركها كما هي، لأن عقلها الباطن لا يزال متوقِّفًا عند تلك الحادثة. يقول إن ارتباطها بالكبريت هو آخر ما تبقى لها من ارتباطها بالحَبيب..

بكيتُ عاليًا، أنا التي تظن أن قِسمَت تحرقُ عودَ الكبريت كأنَّها تحرقُ رجلًا جديدًا في كل مرة! ثُمَّ قالت أمي:

- التَّسيُّب آثارهُ وخيمةٌ، لم نكن راضين عن خروجها برفقتهِ وعودتها متأخرًا وانظري للنتيجة. ولولا أن كشفك الله لنا، لأصبح مصيرُك كمَصيرها.

- ما تقولين ليس بمقياس! ألم تفعلي أنتِ ذلك أيضًا؟

- نعم؟!

- أدري بحبيبك عليٍّ.. ألم تحتسوا جميعكم الخمر؟ ألم تسلِّميه نفسكِ كذلك؟

وكانت تلك المرَّة الأولى التي أشعرُ فيها بارتباكِ أمي، بتلوُّن وجهها، بتعرُّق جبينها، ظنَّت أنَّها خرجت من المأزق حين قالت:

- يبدو أنَّ قِسمَت تفنَّنت في تشويه صورتي!! أنا وإن أخطأت، لن أسمح لأولادي بتكرار الخطأ مهما حدث.

- أقلهُ أعطيتي لنفسكِ حق الوقوع في الخطأ، وحرمتني من هذا الحق!

- هذا كلام العاهرات أمثالك..

وأغلقتِ البابَ، لتفتح في قلبي آلاف الأوجاع.

أذكرُ هذا الآن وأنا أراسل قِسمَت وقد مضت خمسة أعوام، أطلبُ منها للمرَّة الألف أن تأتي عندي في الولايات، ترفضُ مُتعللةً بجدَّتي. فأحاول رشوتها بأعواد الثِّقاب الأمريكيَّة، أخبرها أنَّها أكثر جودةً من أعوادها، تفشلُ محاولتي، ثُمَّ لاحقًا تُخبرني أن أُرسلَ لها بعضها في البريد، الماكرة، يضحكُ كلانا، ثُمَّ تقول لي إنَّها تُخبِّئ لي مفاجأةً أجمل من قدومها عندي، أهناكَ أجمل من قدومك يا قِسمَت؟!

***

٦٢

تُخبرني رايتشل أنَّني أعز أصدقائها..

لم يعُد في قلبي حتَّى غرفة صغيرة لصديقةٍ أجدُ فيها ما يُشبهني، أغلقت آلاء بفعلتها تلك الغرفة. وتركتها خاويةً إلَّا من ضحكاتها التي عشقتُها يومًا.

آلاء تزوَّجت ولها طفلٌ صغيرٌ الآن، آلاء هي أخرى عربيَّة مارست الجنس ما شاءت، وقبيل الزواج بفترةٍ بسيطةٍ راحت تبحثُ عن الشرف لتستعيرَهُ لليلةٍ، فقامت بترقيع بكارتها لتُرضي عريس الغَفلة حين يقربها كالطاووس يوم الدُّخلة، لتُرضيه بقطرةِ دمٍ تُسمَّى "العفَّة"، فيهنأ لزواجهِ من الفتاة المصونة. لإثباتها له أنَّها الشريفة العفيفة. آآخ.. بعض الفتيات المصونات ما هنَّ سوى قطط بمخالب سابقًا، قطط تعلَّمتْ متى تُغلِق عينيْها بمُنتهى البراءة والزُّهد ومتى تفتحهما بمُنتهى الوقاحة والجرأة. فتيات أكثرُ لؤمًا من العناكب والعقارب والساحرات الشريرات. أحيانًا أُشفقُ على الرجال.

أهذهِ هي مقاييس العفَّة التي حدَّثتني عنها يا أمي؟

لا شيء حقيقيًّا في وطني العربي، لا العفَّة ولا النَّزاهة ولا الشرف. وحتى الفكر، أصبحَ يُشبهُ العاهرة.. ههههههه.. عاهرة.

لربَّما تختلفُ نظرتي الآن عن العفَّة يا أمي، خصوصًا وقد خسرتها. العفَّة يا أمي، هي عفَّة النَّفس أوَّلًا، ثُمَّ ذلكَ الغشاء الرقيق الذي سيتمزَّق. قرأتُ قصَّةً عن أردني قام بذبح عروسهِ ليلة الدُّخلة، لأنَّها لم تكن عفيفةً ولم يتمزق الغشاء على شرشف السَّرير. أحقًّا قام بالبحث من تحتها وهي عارية ليبحث عن عفَّتها؟ أحقًّا فعل؟ المهم أنَّ عريس الغفلة ذبحها بعد أن اتهمها

بالزِّنا. وذهب لأهلها ليعترفَ أنَّهُ قام بغسلِ عاره، فحيَّاهُ أبوها قبل أن يسلِّم نفسَه للشرطة. في حين أفاد التقريرُ الطبي، أنَّ العروس ذُبِحتْ عذراء، وأن غشاءها كان مطاطيًّا. الفحل لم يكن رجلًا كفايةً ولم يفهم أنَّهُ في بعض الحالات حين يكون الغشاء مطاطيًّا.. فإنَّه قد يتطلب تدخُّلًا طبيًّا ليُفَضَّ، ومع هذا نحرها من وريد القهر لوريد المهانة. وسمعتُ قصةً عن أخرى عربيَّة وُلِدت بلا غشاء، مجتمعيًّا ودينيًّا يستحيلُ، علميًّا النِّسبة موجودةٌ ولا يمكن إنكارها. لكنْ في بلادي يعلو صوت الشرف والعادات على العلم. فهل هذا يعني يا أمي أن يرجمها الناس بفعلٍ لم تقربه؟ أنا أعلم وأنتِ تعلمين أنَّها في نظر الجميع ستظل زانيةً، ولن يصدِّقها أحدٌ، ولا بتقارير الأطبة.

حتى المُغتصبة العربيَّة، لا مكان لها في الحياة. حريٌّ بها أن تدفن نفسها، لا أهل ولا مجتمع ولا رجل سيقبلها. ستظلُّ ملعونةً بقطرتيْ دمٍّ لم تُضعهما عَنوةً. هل سيبحث النَّاس عن الذئب الذي انتهكها؟ هل ستُلقى عليه أصابع الاتِّهام؟ لا!! بل كل أصابع الاتِّهام ستوجَّهُ لفرْجها المُهان لا لفرْجِهِ اللعين. فتاةٌ عربيَّةٌ أُغتصبت منذ سنواتٍ. وجدوها مُلقاةً في أحد الطرق الزراعيَّة، أسعفها الغرباء. وحين علمَ خطيبُها تخلَّى عنها فورًا ولم يذهب حتى لزيارتها في المستشفى. وفور خروجها من المستشفى منعها أهلها من الخروج حتى من باب البيت وقام أبوها بختانها ظنًّا منه أنَّه سيكبح شهوتها. مَن قال لك يا حمار أن فتاةً مثلها ستكون لها شهوةٌ بعد الاغتصاب؟ مَن قال لك يا تعيسُ أنَّها لا تزال تنظرُ للرجل على أنَّه إنسان؟ وبعد فترةٍ، انتحرت الفتاة شنقًا في بيتها، لتلحقها لعنةٌ: ماتت كافرةً. من وكَّلَ نفسهُ عليها إلاهًا ليحكم؟ يقتصُّونَ منها حتى بعد مماتها. حتَّى الرحمة، لم يدعوا لها بها، جبابرةٌ العرب، جبابرة!

***

٦٣

ثلاثةُ أشهر، تمرُّ كحريقٍ لا ينتهي، سمعتُ أن جوليا مستاءةٌ بسبب تبدُّل أحوالي، في حين أنَّني كنتُ أفكِّر في أن أعمل في محل الدُّونات الذي طلبتْ منِّي جوليا أن أوافيها عنده. لم أجد مانعًا من تنفيذ طلبها لنتحدَّث فيما يخصُّني، فذهبتُ احترامًا لها. رحتُ أنتظرها، أشرب القهوة، أحرق السجائر، أُفكِّر بياسر في حين تدندن "لارا فابيان" أغنيتها في رأسي بلا توقُّف:

"Je suis malade"

أبكي دون خجل وقد أدركتُ مرضي كما الأغنية، يُطالعني النَّاس، يرأفون لحالي، والحقُّ أنِّي كنتُ مجهدةً كفايةً فلم أكترث لشيء، إلى أن وجدتُ ياسر يجلس أمامي باسمًا.

- تزوَّجيني!

وكانت الدَّهشةُ هي العالم الكبير الذي ابتلعني، لم أنطق.

- آه بالمناسبة جوليا لن تأتي، كنتُ من طلبَ منها الإيقاعَ بك. دونات؟

وراح يقلِّب في قائمة الدُّونات وكأنَّهُ لم يقل شيئًا، يُدندن قليلًا لحنًا لا أعرفه، يُدخل يدَه في جيبه، يُخرج علبةً صغيرةً يفتحها، خاتمًا ماسيًّا، يُقرِّبهُ مني، يرفعُ عينيْه إليَّ باسمًا:

- تزوَّجيني!

- لكنَّكَ اختفيت.

- وعدتُ إليكِ بحبٍّ أكبر من ذي قبل.

- سترحلُ ثانيةً..

- لا، سيعود كلانا لمصر.

- مجنون..

- سنذهب لأهلك وأنتِ زوجتي، ستحضرين زفاف فارس، سيكون لنا بيتٌ هناك.

أجهشتُ بالبكاء، فانتقلَ من أمامي لجواري، يحضنني. أبعدته عنِّي قائلةً:

- لن يقبلوا بي..

- وإن يكن، هذا أفضل من جَلد الذات، والتقيُّد بأدوات الشرط اللعينة، لو، إذا، إن... تحرَّري وعودي ريم.

- سيرفضوني..

- فليفعلوا، أقبلُكِ أنا بكل ما فيك، بخطاياك، بطفولتك، بوجعك، لا داعي للذهاب للمسيح، اقبليني مسيحك. أقبلُ بك، أُحبُّ بعضكِ وكلَّكِ، فأتمِّي عليَّ نقصي، مكتملٌ بكِ قلبي..

- لا أرضى لك نفسي..

- بل لن يحلو العمر إلَّا معك، دعكي مِمَّن لم يسامحوكي، دعكي من المجتمع وكلام الناس، كلامهم لا ينتهي جميلتي.. قد نذهب للكعبةِ يومًا لأثبتَ لكِ أنّها في انتظارك وأنّكِ سترينها.

يُمسك يدي، يقبِّلها:

- أحبُّكِ..

وجدتُ نفسي في عينيْه، وجدتُ أمي وأبي وفارس وحسام، وجدتُ ريم الصغيرة.. قال:

- أتحبينَ الأسرار؟

- أجل ولا

- ما رأيك لو أخبرتُكِ سرًّا؟

كنَّا نسيرُ، أُمسكُ بيده، قلتُ:

- أخبرني سرًّا!

- أبحثُ عنكِ منذ مدَّةٍ طويلةٍ، واستعنتُ بصديقٍ..

أُجيبهُ ضاحكةً وقد رفعتُ حاجبًا:

- و...؟

نقفُ في منتصف الطريق، يُطالعُني بحبٍّ يحوي قلقي، يُخرجُ لي من جيبهِ علبةَ كبريتٍ، وورقةً تبدو قديمةً، أقرأُ السَّطر الأوَّل بصعوبةٍ فالخطُّ جدُّ سيئ:

- "صديقي العزيز عبد الصَّمد أحمد ياسر.."

***

تمَّت

كَلِمَةُ شُكْرٍ..

عظيم امتناني لدار تُويا للنَّشر والتَّوزيع والقائمين عليها من ألفِهَا إلى يَائِها.. خاصّةً أ. هالة البشبيشي وأ. شريف الليثي..

وخالص العِرفان لزملائي من الوسط الأدبي:

د. محمد طه.. عبد الرحمن جاويش.. أحمد إبراهيم موسى.. أحمد عويضة.. إبراهيم أحمد عيسى.. الحسن البُخاري.. رامي أحمد.. مي عصام

ولأصدقائي وصديقاتي من تحمَّلوا جنوني مع التُّوت وأحبُّوهُ:

سامية نبيل.. ياسمين علاء.. هبة أحمد.. مُنى أحمد.. صلاح طارق.. سيِّد الزُّغبي "أبو السيد".. عبد الله غانم.. خالد الضبيبي.. فاطمة عبَّاس..أنس قدري.. مروة عامر.. هبة مُحيي.. انصاف مصطفى.. كريم ممدوح.. إيمان حسين.. "العُمدة" البهنساوي.. عبد الوهَّاب رزّام.. أحمد صالح.. بسمة ياسر.. محمد ياسر..

وإلى الغاليينْ:

أبي عبد الله المطري وأمي فتُّونة..

وإخوتي: محمد، وزيد، وفاطمة، ومريم المطري

وإلى تلكَ المجهولة.. أو فلنقُلْ.. المجهولات..

لكُم أهدي هذا الكتاب الذي دوَّخني..

حَلَا المَطري




منتصر أمين
الطواف


ياسمين حسن
ماريا


عرايا الروح
رواية


أحمد عويضة
وتنام لتراه


منتصر امين
يحيى


ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي


معرض الكتاب
رواية
عبدالرحمن جاويش


ابق حيا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى


Subject
الورقة
BOOK!


رواية
حواديت السعادة


شريف أسعد
#اعترافات_جامدة


رواية
الرّاحلون


الطريق إلى
السيّدة العجوز
محمد آدم


بالطوو فانله وتاب
أحمد عاطف


د. محمود طه
الخروج عن النص


التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرلس بهجت


محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع
رواية

دار تويا للنشر والتوزيع